والله متمٌّ نوره

((الموناد))

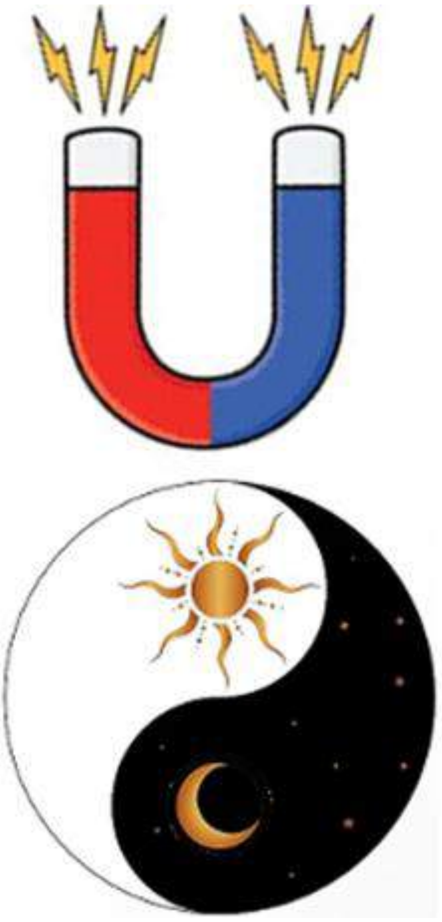

كتاب يقارب مغالطات شائعة

د . غفار محمد

و الله متمٌّ نوره ...

الإهداء :

إلى كل باحث عن الحقيقة يأبى الوقوع

في فخّ مغالطات الحياة ..

و الله متمُّ نوره ...

محتوى الكتاب :

- مغالطة الموناد (موشور الحياة)
- مغالطة الخلايا الجذعية (أكسير الحياة)
- مغالطة و الله متمٌّ نوره (رهاب الشمس)
- مغالطة الذهب يظلّ ذهباً (إلدورادو)
- مغالطة CO_2 – O_2 (عندما يطرد الكربون)
- مغالطة لا أملك خياراً (حجة الرقاصة .. الأرض مائلة)
- مغالطة إيفيرست (صراع العروش)
- مغالطة القرصنة (الأعور المحتال)
- مغالطة واقع افتراضي (الأكوان الموازية)
- مغالطة الكوكب المضجر (ما خفي كان أعظم)
- مغالطة فلسفية (انتقام لوسيفر)
- مغالطة الجندي المجهول (أبطال الظلّ)
- مغالطة وقوف على الأطلال (عروش خاوية)
- مغالطة الفنّ الخلّاق (أثبت للعالم أنك موجود)
- مغالطة سمّ + سمّ = سمسم (الحلقة المفرغة)
- مغالطة كازانوفا المعادن (الانجذاب الكوني العظيم)
- مغالطة خلف ظهرك رومٌ (المناعة الذاتية)
- مغالطة الخمرة الإلهية (جرح النور)

و الله متمٌّ نوره ...

المونلاد

(موشور الحياة)

ابتسمت سيرين و اتجهت نحو الباب حتى خرجت و ابتلعها الظلام كأنها كانت طيفاً أو حلماً عابراً .. هز أندراوس رأسه بدهشة ثم طلب كأس مشروب آخر و كان الخامس له خلال ساعتين ، تابع سهرته التي اعتاد عليها مع بداية كل شهر ، عندما تتدفأ جيوبه بأجور التدريس المترتبة على تلامذته .. لقد أثارت سيرين صراعاً داخلياً ً قديماً فيه عن حقيقة وجود الإله من عدمه..

بعد الكأس السادس شعر أندراوس بالإرهاق و النعاس .. فخاطب **كوامي** عامل البار..

= لقد نلت كفايتي اليوم يا كوامي .. عليّ الانصراف..

= لقد أسرفت بالشرب كثيراً .. أنت تتحول إلى مدمن يا صديقي ..

نظر إليه أندراوس بشرود ثم ابتسم ..

= هذا ما قاله لي الطبيب .. إن الإدمان هو أحد أعراض داء ثنائي القطب الذي شخصه لي .. في الحقيقة لم أقتنع بكلامه .. أنا أفضل الشرب لأنه يساعدني على نسيان المشاكل كما أنه يمدني بطاقة لتحمل ساعات التدريس الطوال .. يقول ثنائي القطب !! هل أنا دارة كهربائية بقطبين سالب و موجب يشع المصباح في منتصفها .. كلام سخيف ..

= سأرسل **كوفي** معك كي يقود سيارتك بروفيسور .. أنت مخمور للغاية و ليس من الحكمة أن تقودها بنفسك

=لا داعٍ لذلك .. أستطيع السيطرة على نفسي..

= كما تشاء .. رافقتك السلامة ..

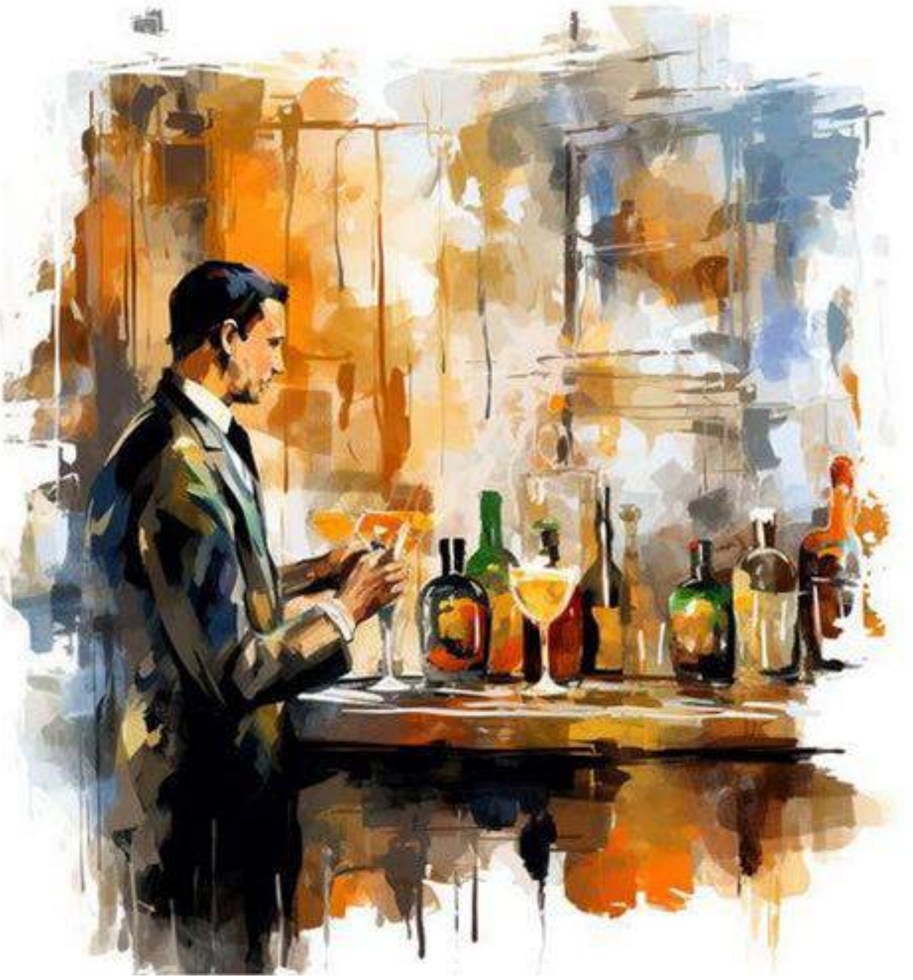

وضع الحساب على البار ثم غادر و هو يترنح قليلاً و شعور طاغٍ بالنعاس يستعمر عقله .. اتجه إلى سيارته المركونة في الخلف ثم قادها نحو منزله في ضواحي العاصمة .. و بخلاف كلامه مع كوامي فقد كانت قيادته متهورة ، مسرعة و بدون تركيز على ما حوله و الأسوأ أنه لم يعِ أنها كذلك ، ففي الحقيقة تشخيص

الطبيب لحالته كان صحيحاً تماماً و أندراوس يمر حالياً بنوبة تحت هوس تجعله مندفعاً بالأساس قبل أن يكون مخموراً ليشكلا سوياً خليطاً كارثياً متفجراً ..

رغم خلو الشوارع من السيارات في هذه الساعة المتأخرة نسبياً من الليل فقد برزت له فجأة سيارة مسرعة من طريق جانبي .. خانه التركيز و سرعة البديهة و التصرف، فلم يتمكن من السيطرة على الوضع و اصطدمت السيارتان ببعضهما بقوة شديدة ..

تم إسعاف أندراوس و سائق السيارة الأخرى إلى المشفى .. توقف قلب أندراوس مع وصوله هناك فحاول الأطباء إنعاشه لمدة نصف ساعة متواصلة ..

في هذه الأثناء كان أندراوس فاقد الوعي يمر في خضم إنعاشه بتجربة غريبة .. ما يسمى (**تجربة الموت الوشيك**) أو (**الإسقاط النجمي**) التي ذكرها عشرات البشر حول العالم بنفس الطريقة ، حيث شعر بنفسه يغادر جسده فيرى كل شيء من حوله .. كيف أن الأطباء يحاولون إنعاشه و رأى نفسه ممدداً على سرير المشفى .. كان ذلك مخيفاً للغاية .. هل هذه روحه التي ترى الآن .. لم يلبث مكانه طويلاً و شعر بنفسه بعدها يمر في نفق مظلم طويل ثم يخرج منه الى مكان مغمور بالنور ، وقف في مركزه شخص بلباس أبيض يبتسم له و من هيئته تبادر إلى ذهنه بأنه المسيح من ردائه ،

شعره و لحيته الشقراء الغامقة إضافةً إلى سنه المناسب تماماً .. ابتسم الشاب له ..

= أهلاً بك أستاذ أندراوس .. كان عليك الإصغاء لتشخيص طبيبك .. فمن أعراض الداء ثنائي القطب الاندفاع و قلة التركيز الذي أسفر عن حادث أليم ..

أندراوس بدهشة ..

= من أنت ؟ .. و أين أنا ؟

= أنا مخلصك ، يسوع المسيح .. و أنت هنا في عالم البرزخ الفاصل بين الدنيا و العالم الآخر ..أنت محظوظ أن تراني في يوم واحد مرتين مميزتين الأولى كصليب ذهبي على عنق حسناء و الثانية حقيقة أمامك..

تلفت أندراوس حوله بقلق و رعب ..

= هل تمازحني .. لابد أنني أهلوس أو أحلم في أحسن الأحوال !!

= إطلاقاً ..

= إذاً فأنا ميت !

= مؤقتاً .. ريثما ينجح الأطباء في إنعاشك..

= و ماذا تريد مني ؟

= أن أجيبك على سؤالك..

= أي سؤال منهم ؟

= سؤال كل باحث عن حقيقة الكون : هل الإله موجود .. كان جوابك هو لا أدري .. فهل بقي الآن كذلك ..؟

ابتسم أندراوس بدهشة ..

= لا أدري أيضاً .. ربما كنت أحلم أو أهلوس كما قلت .. أو ربما كما يقال هذا تأثير الأدرينالين و الأندروفينات في جسدي بسبب الحادث..

= اقترب و ضع يدك على رأسي..

اقترب أندراوس أكثر ثم وضع يده بالفعل على رأس الشاب فاخترقت يده جسده .. سحبها فزعاً على الفور..

= ماذا حدث للتو ؟

ابتسم الشاب ..

= أهلاً بك في عالم الأرواح .. إن طبيعة الروح مختلفة عن طبيعة الجسد .. الجسد جسم أما الروح فموجة .. كما تقولون أنتم في الفيزياء .. و الموجات يمكنها اختراق المادة .. كموجات الراديو مثلا .. أليس كذلك ؟

= هل أنت عارف بالفيزياء ؟

= بالطبع .. و بأكثر من ذلك ، فمن يعيش هنا يعرف كل شيء.. هل تتذكر تجربة **الشق المزدوج ليونغ** ..؟

= بالطبع .. تمرير الالكترونات عبر شقين لتسقط على لوح مقابل..

= بالضبط .. و الخلاصة التي توصلت إليها التجربة أن الإلكترون كغيره من الجسيمات دون الذرية ذو طبيعة مثنوية .. أي أنه جسيم و موجة بنفس الوقت لذا فلها جميعاً كتلة على خلاف الضوء و فوتوناته التي لا تملك كتلة أبداً بل هي طاقة فحسب.. هل يذكرك ذلك بشيء ديني أستاذ..

فكر أندراوس قليلاً..

= أبداً ..

= سأخبرك .. في الدين يقال عن الملائكة أنها مخلوقات نورانية جبلت من النور عكس الإنسان الذي هو مادة بكتلة خلقت من التراب و معها الروح الجزء الملائكي النوراني من الإنسان الذي يرتبط بالجزء الجسمي المادي الفاني..

أندراوس بذهول ..

= أي أن الإنسان بذاته ذو طبيعة مثنوية !!

= تماماً .. جسيم كرداء حول روح عبارة عن طاقة لا تفنى و لا تخلق من العدم .. طاقة أتت كفيض من مصدر الطاقة الأول .. الأزلي و الأبدي .. (الله) جل جلاله .. او ما سماه العالم الألماني متعدد المواهب **ليبنتز (موناد المونودات)** جميعاً ..

= موناد ؟

= أجل هو جوهر الطاقة في كل شيء ، الأساس الذي لا يفنى كما وصفه ليبنتز أو كما ندعوه في الدين الروح

= هذا كلام خطير للغاية .. !!

= إنه جوهر الحقيقة ببساطة .. هل سبق و أن قرأت في القرآن الكريم من قبل ؟

= بالطبع لا أنا مسيحي الأصل و لا أدري الفلسفة ،

رغم استشهاد صديقي المسلم بلال ببعض آياته أحياناً ..

= بلال و قناة اقرأ الثقافية ..

= تعرفه !!

= هنا نعرف كل شيء كما أخبرتك كما أعرف صديقك المتحرّي الشهير بونجاني ، شارلوك هولمز كما وصفته بنفسك ..

= مذهل !!

= الحقيقة ليست حكراً على أحد أو على دين أستاذ .. هي جوهر واحد موزع على الجميع تماما كروح الله ، وهنالك آية في القرآن تلخص ما سبق و قلته تتحدث عن الموناد الاصل..

= أثرت فضولي .. ما هي ؟

= آية تقول (**فنفخنا فيه من روحنا**) .. أي أن في كل منا طاقة من الإله يحملها الجسد البشري تماما كرداء من التراب يغطيها و تتحدان معا في شكل جسيم مزدوج الطبيعة .. و عند الموت يتحلل الجسيم إلى مادة بكتلة (جسد) و طاقة (روح) نورانية الطبيعة أو موناد كما يحلو للبينتز تسميتها ..ببساطة الجسد عبارة عن قوس و الروح هي السهم التي تنطلق منه نحو العالم الآخر و كلما زادت الصعاب اشتد القوس أكثر و انطلق السهم بقوة أكبر..

= رائع ، معبر و عميق !! لقد قلبت دماغي **180** درجة .. حقيقةً..

= و هل ما يزال جوابك على سؤالك .. لا أدري ؟

= أبدا ً.. فأنا الآن أدري بالفعل ..

= و الآن ؟

= الآن ماذا ؟

= الآن عليك العودة إلى جسدك لتتحد به .. فالأطباء على وشك النجاح في إنعاشك .. لقد توقف قلبك لنصف ساعة كاملة..

= لكنني لا أريد العودة .. المكان هنا رحب ، ممتع و مليء بالحقائق أريد أن أعرف كل شيء بدوري ..

= لا أحد يفضل الدنيا على العالم الآخر .. لكن لكل إنسان مهام في الدنيا عليه إنجازها قبل الانتقال النهائي إلى هنا .. أما على الأرض فالأفضل لك ألا تعرف كل شيء صدقني .. عندها ستتحول حياتك إلى مأساة و ألم نفسي عميق فتعجز عن مواصلة طريقك ..

= كما ترتأي .. سعدت بلقائك .. هذا حلم لم أتخيل في يوم من الأيام أن يتحقق ..

= سعدت بلقائك أيضاً .. قبل أن تعود ، هنالك وصية

هامة عليّ إبلاغك بها ..

= كلي آذانٌ صاغية ..

= عندما تعود إلى الحياة اسأل صديقك بلال عن شخص يدعى **بروميثيوس إيفانوف ..**

= و من هذا الشخص ؟

= إنه شخص سيقودك إلى كنزٍ عظيم سيغير واقعك جذرياً لينتشلك مع عائلتك من براثن الفقر و الحاجة ..

أندراوس بتفاؤل ..

= صحيح ..؟!

= كل الصحة .. لقد ضحيت بشبابك لأجل عائلة ليست عائلتك و الله سيعوضك عن ذلك بما لم تحلم به طوال حياتك ، هذه فلسفة الإله في الحياة ، الأمل مقابل الألم و الرخاء بعد الشدة .. من جهة أخرى فذلك الشخص المدعو بروميثيوس مرتبط بك على نحوٍ لن تصدقه ..

= لم أفهم ؟

= أترى هذه القطعة القماشية التي أرتديها ؟

= أجل ..

= على الأرض يدعونها **كفن تورينو** .. إنه الكفن الذي لف جسدي عقب موتي .. و عثر عليه تلامذتي في

المغارة عقب قيامتي ..

= و ما علاقتي به ..؟

= حول هذا الكفن يدور تحدٍّ مثير بيني و بين شخص تائه في الحياة يدعى سيرغي .. أراد ككثيرين قبله أن يتحدى السماء و يلوي ذراع الإله كما يتوهم .. لكنه سيعثر عليّ في النهاية كما عثرت عليّ اليوم .. فجميع الدروب تؤدي إلى روما .. أو تورينو في حالته هذه ..

= و هل هذا الشخص هو المدعو بروميثيوس ؟

= لا .. بروميثيوس أتى إلى هذه الحياة كنتيجة للتحدي الذي أعلنه ذلك الشخص ضدي .. كما أتيت أنت بالضبط .. فحبكات القدر هتيشكوكية على نحوٍ يفجر العقل ..

= لم أفهم !!

= ستفهم في الوقت المناسب .. لا تتعجل .. فكما أخبرتك هنالك أشياء كثيرة من الأفضل لك ألا تعرفها للحين .. عليك المغادرة الآن لكن احذر أن تخبر أي إنسان كان بأنك التقيت بي .. فلن يصدقك أحد و سيعاملك الجميع كمجنون فقد عقله .. و تذكر وصيتي .. اسأل بلال عن بروميثيوس ..

= لن أنسى ..

= و عاود زيارة طبيبك كي يعالجك من مرضك ، فتجاهله سيسبب كوارث لك ..

= بكل تأكيد ..

= إلى اللقاء يا صديقي ..

= إلى اللقاء سيدي ..

شعر أندراوس بروحه تغادر البرزخ لتعود من جديد إلى النفق المظلم الطويل ثم إلى غرفة الإنعاش و دخلت جسده ثانية ففتح عينيه و هو يشعر بدوار و تعب .. مع آلام متفرقة في أنحاء جسده جراء الحادث..

= لقد استعاد وعيه .. نجح الإنعاش أخيراً !!

تم نقل أندراوس إلى غرفة العمليات ليتم تجبير كسوره و استئصال طحاله الذي تمزق..

ربما كان ما مر به أندراوس مجرد حلم بكل تفاصيله و معلوماته ، لكن الأكيد أنه عندما ينتقل الملحد من إلحاده إلى مبدأ لا أدري يقترب أكثر من نواة الحقيقة و يطلق جزءاً من طاقته في هذا الكون .. و عندما ينتقل من مدار لا أدري إلى مدار الإيمان المطلق يكون قد أنجز مهمته في الحياة فيطلق كامل طاقته كروح تعود إلى الروح الأسمى الأزلية الأبدية .. روح الله موناد المونادات ..

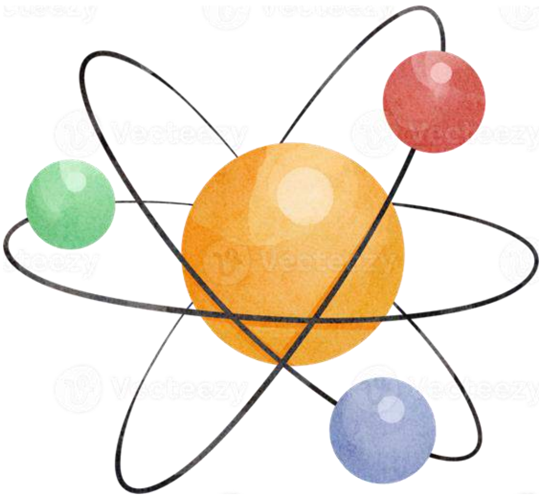

****

الموناد ..

قد يكون هذا المصطلح الذي أتى ذكره في القصة السابقة غريباً عليك عزيزي القارئ و ربما تعرفه ، لكن لا تقلق ، فمهمتي خلال الصفحات التالية أن أزيل الحجاب عنه كي تتعرف عليه سوياً أكثر ، فهو مفهوم شيق و مثير و مهم للغاية و جهل البشر به مغالطة يجب تصحيحها ..

و سننجز ذلك عبر مقاربته من الزوايا الثلاثة التالية :

① الموناد ..

② اللوحة الأصلية الممزقة ..

③ موشور الحياة و النور الإلهي ..

فهيا بنا عزيزي القارئ نحث مونادنا الذاتي كي يبحث عن صلته بالموناد الأعلى و الأسمى ..

أولاً ، الموناد و الله :

الموناد هو مفهوم فلسفي - علمي طرحه الفيلسوف والرياضياتي الألماني **غوتفريد لايبنتز** في القرن السابع عشر، ويصفه **كوحدة أساسية** غير مادية للوجود، بسيطة وغير قابلة للتجزئة، تحمل في داخلها خصائصها ونشاطها الذاتي.

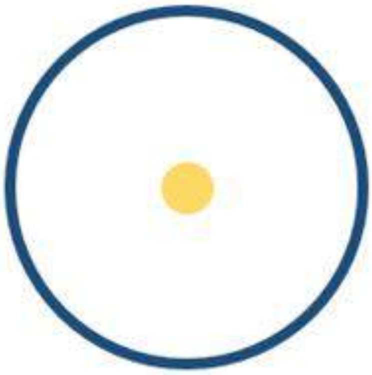

علميًا، يمكن تشبيه الموناد بوحدة أولية للواقع لها نظام داخلي خاص بها، تعمل بشكل مستقل عن المؤثرات الخارجية، لكنها تعكس بشكل مبرمج تطور الكون ككل، وفق تناغم مسبق وضعه الله.

إذا اعتبرنا الله هو الموناد المطلق، الجوهر الأسمى الذي يحمل في ذاته كل شيء، الذي لا يتجزأ، والذي هو أصل كل الوجود، فإننا نحن، في هذا التصور، مونادات صغرى متصلة به. أي أننا انعكاسات جزئية من نور الله، نقاط فردية من وعيه اللامتناهي، تحمل خصائص مستقلة، لكنها في الجوهر منبثقة منه ومتآلفة معه.

بعبارة أدق : كل إنسان، كل روح، كل ذرة وحدث في الكون يمكن رؤيتها كجزء من شبكة المونادات التي بدأت من المصدر المطلق. نحن مونادات نسبية : نمتلك وعيًا محدودًا، وإرادة تبدو لنا مستقلة، ولكنها في النهاية تعكس النظام والجوهر الكلي لله. كأننا أشعة من الشمس : مستقلة في شعاعها، لكنها في الجوهر جزء من الشمس الأصل نفسه.

روحياً، هذا يعني أننا لسنا منفصلين عن الله، بل جزء من الذات الإلهية، ونجد معنى وجودنا في اكتشاف هذا الارتباط. فلسفياً، هذا يعطي للحياة بعداً جديداً : كل فعل، كل فكر، كل شعور هو تفاعل بين موناد صغير (نحن) والموناد الأكبر (الله)، وكل لحظة وعي حقيقية هي فرصة لتقريب جزئنا الفردي من الوحدة المطلقة.

ثانيًا ، اللوحة الأصلية الممزقة :

تخيل الله كوجود مطلق، كلوحة فنية هائلة مكتملة بكل تفاصيلها أو كلعبة قطع الأحجية المشهورة ، لوحة لا يمكن للعين البشرية أن تلمس حدودها، لوحة تجمع كل الألوان والأنغام والأضواء والظلال في انسجام لا متناهٍ. هذه اللوحة هي الموناد الأكبر ، الجوهر المطلق الذي يضم في ذاته كل شيء، كل حدث، كل فكرة، كل روح، وكل حركة في الكون. في صمتها المهيب، تكمن خطة وجود لا تتبدل، نظام شامل لا تشوبه شائبة، كل شيء فيها في مكانه الصحيح ، وكل لحظة في الزمان مضاءة بنور غامض يُسمى الوعي الإلهي.

أما نحن، البشر، فنحن أجزاء صغيرة من هذه اللوحة، مونادات نسبية، نقاط من الضوء واللون تهيم على صفحة الكون كما لو كانت تجارب مستقلة، تتخبط، تتوه، تتصادم أحياناً، وتتعانق أحياناً أخرى. الدنيا هي

الساحة التي تتناثر فيها هذه الأجزاء على كوكب الأرض، كل منا يحمل قطعة من اللوحة، لكنه يجهل أحيانًا موقعه الحقيقي فيها. في لحظات الغضب، في لحظات الحب، في لحظات الألم والفرح، نلمس آثار اللوحة الكاملة من خلال تصرفاتنا، ونلمس صدى الانسجام الذي يربط بين كل هذه الأجزاء المتفرقة.

ومع تقدم الزمن، ومع تفاعل هذه المونادات الصغيرة مع بعضها، ومع التقاء الروح بالروح، ومع تصاعد الوعي الجماعي، تبدأ اللوحة الكبرى في الظهور تدريجياً. تتضح الخطوط، تتقارب الألوان، ويبدأ جوهر الله في السطوع بوضوح، كما لو أن نور الشمس ينساب بين السحب بعد عاصفة طويلة. كل لقاء، كل تجربة، كل لحظة وعي، كل فعل خير أو شر، هي ضربات فرشاة على هذه اللوحة الكونية، تضيف التفاصيل وتكشف عن الانسجام الخفي في الخلفية.

وفي نهاية الزمان، ستكتمل اللوحة أخيراً، كما تكتمل الموسيقى بعد كل نغماتها، كما تنكشف الحقيقة بعد كل أسرارها، وستظهر ساعة الوجود، الساعة التي تكشف الكمال المطلق للوجود. حينها، لن تبقى قطعة ضائعة، ولن يختفي لون، ولن يكون هناك ظل لم يلمسه نور الحقيقة، وستصبح الموناد الكبرى، جوهر الله المطلق، واضحة في كل تفاصيلها، متألقة في كل نقطة من نقاط الكون، لتُعلن عن الانسجام الكامل بين كل المونادات ، بين كل الكائنات، وبين كل لحظة من الزمان.

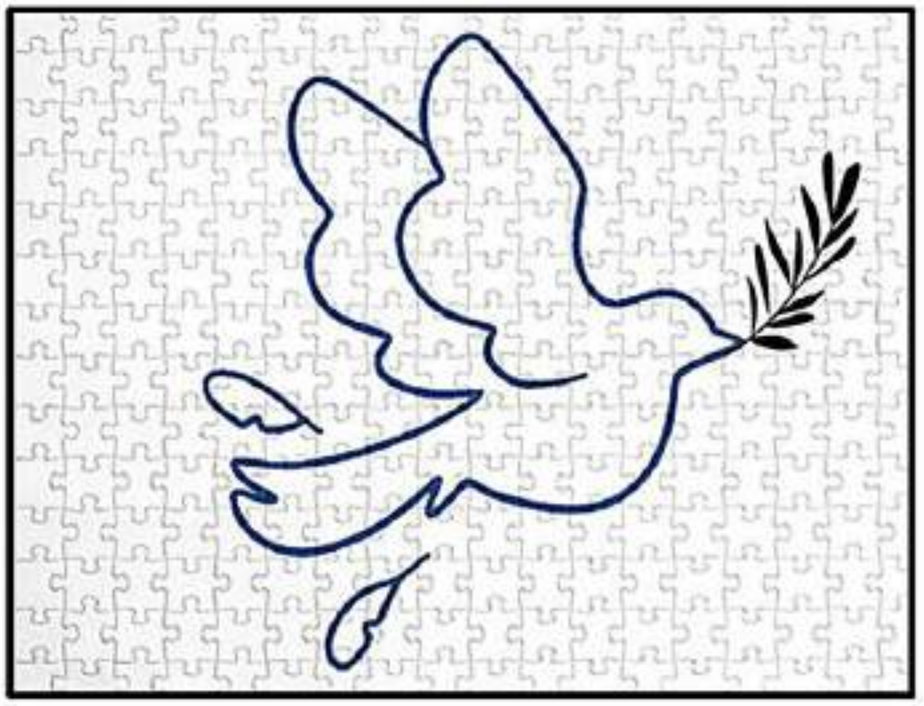

في تلك اللحظة، لن يكون هناك انفصال، ولن يكون هناك انتظار، فكل شيء سيصبح واحداً، وكل جزء من اللوحة سيعكس الكل، كما كانت الفكرة الأولى منذ الأزل، لوحة متكاملة، لوحة الله، لوحة الحياة، لوحة الوجود التي ستكتمل لتُعلن نهاية الرحلة وبداية الخلود.

ثالثاً ، موشور الحياة و النور الإلهي :

تخيل الدنيا كموشور كوني شفاف، قطعة بلورية ضخمة، تتدلّى في فضاء الحياة لتلقي النور من مصدره الأسمى، نور الله، الموناد المطلق، الذي لا يعرف الحدود ولا يتجزأ. هذا النور ليس مجرد ضوء عابر، بل هو وعي أزلي حيّ، ينبثق من الجوهر المطلق ليحيي كل شيء. وعندما يمر عبر الموشور، يتشظى ويتناثر إلى ألوان الطيف، وكل لون يطفو على سطح الحياة كفوتون مستقل، يحمل شعاعاً فريداً من النور الكلي، لكنه لا ينفصل عن أصله. كل إنسان هو فوتون من النور الإلهي، نقطة ضوء متفردة، كيان ذو إرادة ووعي، يتفاعل مع الألوان الأخرى، يضيء العالم بما يحمله من وعي وإحساس، ويختبر طريقه عبر الموشور كرحلة تعلم واكتشاف.

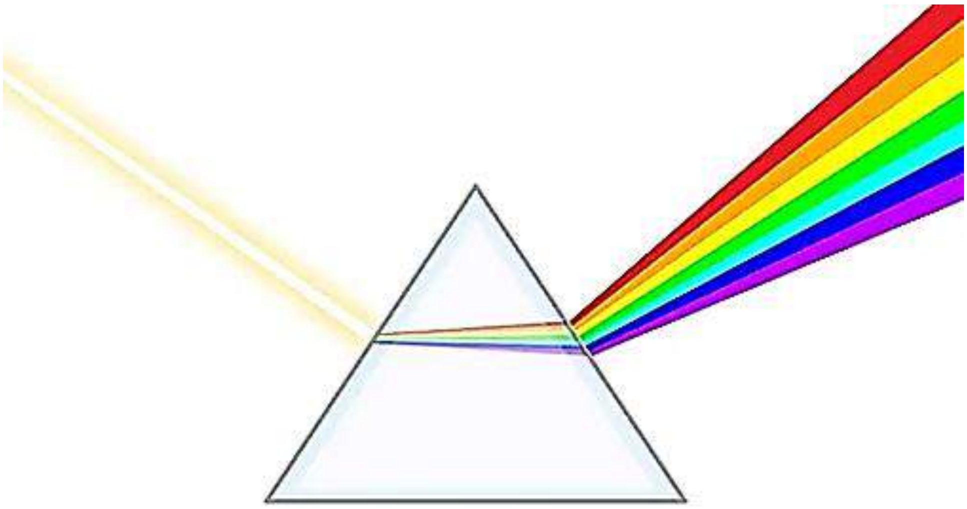

الألوان، رغم استقلالها الظاهر، ليست منفصلة عن جوهر النور. فهي تتصارع أحياناً، تتقاطع أحياناً

أخرى، فتولد ألواناً جديدة في تصادمها، وتنبعث موسيقى كونية من انسجامها. في الحب، تتقارب الأشعة، تتشابك، فتخرج ألوان جديدة تنير دروباً لم تكن متوقعة، وفي الصراع، يختلط الظل بالضوء، فيتجلى جوهر النور في اختبار الانقسام والتباين. كل تجربة، كل شعور، كل لحظة حياة، هي محاولة من كل فوتون للحفاظ على حيويته والارتباط بالنور الأصلي، لتصبح التجربة الأرضية مرآة للكون الكامل، حيث يبدو الانفصال، لكنه في العمق وحدة متخفية، وكأن الموشور نفسه يختبر كيف يمكن للنور أن يتشظى ليعرف ذاته عبر تنوع ألوانه.

ومع انتهاء الحياة، ومع خروج كل فوتون من حدود الموشور، يبدأ التحوّل العظيم : رحلة العودة إلى الوحدة. الألوان المتناثرة، التي بدت بعيدة ومستقلة، تبدأ في الالتقاء تدريجياً، كأنها تتذكر أصلها الأول، وتعود لتلتئم في شعاع واحد مشرق صافٍ لا يشوبه الانقسام. هذه هي **قيامة الموناد**، اللحظة التي يظهر فيها النور الإلهي في كماله، واضحاً لا ينكسر، جامعاً كل تجارب الفوتونات البشرية، كل لحظات الانفصال والاتحاد، الحب والكراهية، الضوء والظل.

في هذه اللحظة، تتجلى الحقيقة النهائية : أن كل لون وكل روح وكل حياة، مهما بدت ضائعة أو متفرقة،

كانت دائماً جزءاً من الكل، وأن نهاية كل مسار فردي ليست سوى عودة الضوء إلى جوهره الأصلي. وهكذا، تتحقق الوحدة الكاملة، وتعلو السيمفونية الكبرى للوجود، ليصبح الكون كله لوحة واحدة، نور واحد، ووعي واحد. هذه القيامة ليست مجرد نهاية، بل تأكيد على الأبدية والاكتمال، على أن كل انفصال كان وهمًا، وكل اختلاف كان فرصة لإظهار جمال التنوع في إطار وحدة مطلقة. حينها، يظهر جوهر الله، الموناد الأكبر، متلألئًا، صافياً، متحداً في كل نقطة، ليعلن عن اكتمال اللوحة الكونية وظهور الحقيقة الأبدية بقيامة الموناد ، خاتمة لكل شيء وبداية للخلود، حيث تنتهي الساعة وتكتمل الرحلة، ليصبح كل شيء واحدًا مع النور المطلق، كما كان منذ الأزل، كما سيكون إلى الأبد.

******

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**الموناد**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= أنا عبارة عن فكرة عشوائية تحوم في كون عشوائي

بل أن نقول :

= أنا جزء لا يتجزأ من لوحة مثالية سامية تجسد الإله الأعلى .. فوتون من نوره المشرق الذي تشعب في موشور الحياة .. و بتفاعلي مع الأجزاء و الفوتونات من حولي ستتضح الصورة الأشمل للإله رويداً رويداً.

الحياة تحفة فنية مذهلة، مليئة بالألوان و التفاصيل و النقوش ، لكنها مهشمة إلى مليارات القطع صغيرة، كل قطعة منها نحن البشر، كل روح تحمل جزءًا من الجمال الكلي.

الله، بيديه الخفية، يجمع هذه الشظايا مرة أخرى، ملامسًا الكسور بلطف، كما في تقنية **الكينتسوجي** اليابانية، حيث يُعاد لصق القطع المكسورة بالذهب ليصبح الكسر جزءًا من الجمال نفسه.

ماء الذهب الذي يربط القطع المبعثرة هو الوعي الإلهي المتجسد في الأنبياء والعلماء والفلاسفة، الذين يربطون بين الأجزاء، ويكشفون عن الانسجام الخفي في الكون.

كل لقاء، كل تعلم، كل اكتشاف هو لحظة يملأ فيها

الذهب الفراغ بيننا، فيضيء الكل بتألق جديد.

البشر، رغم اختلافهم وصراعاتهم، يصبحون ألوانًا من نور يُظهر جمال اللوحة بشكل أكثر ثراءً.

في النهاية، كل جزء من حياتنا المبعثرة هو دعوة لإعادة الاتصال بالكلّ الإلهي، لتكتمل التحفة التي هي الوجود.

وهكذا، يتحوّل الكسر إلى جمال، والانفصال إلى وحدة، والإنسان إلى شاعرٍ يشارك في كتابة اللوحة الأبدية ..

الخلايا الجذعية

(أوكسير الحياة)

منذ فجر الخليقة، والإنسان يسير مثقلاً بهاجسٍ أزليٍّ يطارده في يقظته ومنامه : هاجس **الخلود**. ذلك الشوق الماورائي الذي يتخطّى حدود الجسد ويفتش في أسرار الأبدية. ولعلّ هذا الظمأ للخلود يتجلى في الأساطير القديمة عن **ينبوع الشباب السرمدي**، تلك العيون السحرية التي، إذا شرب منها الإنسان، انكسرت أمامه شوكة الفناء، وتداعت أسوار الموت، ليدخل من بوابات الخلود العريضة حيث لا شيخوخة ولا وهن، بل شباب دائم، وقوة لا تخبو.

غير أن تلك الأساطير ظلت قرونًا مجرد خيالات يتداولها البشر في الليالي، قصصًا تسرد للأطفال قبل

النوم، تغذي فيهم حلم المستحيل وتوقظ في أرواحهم براعم الخيال والإبداع. حتى بدايات الألفية السابعة، حيث بزغ فجرٌ جديد غيّر زاوية النظر إلى هذه القصص، فدخل مفهوم **الخلايا الجذعية** إلى المشهد، مزلزلاً حدود ما كنا نعدّه خيالًا محضًا.

كان هذا المفهوم موجودًا منذ أربعة عقود، لكنه ظلّ خجولًا، لا يتجاوز صفحات الكتب والنظريات، حتى جاء عام **1998**، حين نجح بعض العلماء في أن يضعوه على محكّ الواقع، فعزلوا هذه الخلايا وأجروا عليها دراسات متعمقة، اكتشفوا من خلالها حقائق مذهلة ووعودًا هائلة للمستقبل، وإن بقيت – للأسف – محصورة في دائرة الحيوان المختبري أكثر من الإنسان.

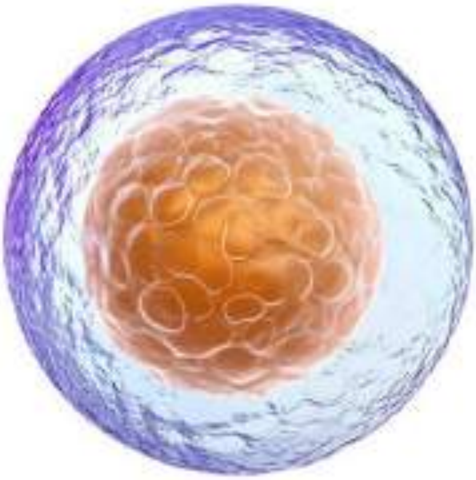

هكذا عادت الأساطير القديمة إلى سطح الفكر المعاصر، لكن هذه المرة بوجهٍ علمي، إذ طرح باحثو الخلايا الجذعية فرضية تبدو للوهلة الأولى أسطورية :

(تخيّل لوهلة أن هناك خلايا تستطيع أن تتحول إلى أي نمط من أنماط خلايا الجسد : عصبية، عضلية، قلبية، كبدية، رئوية... إلخ. خلايا تنجذب إلى الأنسجة المتأذية كما لو أنها تشمّ آهاتها من بعيد، فإذا حُقنت في الدم، تجولت في الجسد باحثة عن الجراح والكسور لتعيد بناءها، متمايزةً ذاتيًا حتى تُعيد النسيج إلى صورته السليمة، ومن دون أن يرفضها الجسد لأنها من نسيجه ذاته.

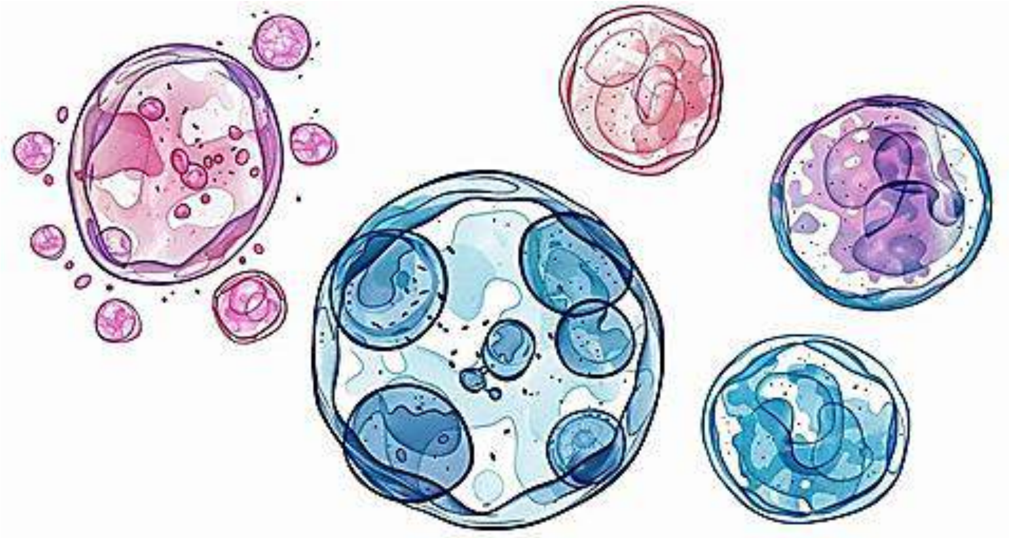

كيف سيكون المشهد إذن ؟

إفلاس كثير من الأطباء، إغلاق عيادات بأكملها، وانطفاء بريق كثير من الأدوية والجراحات. وربما – في ظل وقايةٍ من الأخطار الخارجية – امتداد عمر الإنسان إلى حدٍّ يلامس الخلود... وإن كان الخلود الروحي في نهاية المطاف محالًا، فالله قد كتب لكل نفس أجلها لا يتقدم ولا يتأخر. ومع ذلك، يبقى أن يعيش الإنسان عمره المحدود بلا أمراض ولا عاهات حلمًا

يكاد يضاهي في عظمته أسمى أهداف الطب الحديث.)

لكن السؤال الذي يتلو هذا الحلم : هل هذه الرواية الجديدة بدورها أسطورة أخرى تضاف إلى أساطير الخلود ؟

الجواب : إنها ليست مجرد رواية ولا خيالًا يُقصّ، بل هي واقع يوشك أن يتجسد. هي الحافة بين الممكن والمتحقق، لا ينقصها سوى جهد جماعي وإرادة إنسانية حقيقية لتفتح بوابة عهدٍ طبيٍّ جديد، عنوانه الكبير :

الخلية الجذعية... خلية الإله.

****

إذن لطالما حلم الإنسان بعلاج سحري يشفي من كل الأمراض ببساطة ، أطلق عليه البعض **أكسير الحياة** .. و أغلب البشر اليوم يؤمنون بيقين بأن هذه الفكرة خرافة لا وجود لها ، لكن كما أسلفنا منذ قليل عزيزي القارئ فقناعتهم هذه مغالطة شائعة لا غير .. فأكسير الحياة موجود بالفعل و في داخل كل إنسان منا فيما يسمى بخلية الإله .. و هذا ما سنثبته خلال الصفحات التالية عبر مقاربة هذه الخلية من الزوايا الثلاثة التالية :

① نبذة عن الخلايا الجذعية ..

② الخلية الجذعية فلسفياً ..

③ مجالات استخدام الخلايا الجذعية ..

فهيا بنا عزيزي القارئ نضع الخلية الجذعية تحت مجهر التقصي و البحث و نتأكد بأنفسنا ..

أولاً ، **نبذة عن الخلايا الجذعية** :

في عالم الأحياء، حيث تتشابك الخيوط الدقيقة لتشكل نسيج الحياة، تقف الخلية الجذعية ككائن استثنائي، أشبه ببذرة غامضة تحتفظ في صمتها بكل احتمالات النمو. إنها ليست مجرد لبنة عادية في جسد الإنسان، بل هي الأصل، نقطة البداية التي تملك القدرة على أن تتحول إلى أي شيء تقريباً. إذا كانت الخلايا المتخصصة أشبه بعمال منهمكين في وظائف محددة — قلب يخفق، دم يحمل الأكسجين، جلد يحمي — فإن الخلية الجذعية هي العامل الذي لم يختر بعد وظيفته، بل يقف عند عتبة

الإمكانات، قادراً على أن يصير طبيباً لكل الأعضاء، أو خادماً لأي نسيج.

الخاصية الأبرز في هذه الخلايا تكمن في ثنائيّتها العجيبة :

= قدرتها على **التجدد الذاتي**، أي أن تنقسم مراراً وتكراراً لتنتج نسخاً من ذاتها، دون أن تفقد طبيعتها الأصلية.

= قدرتها على **التمايز**، أي أن تتحول إلى أنواع متخصصة من الخلايا بحسب ما يحتاجه الجسد : عصبية، عضلية، دموية، كبدية، أو غيرها.

هذا المزيج بين الاستمرارية والقدرة على التغير يجعلها بمثابة **بنك للحياة** داخل الكائن الحي، خزينة سرية تحتفظ باحتمالات المستقبل.

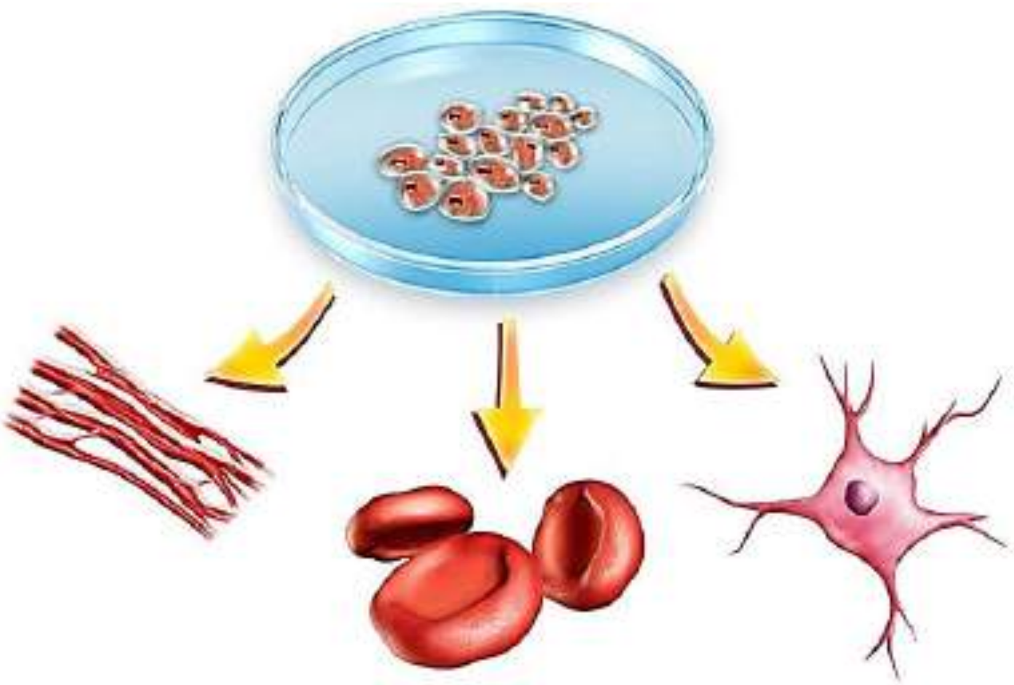

ولأنها جوهرية بهذا الشكل، كان لا بد من التمييز بين أنواعها. فهناك **الخلايا الجذعية الجنينية**، تلك التي تُستخلص من الجنين في مراحله الأولى، والتي تحمل القدرة المطلقة تقريباً على تكوين جميع أنسجة الجسم. إنها الأكثر قوة، لكنها أيضاً الأكثر إثارة للجدل الأخلاقي، إذ يرتبط الحصول عليها بإنهاء حياة الجنين في بداياتها.

وعلى الجانب الآخر نجد **الخلايا الجذعية البالغة**، الموجودة في أنسجة مكتملة مثل نخاع العظم أو الدم أو حتى بعض مناطق الجلد. قوتها أقل من الجنينية، لكنها تحمل فضيلة الأمان الأخلاقي، إذ يمكن استخلاصها دون المساس بالحياة في بدايتها.

أما أحدث الاكتشافات وأكثرها إثارة فهو ما يعرف **بالخلايا الجذعية المستحثة وافرة القدرة**. وهي خلايا بالغة عادية أُعيدت برمجتها لتعود إلى حالتها الجذعية

البدائية، وكأن العلم أعاد عقارب الساعة البيولوجية إلى الوراء. بهذا الإنجاز، فتح الباب أمام أمل جديد :
الحصول على خلايا متعددة القدرات دون الحاجة إلى أجنة، في توازن نادر بين قوة العلم ورغبة الإنسان في احترام الحياة.

من حيث المصادر، تتوزع الخلايا الجذعية في جسد الإنسان وكأنها حراس صامتون يتوزعون على البوابات الحيوية. **نخاع العظم** هو أحد أغنى تلك المصادر، حيث تسكن خلايا قادرة على إنتاج كريات الدم البيضاء والحمراء والصفائح، فتجدد الدم كما لو أنها نهر لا ينضب. الدم المحيطي يحتوي بدوره على كميات أقل من هذه الخلايا، لكنها تزداد عند تحفيز الجسد بطرق معينة. ثم هناك **دم الحبل السري**، كنز يُستخرج عند الولادة، يحمل إمكانات كبيرة لعلاج أمراض الدم والمناعة، ويُخزّن اليوم في بنوك خاصة بوصفه احتياطياً حياً للمستقبل. حتى **الأنسجة الدهنية والجلدية والدماغية** ،أظهرت وجود خلايا جذعية يمكن عزلها وإعادة استخدامها. وكأن الجسد كله يوزع بذور الاستمرارية في أكثر زواياه مساحة، احتياطاً للطوارئ.

لكن وراء كل هذا الجانب العلمي، يكمن بُعد إنساني وأدبي يصعب إغفاله. فالخلايا الجذعية ليست مجرد أدوات في مختبر، إنها انعكاس لفلسفة الطبيعة ذاتها :

أن التجدد ممكن، وأن الفناء ليس قدراً مطلقاً. في قدرتها على التحول تكمن حكمة عميقة : **ما من هوية نهائية، بل هناك مسار دائم للتغير**. وهذا الدرس لا يخص الطب وحده، بل يمتد ليهمس في آذان الفلاسفة والشعراء : **أن الإنسان، مثل الخلية الجذعية، ليس ما هو عليه فقط، بل ما يمكن أن يصير إليه.**

العلماء اليوم ينظرون إليها باعتبارها المفتاح لعلاج أمراض استعصت قروناً : **السرطان، الشلل، تآكل الأعصاب، فشل القلب**. لكن الشعراء ربما يرون فيها استعارة للخلود، لسر الطبيعة في أن تمنح الحياة فرصة ثانية، بل فرصاً لا متناهية. إنها **نقطة التقاء بين الميكروسكوب والمجاز، بين الدقة العلمية ورغبة الإنسان في الخلاص.**

وفي النهاية، يمكن القول إن الخلية الجذعية ليست مجرد كائن بيولوجي صغير، بل رمز لعلاقة الإنسان بالطبيعة وبالمستقبل. إنها دعوة مفتوحة لأن نتأمل : **ألسنا نحن أيضاً خلايا جذعية كبرى، نحمل في داخلنا قدرة خفية على أن نعيد تشكيل ذواتنا، وأن ننهض من جديد مهما أثقلنا العجز أو المرض أو الزمن؟**

ثانياً ، الخلية الجذعية فلسفياً :

في البدء كانت الخلية، نقطة الضوء الأولى التي تعانق

المادة، الومضة التي تقف على العتبة بين العدم والوجود. ومن بين بحر الخلايا المتكاثرة التي تشكل جسد الإنسان، تطل الخلايا الجذعية بوصفها النواة الأعمق، الأصل الذي لا ينضب، والمصدر الذي يحمل في طياته إمكانيات لا حدود لها. إنها ليست مجرد وحدات بيولوجية تسبح في دمنا أو تسكن نخاعنا العظمي، بل هي أشبه بمفاتيح صامتة تحمل قدرة على فتح أبواب المستقبل، كأنها كنز مكنون في أعماق الكيان، لا يظهر إلا لمن يملك شغف السؤال.

الخلايا الجذعية ليست مكتملة الشكل، لا تنتمي إلى عضو محدد، ولا تحمل هوية قاطعة. إنها الاحتمال الخالص، المادة الخام التي لم تُصَغ بعد في قوالب التخصص، أشبه بكتلة طين تنتظر يد الخالق لترسم منها وجهاً أو جسداً أو نبض حياة جديد. فيها تكمن حرية الوجود في أصفى معانيها؛ فهي تستطيع أن تصير ما يُطلب منها : خلية قلب تنبض بالوفاء، خلية عصب تحمل الذكرى، أو خلية جلد تكسو الجسد وتستر هشاشته

في الفلسفة القديمة كان الإنسان يبحث عن المبدأ الأول، ذلك العنصر الذي منه تتولد الأشياء، وقد يكون الماء عند **طاليس**، أو النار عند **هيراقليطس**، أو الجوهر عند **أرسطو**. أما العلم الحديث، فلعله وجد في الخلايا الجذعية صورة ملموسة لهذا المبدأ؛ جوهر حيّ لا يزال

قابلاً للتشكل، يحتفظ بذاكرة الأصل، ويحمل في صمته وعداً بالتجدد الدائم. إنها بذلك كالآلهة واسعة القدرة و تحمل لمسة الشفاء ..

لكنها ليست مجرد فكرة علمية، بل هي استعارة كونية. فهي تقول لنا إن الإنسان لم يُحبس في قوالب نهائية، وإن الحياة ما تزال تملك قدرة على الشفاء، على الترميم، على العودة من هاوية الفناء. وكأنها رسالة خفية من الطبيعة بأن باب الخلود لم يُغلق بعد، وإنما أعطي إلينا في صورة خلية، صغيرة الحجم، عظيمة المعنى.

غير أن الخلايا الجذعية ليست مجرد حلم وردي أو رمز شعري؛ إنها أيضاً مرآة تعكس أكثر الأسئلة الأخلاقية حِدّة. من أين نستخلصها ؟ ومن يملك الحق

في التحكم بها ؟ أهي هبة مقدسة تُستخدم لترميم الأجساد المتهالكة، أم سلاح مزدوج قد ينقلب على الإنسان إن طغى به الطموح ؟ هنا يظهر الصراع الأبدي بين العلم والأخلاق، بين شغف المعرفة ومخاوف الانزلاق نحو هاوية التلاعب بالخلق.

البعض يرى فيها وعداً بالخلاص، دواءً للأمراض التي استعصت على الأطباء، أملاً لقلوب مريضة، أو أدمغة مشلولة، أو أعضاء تآكلها الزمن. وآخرون يرون فيها خطراً على حدود الإنسان، بوابةً قد تقودنا إلى استنساخ الحياة أو إعادة تشكيلها على مقاس الطموح البشري الجموح. وكأننا أمام مرآة مزدوجة : **وجه يبتسم لنا بوعد الشفاء، ووجه آخر بارد يردد السؤال: إلى أين قد نصل ؟**

الفلاسفة قد يقرؤون في الخلايا الجذعية درساً آخر : **أن الكمال لا يتحقق في الجمود، بل في القدرة على التغير.**

إن هذه الخلايا تعلّمنا أن الهوية الحقيقية ليست في ما نحن عليه الآن، بل في ما نستطيع أن نصير إليه. إنها دعوة إلى المرونة الوجودية، إلى التحرر من أوهام الثبات، إلى إدراك أن في داخل كل إنسان خلية ما، تنتظر لحظة التحول.

وربما، لو تأملنا بعمق، لوجدنا أن الخلايا الجذعية ليست محصورة في الجسد وحده؛ بل هي صورة مجازية لحياة الإنسان نفسها. **كل فكرة جديدة هي خلية جذعية للعقل، كل حلم هو خلية جذعية للروح، كل ولادة هي إعادة تشكل لوجود العالم**. إن الطبيعة لا تكف عن تذكيرنا أن سرها الأكبر يكمن في القدرة على البدء من جديد، في إعادة الصياغة، في الانبعاث المستمر.

وهكذا، تقف الخلايا الجذعية في قلب الجدلية الكبرى : بين العلم والأسطورة، بين الأمل والخوف، بين المادة والروح. إنها تهمس لنا في صمتها أن الحياة ليست نهائية، وأن القدرة على الانبعاث تسكن في أعمق أعماقنا، تنتظر فقط الشرارة التي تطلقها. وفي هذا الإدراك، ربما، يكمن أعمق معنى للخلود الذي ظل الإنسان يبحث عنه منذ أن وُجد على هذه الأرض.

ثالثًا ، مجالات استخدام الخلايا الجذعية :

حين ننتقل من النظرية إلى التطبيق، تنكشف أمامنا آفاق

مدهشة للخلايا الجذعية. لقد تحولت من مجرد فضول علمي في مختبرات الأحياء إلى أمل طبي حقيقي يلوح في أفق البشرية. فهذه الخلايا تُستخدم اليوم في **زراعة النخاع العظمي لعلاج أمراض الدم مثل اللوكيميا واللمفوما**، وهو تطبيق قديم نسبياً أثبت فعاليته وأكد أن لهذه البذور الحية قدرة على إعادة بناء جهاز دموي كامل من جديد.

لكن الطموح الإنساني لا يتوقف عند هذا الحد. الباحثون يسعون إلى **تجديد أنسجة القلب بعد الأزمات القلبية**، عبر تحويل الخلايا الجذعية إلى خلايا عضلية قلبية قادرة على الاندماج مع النسيج المريض وإعادته إلى الحياة. وفي ميدان الأعصاب، حيث طالما بدا التلف نهائياً، تُزرع الآمال بأن **تُعيد الخلايا الجذعية إنتاج الخلايا العصبية المفقودة في حالات مثل الشلل أو داء باركنسون**، وكأنها تحاول أن تعيد تشغيل دوائر الكهرباء بعد انقطاعها. أما في مجال الجلد، فقد نجحت التجارب في **إعادة بناء طبقات جديدة لضحايا الحروق**، في مشهد يلامس حدود المعجزة.

وما هو أبعد من العلاج المباشر، أنشأ العلماء مختبرات قادرة على **إنتاج أعضاء مصغرة باستخدام الخلايا الجذعية، مثل دماغ مصغر أو كبد مصغر** .. هذه النماذج لا تُستخدم للعلاج فقط، بل لبحث الأدوية

وتجريبها بأمان، في خطوة تختصر سنوات من المحاولات وتفتح طرقاً أكثر رحمة من تجارب الحيوانات.

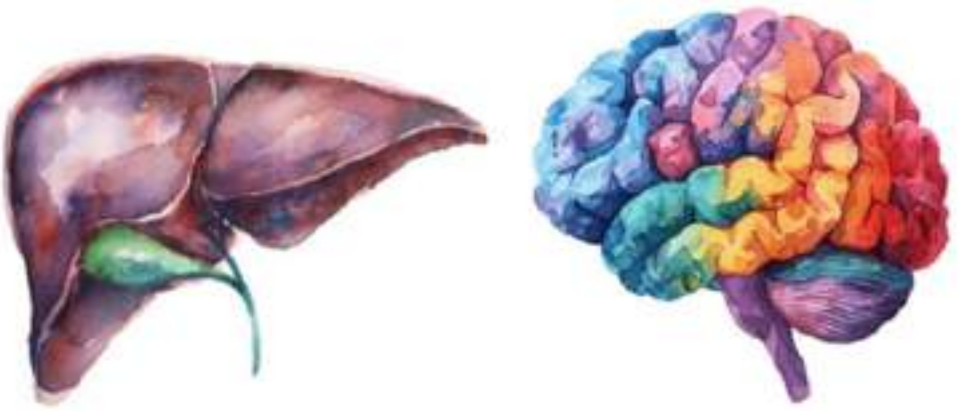

المستقبل الذي يلوح في الأفق أكثر جرأة : الطب التجديدي، حيث يمكن أن **يُصمَّم لكل مريض علاج خاص من خلاياه نفسها.** خلية واحدة مأخوذة من جلده قد تُعاد برمجتها لتصبح خلايا عصبية أو قلبية تناسب حالته بالضبط، فتجنب الجسد خطر رفض الأعضاء المزروعة. إنه أشبه بأن **يصبح الجسد صيدليته الخاصة، مكتفياً بذاته، قادراً على أن يصلح نفسه بنفسه** ..

غير أن هذه الوعود تظل مرتبطة بأسئلة أخلاقية واقتصادية معقدة : هل ستصبح هذه العلاجات في متناول الجميع أم حكراً على الأغنياء ؟ هل سيقف العلم عند حدود الشفاء أم يتجاوزها إلى التلاعب بالطبيعة البشرية نفسها ؟ إنها أسئلة لا تقل عمقاً عن السؤال العلمي، لأنها تتعلق بجوهر معنى أن نكون بشراً.

و هنالك استخدام أخير للخلايا الجذعية بعيداً عن عالم الطب و أمراضه .. استخدام نبيل الغاية .. عندما تنتج من الخلايا الجذعية في المخابر أطنان من الأنسجة العضلية (اللحوم) كحل خلاق لمشكلة المجاعات حول العالم ..

****

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**الخلية الجذعية**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= أكسير الحياة .. ينبوع الشباب .. حجر الفلاسفة .. و غيرها من الخرافات التي تمنح الإنسان الشباب الدائم ، كلها محض بدع فكرية من الخيال العلمي لا أكثر ..

بل أن نقول :

= الخلايا الجذعية أثبتت عكس ذلك .. فهي بقدراتها العجيبة ستسمح لنا خلال العقود القادمة من إعادة صيانة أجسادنا بالكامل بشكل روتيني كي نجدد شبابنا و تتحقق بذلك الأسطورة ..

الخيلة الجذعية هي بالفعل **الخلية الإله** فهي بقدرات خارقة كالآلهة كما وضحنا .. و عندما تشفي العليل من جروحه و كسوره ينطبق عليها قول البارئ :

(فإذا مرضت فهو يشفيني)

وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ

(رهاب الشمس)

= كيف قضيت أمسيتك بالأمس يا صديقي ؟

= أمسية هادئة .. سهرت على شرفتي و استمتعت بباقة من أجمل أغاني مطربتي المفضلة **ميادة الحناوي** التي تلائم أجواء السهر ..

= جميل .. أنا أميل أكثر لأم كلثوم عندما يتأخر الليل .. لكن أغاني الحناوي تطربني بلا شك ..

= و ما أجمل أغنية لها تحبها ؟

= أغنية تقول على ما أذكر (**مهما يحاولوا يطفوا الشمس**) ..

= بالفعل أغنية رائعة .. و لماذا تعجبك أكثر من غيرها..

= لأن فيها لمسة روحانية ..

= روحانية !! لم أفهم .. كيف ؟!

= هذه الأغنية تذكرني بآية قرآنية لا مثيل لها تقول :

(**يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون**)

= صدقت تشابه فريد من نوعه .. لكن من هو هذا المعتوه الذي يحاول أن يطفئ شمس الله بالنفخ عليها ؟

= كثيرون يا صديقي .. من لا تتناسب أهواؤهم مع إرادة الله فيبدؤون بقولبة الحقائق و تشويه البديهيات

ظانين بذلك أنهم يطمسون كلام الله و يطفئون شمسه ..

= و هل هنالك من ينجح في ذلك ؟

= بالطبع .. مكر إبليس كبير .. ينجح في إغواء أتباعه بكلامه المعسول و وعوده السرابية .. لكن الله واضح كالشمس لا يمكن أن تخفيه خلف إصبعك ، **فنور الشمس** قد يختفي في الكسوف عن أعين البشر للحظات ، لكن سرعان ما تعود الأمور إلى سياقها الصحيح و تشرق الأرض بنور ربها ..

= إذن فالله متم نوره مهما يحاولوا يطفوا الشمس ..

ابتسم الصديق ..

= تماماً يا صديقي .. أو كما تقول كوكب الشرق أم كلثوم : (**أنت عمري اللي ابتدى بنورك صباحو**)..

= شمس الله من جديد التي يبدأ معها كل صباح ..

= أجل .. شمس الله التي لن تنطفئ مهما تكالبت عليها

الأفواه و نفخت الأكاذيب المسمومة كي يطمسوها ..

****

لقد امتهن بعض الناس على هذا الكوكب في حياتهم حياكة الأكاذيب ، قولبة الحقائق و تزوير البديهيات .. متوهمين للأسف أنهم يخدعون الله بذلك ، ينفخون على شمسه كي يطفئوها بألاعيبهم تلك ، يحلمون أن يسود الظلام على العالم بعدها ، فهم عشاق الظلام ، كيف لا و هو يستر عيوبهم و احتيالهم ، و يشكل التربة الخصبة التي تنمو فيها نباتاتهم السامة ثم تتسلق على عقول البشر و تنفث فيها الأفكار السوداوية الهدّامة كي تسيطر عليها و تتحكم بها ..

فهل سينجح مسعاهم على أرض الواقع ؟ أم أن الله سيقابل نفخاتهم تلك بأعاصير تجتثهم من جذورهم كما فعل مع من سبقهم في التاريخ و انتهجوا هذا النهج .. هذا ما سنعرفه عزيزي القارئ خلال الصفحات التالية حيث سنقارب بدقة أكثر هذه المحاولات الخطيرة للغاية و الفاشلة باستمرار من الزوايا الثلاثة التالية :

① الحيّ الذي لا يموت ..

② رهاب الشمس (دراكولا) ..

③ قيامة يسوع من الموت ..

فهيا بنا نؤجج شمس الله بتبيين الحقيقة في مجابهة

لنفخات الآخرين التي تحلم بإطفائها ..

أولاً ، الحيّ الذي لا يموت :

ليست هذه العبارة مجرد جملة تُحفظ وتُردَّد، ولا مجرد تركيب لغوي يلتصق بالذاكرة. إنّها أشبه بمفتاح خفيّ يفتح أبواب الوجود، وبوابة واسعة لفهم أعمق لحقيقة الحياة كلها. فهي تختصر في كلمتين سرًّا لا ينفد، وتكشف عن جوهر لا يُدرك إلا بالبصيرة، جوهرٍ يجعل الوجود نفسه ممكنًا. فالله في أسمائه وصفاته يكشف ذاته، كما يكشف النور عن مستور الظلمات. ليست أسماؤه الحسنى أوصافًا جامدة تُقال وتُكتب، بل هي شواهد حيّة، كلّ واحد منها نافذة على أفق، وكلّ أفق يكشف عن حقيقة كبرى، تقودنا إليه وتدلّنا عليه.

حين نقول إنّ الله هو **النور**، فنحن لا نصفه بمجاز لغويّ يزيّن الكلام، بل نعلن عن حقيقة تتجاوز الحدود البشرية. النور حضور، حياة، فعل. والظلام على النقيض موت، غياب، جمود. فلا يمكن أن يُتصوَّر الله في صورة ظلام، لأنّ الظلام عجز ونفي وفراغ، والفراغ لا يخلق ولا يوجّه ولا يمنح المعنى، بل يذيب كلّ المعاني. لذلك يستحيل على العقل السويّ أن يتخيّل خالقه في هيئة مظلمة باردة، أو في صورة عدمية صمّاء. إنّ الله نور لأنّه مصدر كل حياة، وسبب كل حضور، ومعنى كل فعل.

ثم يأتي وصفه **بالحيّ**، وهو من أعظم أسمائه وأقربها إلى القلب. فالحيّ ليس مجرد ضدّ للموت بمعناه البيولوجيّ الضيّق، بل هو نقيض كلّ برودة وجمود وعدمية. الحيّ هو من يمنح الأشياء دفئها ونبضها، من يشعل جذوة الوجود في الكائنات، ويمدّها بحرارة القدرة والفعل. إنّ كل حياة تراها في هذا الكون، من أبسط الكائنات إلى أعظمها، ليست إلا رشفة من فيض حياته، وقطرة من نهره الأزليّ الذي لا ينضب. ولو انطفأت حياته – وحاشاه – لانطفأ معها كلّ أثر، ولذابت الموجودات في صمت العدم.

ولعلّ أجمل تشبيهٍ لله أن يُرى في صورة **الشمس**؛ فهي ذاتية النور، لا تستمدّ ضياءها من غيرها، بل تفور به من داخلها، فتغمر به العوالم.

هكذا الله: مستقلّ في نوره، متوهّج لهّاب بقدرته، لا يحتاج إلى غيره في وجوده ولا في فعله. بل هو أصل الوجود ومنبعه، وهو الذي يمنح الأشياء قيمتها، ويصبغ على العالم معنى البقاء. ولو كان محتاجًا إلى غيره في

قدرته أو نوره، لما استحقّ اسم الإله أصلًا. فالإله هو الذي يُعرَّف بذاته، ويُعرّف غيره به، هو المركز الذي تدور حوله الدوائر، والنواة التي يُبنى عليها كل شيء، والأصل الذي تُقاس به الأشياء، لا العكس.

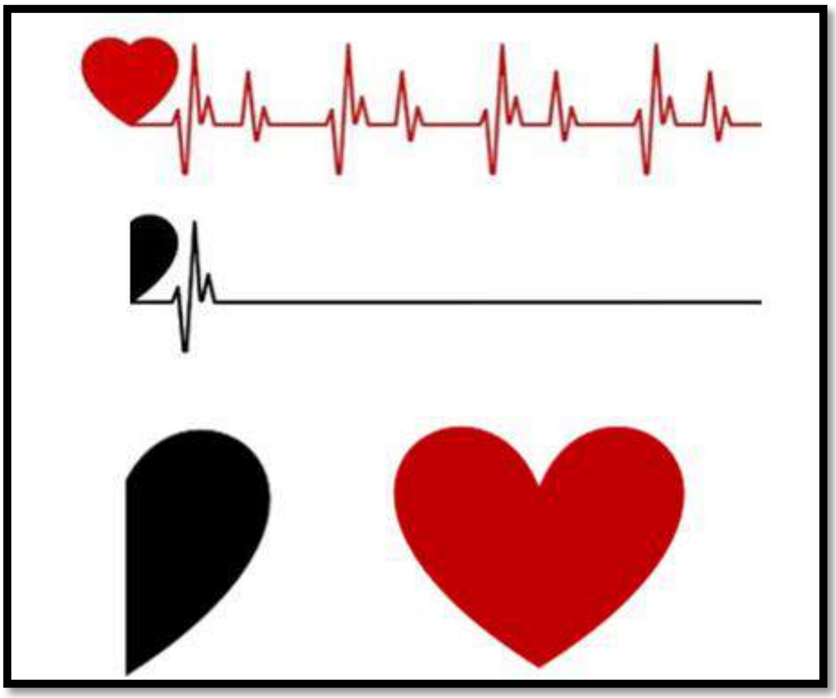

النور الإلهيّ ليس ضوءًا ماديًّا فحسب، بل هو مبدأ يهدي الأرواح قبل العيون، ويضيء القلوب قبل الأبصار. هو الذي يرفع عنّا حجب الشكّ والضياع والعدم، ويمنح للحياة قيمتها وللكائنات معناها. فإذا غاب هذا النور عن القلب، عمّ الموت الروحيّ، وضاعت البوصلة، وغرق الإنسان في عتمة بلا نهاية. ولذلك فالله حين يُفهم على أنّه نور حيّ، يتحرّر من كلّ صورة جامدة على جدار عقيدة متحجّرة، أو فكرة باردة في عقل مظلم، ليغدو حضورًا فاعلًا في كل ذرّة من الوجود، قوّة نابضة تمدّ العالم بطاقة الاستمرار.

إنّ الله نور حيّ، وهذا ليس مجازًا أدبيًّا ولا تشبيهًا عابرًا، بل هو حقيقة وجوديّة وفلسفيّة. هو الكينونة التي لا تعرف السكون، ولا تعرف الانطفاء، ولا تعرف الموت. هو الذي إن غاب لحظة، غاب معه كل شيء، وساد الظلام، وانفرط عقد الوجود. لذلك تبقى العبارة الله حيّ لا يموت أعظم من مجرد كلمات؛ إنّها نشيد الكون كلّه، وإيقاع الحياة المستمرّة، واليقين الذي به تتماسك الأرواح في مواجهة العدم .. الشمس التي يدور في فلكها الوجود و النواة الإيجابية التي تدور في فلكها المعاني ..

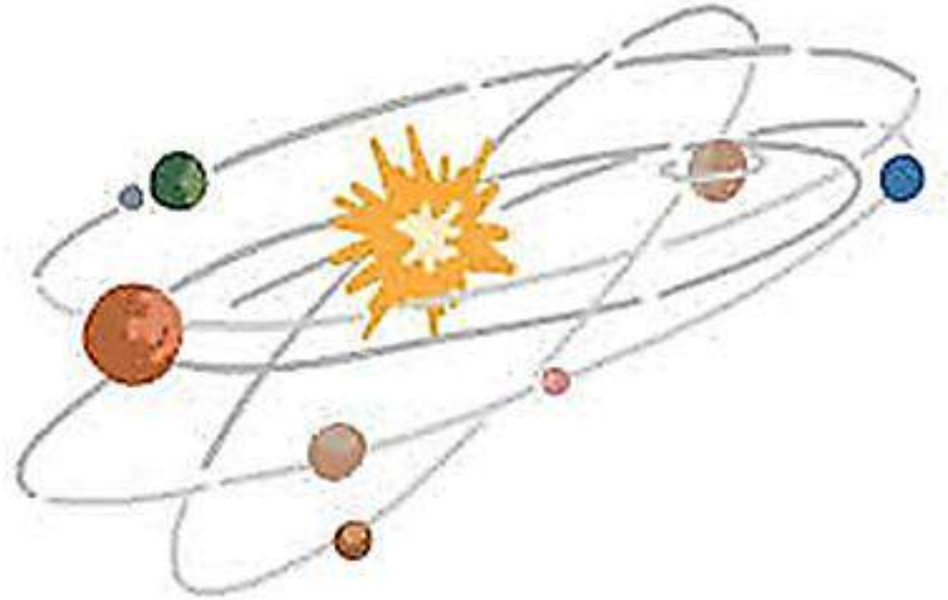

ثانيًا ، رهاب الشمس (دراكولا) :

لا تشبيه أنسب لأولئك الذين يحاولون إطفاء شمس الله من أن نشبههم بتلك الأسطورة القديمة: **دراكولا**. ذاك الكائن المحتال، الذي يتخفّى في الظلام، يترصّد ضحاياه

في زوايا الليل، حيث لا عين ترى ولا ضمير يصحو. لا يملك الشجاعة ليواجه النور، بل يعيش على حواف الظلام، يتغذى من ضعف الآخرين، ويصنع قوته من نزف غيره. وما أدهى المشابهة حين ندرك أنّ كلّ من يعادي نور الله، وكل من يحاول طمس إشراقه و إطفاءه ، لا يختلف عن هذا الكائن الرمزيّ : **كلاهما يقتات من العتمة، ويخاف الفجر، ويُذيب الشمس قواه كما يذاب الملح في البحر.**

أولئك الذين يعادون نور الله لا يواجهون العالم بصفاء، بل ينسجون حول أنفسهم عوالم مظلمة من الأوهام والخداع. يختبئون فيها كما يختبئ دراكولا في توابيت العتمة، فلا حياة حقيقية لهم إلا في غياب الضوء. لكن ما إن تشرق شمس الله على قلوب الناس، حتى تتبدد

قوتهم، وتنكشف حيلهم، وتتحول أنيابهم المسنونة المسمومة إلى مجرد رماد لا يضرّ ولا ينفع. إنهم يقتاتون على دماء الآخرين، لا دمًا حقيقيًا بل دم المعنى، دم الحقّ، دم الطمأنينة والإيمان. يمتصون طاقات البشر حين يملؤون عقولهم بالخوف والشك، وحين يغذّون أرواحهم باليأس والريبة. كأنهم يحاولون أن يشربوا من النبع ذاته، نبع النور الإلهي، لكن قلوبهم لا تحتمل صفاءه، فيحاولون إطفاءه ليتسنى لهم أن يتمرغوا في وحل أوهامهم المظلم بسعادة ..

ولأنّهم يعلمون أنّ النور وحده كفيل بفضح زيفهم، تجدهم في سباق دائم مع الشمس حتى تملكهم الرهاب منها. يسعون ليلًا ونهارًا كي يطفئوا ذلك النور الذي يهدد سلطتهم، ويزعزع أوهامهم، ويهدم عروشهم المبنية على رمال. إنّهم يعرفون في قرارة أنفسهم **أنّ النور لا يترك مجالًا للظلام أن يتسيّد، وأنّ الشمس إن أشرقت أحرقت كلّ عقيدة وُلدت من العتمة**. لذلك فإنّ معركتهم مع الله ليست إلا معركة يائسة ضد الحتمية، معركة ضد **الفجر** الذي لا يؤخره حجاب، وضد **النهار** الذي لا يوقفه جدار.

تأمل **المفارقة** : **هؤلاء حين وُضعوا أمام الاختيار الجوهريّ، بين أنفسهم وبين الله، لم يترددوا في الانحياز إلى ذواتهم**. فضّلوا الوهم على الحقيقة، والظل على النور، والعدم على الوجود. اختاروا أن يعبدوا

صورتهم الهشّة بدل أن ينحنوا أمام مصدر الحياة ذاته.
وهنا تكمن مأساتهم العظمى : أن يظنّوا أنّ الظلام أصلح لهم من النور، وأنّ بقاءهم مرهون بانطفاء الشمس، في حين أن هذه الشمس هي سرّ البقاء الحقيقيّ.

لكن ماذا تكون النتيجة ؟ **بئس المصير! فمن يختار نفسه على الله لا ينال ذاته ولا ينال الله، بل يخسر الاثنين معًا و يشرق الأحد كأن شيئاً لم يكن** .. يذوبون في العدم كما يذوب دراكولا حين تمسّه خيوط الصباح الأولى. إنّهم كالغبار في الهواء : تظنّه كثيفًا في الظلمة، وما إن يسلّط عليه شعاع النهار حتى تراه يتلاشى، بلا وزن، بلا جوهر، بلا أثر.

وهكذا، فإنّ قصّتهم ليست سوى نسخة متكررة من الأسطورة : صراع أبديّ بين النور والظلام، بين الحياة والموت، بين الفجر والليل ، بين الحرب و السلام ..
لكن الفارق الجوهريّ أن هذه الحكاية ليست مجازًا ولا أسطورة، بل هي الحقيقة نفسها. شمس الله لا تغيب، ونوره لا ينطفئ، ومهما نفثت قوى الظلام من سمومها، فإنّ شروق الشمس كفيل بمحوها.

ثالثًا ، **قيامة يسوع من الموت** :

جميعنا يعلم أن يوم الأحد، أو ما يُسمّى في اللغات العالمية يوم الشمس ، **SUNDAY**، هو اليوم المقدّس

عند المسيحيين. غير أنّ السؤال الذي يتجاوز المعرفة السطحية هو : لماذا ؟ ما سرّ قداسة هذا اليوم ؟ ولماذا التصق بالشمس على نحوٍ رمزيّ عجيب ؟

الحكاية تبدأ من قلب الخيانة. حين قبّل **يهوذا** معلمه **يسوع**، بعد أن قرّر في الظلام أن يبيعه مقابل حفنة من فضة، لم يكن يطعن رجلاً فحسب، بل كان يحاول إطفاء نور الله المتجسد في معلمه. كأنّه، مثل كلّ من سبقوه ويلحقونه، لم يحتمل إشعاع النور في قلبه، فاختار أن يتخفّى وراء الظلمة. فكانت النتيجة أن أُسر المسيح في يوم **الجمعة**، ذاك اليوم الذي تحوّل إلى جرح في ذاكرة البشرية، يوم حمل يسوع صليبه ومضى نحو ذروة العذاب، ليُقتل على أيدي من ظنوا أنهم قادرون على وأد النور و الجميع يراقب بصمت لا يخلو من التواطؤ . في تلك اللحظات، كأنّ الكون نفسه شارك الحزن، فانطفأت الشمس لساعات، وغرق العالم في عتمة غريبة. خُيّل للناس أن النور قد غاب إلى الأبد، وأنّ شمس الله انطفأت بلا رجعة.

لكن الحكاية لم تنتهِ عند تلك العتمة. جاء يوم **السبت**، سبت النور، الذي حمل شيئًا من الأمل المرتجف في القلوب. كأنّ خيطًا رفيعًا من الفجر راح يلوح في الأفق، معلنًا أنّ المأساة ليست الفصل الأخير. الناس انتظروا في صمت، بين الخوف والرجاء، كمن يقف على حافة ليل طويل ويتوقّع أن يشرق النهار في أية لحظة. كان

السبت إذن جسرًا بين موتٍ يثقل القلوب وبين حياة وشيكة تُطلّ من وراء الغياب.

ثم حلّ **الأحد**، أحد القيامة العظيم، اليوم الذي تفتّحت فيه البصائر قبل العيون. قام يسوع من الموت، فرفض العدم، وتمرّد على القبر، وأشرق من قلب الظلام نورٌ لم تستطع العتمة أن تحبسه. لم تكن القيامة مجرّد حدث دينيّ في سيرة نبيّ، بل كانت إعلانًا فلسفيًا وروحيًا لانتصار الشمس على الظلام، لانتصار الحيّ على الميت، لانتصار الله على إبليس من جديد. ومنذ تلك اللحظة صار يوم الأحد يومًا مقدّسًا، وصار رمزه **الشمس** : تلك التي لا يستطيع أحد أن يطفئها، وتلك التي تعود لتشرق حتى لو حجبها الغيم مؤقتًا.

وهكذا ارتبط الأحد بالشمس لا لمجرّد توافق لغويّ في كلمة **SUNDAY** ، بل لأنّه يمثّل شمسًا معنوية كبرى:

شمس القيامة التي بدّدت ظلام الموت، وشمس الحياة التي غلبت برودة العدم. كلّ إشراقة شمس منذ ذلك اليوم تحمل في طياتها ذكرى تلك القيامة : أنّه لا موت أبديّ للنور، ولا قبر يستطيع أن يحتجز الحياة إلى الأبد.

غير أنّ هذا **الأحد المشرق العظيم** ظلّ عقدةً نفسية لأولئك الذين يحاولون، جيلاً بعد جيل، أن يطفئوا شمس الله. إنّهم يدركون أنّ كلّ مرّة حاولوا فيها تشويه ملامح المسيح، أو قتل رسالته، أو تحوير صورته، انتهت محاولاتهم بالفشل المثير للشفقة. لأنّ المسيح يقوم من جديد من كل محاولة موت ، لا كجسد وحسب، بل كرمز للنور الذي لا ينطفئ. كلّما حاولوا أن يخمدوا صوته، عاد يتردّد في القلوب. كلّما حاولوا أن يطفئوا

نوره، عاد يشعّ من عمق الظلام. وكلّما أرادوا أن يقتلوا حضوره، قام حيًّا من بين ركامهم ...

******

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**و الله متمٌّ نوره**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= لقد ضقت ذرعاً بهؤلاء .. إنهم لا ينفكون يشوهون الحقائق و يقولبون البراهين و يطمسون البديهيات ، أنا أخشى أن يضيع حق الله بأفعالهم ..

بل أن نقول :

= الله متمٌّ نوره مهما حاولوا أن يطفئوا الشمس .. أن تضع إصبعك أمام عينك كي تطمس شمس الله فلا تراها لا يلغي وجودها .. أنت فقط نعامة تتوهم أن ما لا تراه غير موجود و لا يراه الآخرون .. و الغيمة قد تكسف الشمس للحظات لكنها سرعان ما تزول و يشرق نور الله من جديد ..

كثير من الأشخاص و الجماعات عبارة عن ظواهر صوتية ، مجرد أبواق تبث سمومها ليلاً و نهاراً كي تغسل عقول الناس بمعلومات مغلوطة و غير حقيقية كي يحصلوا أكبر قدر ممكن من المكاسب الفردية و الجماعية .. هؤلاء هم بالضبط من قصدهم الله بقولهم

أنهم يريدون إطفاء نوره بأفواههم .. فهم عاجزون عن أي شيء آخر باستثناء الشعارات و الكلام الأجوف .. و لكن وعد الله ثابت بأنه سيتم نوره مهما نعقت الغربان و ستمضي قافلته مهما عوت الكلاب المسعورة ، و يثبت وجوده و هويته مهما تعامى النعام عنها و وضع رأسه في التراب كمن يخفي الشمس خلف إصبعه .. و أعتقد من وجهة نظر شخصية أن أبلغ حركة قام بها العلماء في التاريخ هي طرد كوكب **بلوتو** خارج رحمة الشمس و مجموعتها فهو احتل المركز التاسع زوراً لكنه خرج منه مجبوراً ..

الذهب يظلّ ذهبًا

(إلدورادو)

= كيف قضيت أمسيتك بالأمس يا صديقي ؟

= احتسيت كأساً من المتة في منزلي و شاهدت فلماً وثائقياً ..

= و عما تدور أحداثه ؟

= عن مدن الذهب الغامضة في أمريكا اللاتينية ..

= تقصد خرافة الإلدورادو ..

ابتسم الصديق ..

= جملتك هذه خاطئة من الجهتين ..

= لم أفهم ؟!

= مدن الذهب ليست خرافة و اسمها ليس الدورادو ..

= صحيح !! هلا وضحت لي أكثر ..

= بالطبع ، يتحدث الفلم عن تلك المدن الذهبية الضائعة ، و التي تعتبر من أكثر الأساطير شهرة حول العالم ، حيث قتل في سبيل استكشافها المئات بل الآلاف .. و في الحقيقة أثبتت الدراسات و المخطوطات الأثرية ، أن وجود مدن كاملة من الذهب غير مرجّح ، لكن الأكيد هو وجود مدينة في أمريكا الجنوبية كان يقطنها الهنود الحمر منذ قرون بعيدة ، و كان يدعى زعيمها (**إلدورادو**) أي (**الشخص المطلي بالذهب**) حيث كان يطلي جسده يومياً بالذهب ليغتسل لاحقاً في مياه بحيرة مقدسة في المدينة ..

و اليوم حرّف اسم إلدورادو إلى مدينة الذهب .. و أظهرت الاكتشافات أن الزعيم كان خلال الاحتفالات الدينية يحيط نفسه بأربعة من كبار الكهنة يزينهم الريش والتيجان الذهبية إلى جانب زينة جسدية، وكان عارياً إلا من غبار الذهب ..

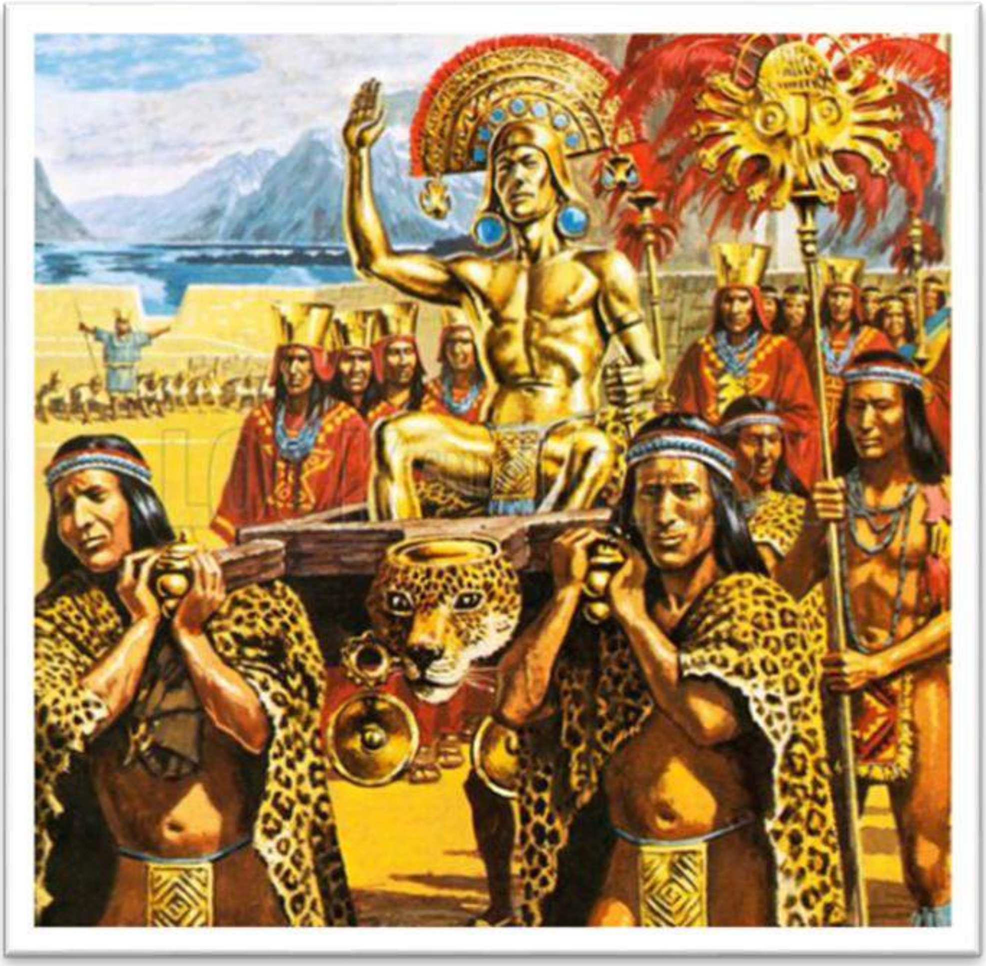

ثم يُقدم قربان من القطع الذهبية والزمرد والقطع النفيسة الأخرى للآلهة من خلال القاءها في البحيرة المقدسة.. و كانت شواطئ البحيرة المستديرة تمتلئ بالجمهور المتفرج الذي كان يحرص على وضع الزينات وعزف الموسيقى .. و هذا يؤكد أن قاع تلك البحيرة يحوي كنزاً حقيقياً من الذهب و المجوهرات لا يقدر بثمن ، مما

يعني بأن مدن الذهب ليست خرافة بل أسطورة لها ما يدعمها على أرض الواقع ..!!

= مثير للاهتمام و الدهشة بالفعل !!

****

الذهب لا يصدأ ..

عبارة معروفة في جميع المجتمعات البشرية تختزل بإيجاز فريد قيمة ذاك المعدن النادر و الثمين ، الذي لطالما أثار اهتمام و فضول البشر عبر صفحات التاريخ و حنايا الجغرافيا .. فقامت من أجله حروب و نزاعات ، و اكتشفت قارات و بلدان .. كما أفنى الآلاف عمرهم في سعي محموم لاكتشاف طريقة تحوّل المعادن الأخرى إليه عبر ما يسمى **حجر الفلاسفة** ..

فلماذا حظي الذهب بكل هذه الأهمية ؟ هل في ذلك

مبالغة بشرية .. أم أن وراء هذا المعدن أكثر مما نعتقد ..

هذا ما سنحاول معرفته خلال الصفحات التالية ، و ذلك عبر مقاربة هذه المعدن الوهّاج من الزوايا الأربعة التالية :

① الذهب في عيون التاريخ ..

② لماذا سحر الذهب عقول الناس عبر التاريخ ؟

③ الذهب كقوة اقتصادية ..

④ الذهب من زاوية فلسفية ..

لذا امسك فأسك عزيزي القارئ و هيا بنا ننقب سوياً عن أسرار الذهب في مناجم التاريخ ..

أولاً ، الذهب في عيون التاريخ :

في فجر البشرية، حين كان الإنسان ما يزال يكتشف نفسه ويجمع شتات وعيه من بين صخور الأرض، لمع أمامه حجر مختلف. لم يكن قاسياً كالصوان، ولا قاتماً كالبازلت، بل كان قطعة صغيرة تلمع تحت الشمس كما لو أنها اقتطعت من شعاعها. ذلك الحجر كان الذهب. لم يحتج الإنسان إلى صهره أو صقله ليعرف قيمته، فقد جاءه جاهزاً كعطية سماوية. منذ اللحظة الأولى أيقن أن بين يديه شيئاً لا يفسد، لا يصدأ، لا يتغير، وكأنه يشارك

الزمن خلوده.

لقد كان الذهب في بداياته مرآةً للدهشة، ومرآةً للإنسان الذي تطلع فيه فرأى انعكاس نفسه، وكأن الكون قال له : (كما أنا خالد، فهكذا سيكون طموحك) .. لم يكن مجرد معدن؛ كان رمزاً مبكراً لفكرة الندرة، للثمين الذي لا يُنال بسهولة. ومنذ تلك اللحظة الأولى، صار الذهب جزءاً من الحكاية الكبرى للبشرية، يرافقها كما يرافق الظل صاحبه، لا يفارقها إلا ليعود في لحظة حاسمة.

حين تأسست الحضارات الأولى، لم يعد الذهب مجرد حجارة لامعة يجمعها الصيادون على ضفاف الأنهار، بل صار لغةً مقدسة، يتكلم بها الملوك والكهنة. في **مصر القديمة**، غدا الذهب تجسيداً للشمس نفسها. أطلقوا عليه **جسد الآلهة** ، ورأوا فيه الدليل الملموس على خلود الفراعنة .. لم يكن من قبيل الصدفة أن أقنعة

الملوك الجنائزية صُنعت من الذهب، فالفرعون الذي يرحل عن الدنيا لا يليق بروحه إلا أن تعانق الأبديّة في لباسٍ خالد لا يصدأ.

وعند **السومريين**، حيث ابتكرت أولى الكتابات والأساطير، أصبح الذهب مادة للمعابد، يزين جدرانها وأصنامها، وكأنه وسيط بين الإنسان والسماء. أما عند **الإغريق**، فقد تجلّى في أسطورة **الصوف الذهبي** ، رمزاً للمستحيل الذي يسعى إليه البطل مهما كان الثمن.

وفي **روما**، صار الذهب وقوداً للإمبراطورية، معياراً للقوة، ودماءً تسري في عروق التجارة التي ربطت الشرق بالغرب بصك النقود الذهبية ..

كل حضارة أعطت الذهب معنى، لكنه ظل في جوهره واحداً : رمز **الخلود، السلطة، والقداسة**. لم يكن الذهب مجرد زينة أو تيجان للملوك و الأمراء ، بل لغة فلسفية كتبت بها الحضارات سطورها الأولى عن معنى القوة والندرة.

مع **القرون الوسطى**، أصبح الذهب محوراً لأحلام الخيميائيين. حاولوا تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب، وكأنهم يريدون استنساخ سر الخلود في مختبراتهم المظلمة عبر **حجر الفلاسفة**. لم ينجحوا، لكنهم أضافوا إلى الذهب بعداً جديداً : صار رمزاً للطموح الإنساني اللامحدود، للسعي المحموم وراء المستحيل.

ثم جاءت **عصور الاكتشافات الكبرى**. في قارة أميركا، كان الذهب لغة الأرواح المقدسة عند شعوب **الإنكا** و **الأزتيك**، حيث يشاع أن مدناً بأكملها بنيت من الذهب ..

لكنه تحوّل بين أيدي الغزاة الإسبان إلى لعنة. سالت الدماء من أجل لمعانه، وابتلعت المحيطات سفناً محملة بسبائكه. ومنذ ذلك الزمن صار الذهب قرين الجشع، يضيء بريقه على جبين الطموح الإنساني، لكنه في الوقت ذاته يكشف وجهه المظلم : حرب، استعمار، عبودية، وتاريخ ملطخ بدماء من حلموا به أو حاولوا حمايته.

وفي **أوروبا**، حيث توسعت المصارف وتأسست الإمبراطوريات التجارية، صار الذهب أساس النقود، معياراً للقيمة، وأداةً لتوحيد التجارة العالمية. لم يعد فقط رمزاً للأسطورة، بل أصبح القاعدة التي تُقاس بها الثروات، والركيزة التي قامت عليها فكرة الاقتصاد الحديث.

اليوم، بعد آلاف السنين، ما زال الذهب **سيد المعادن**، لكنه لم يعد وحده في ساحة القيمة. صار العالم يعج بالأوراق النقدية والعملات الرقمية والاقتصادات الافتراضية، ومع ذلك يظل الذهب الملاذ الأخير حين

تهتز الثقة. في كل أزمة مالية، يهرع البشر إلى الذهب كمن يعود إلى حضن أبيه ، إلى الأمان الذي لا يخون.

في الحاضر، تجاوز الذهب حدود كونه ثروة مادية ليغدو رمزاً نفسياً. هو يقيم في مخيلة الإنسان كصورة عن الكمال، عن الصفاء، عن النقاء الذي لا تشوبه شوائب. في الثقافات الشرقية، ما زال الذهب هدية الزواج، عربوناً للخلود بين قلبين. وفي الغرب، ما زال أساس المجوهرات التي تُمنح تعبيراً عن الحب أو الانتصار. حتى في اللغة، أصبح الذهب استعارة لكل ما هو نفيس : القلب الذهبي، الفرصة الذهبية، القاعدة الذهبية.

رحلة الذهب من صخرة لامعة على ضفاف نهر بدائي، إلى خزائن البنوك المركزية في مدن العصر الحديث، ليست مجرد قصة معدن، بل قصة الإنسان ذاته. فيه يرى الإنسان صورته المثالية : اللمعان وسط العتمة، الصمود وسط الفناء، الندرة وسط الكثرة. إن الذهب ليس ما نرتديه أو نخزنه، بل ما نحمله في وعينا عن معنى القيمة، عن شغفنا الدائم بما لا يفنى.

ثانياً ، لماذا سحر الذهب عقول الناس عبر التاريخ ؟

الذهب ليس مجرد معدنٍ يلمع تحت الضوء، بل هو سرّ قديم يسكن في أعماق النفس الإنسانية. منذ أن رآه الإنسان أول مرة، ارتبك أمام جاذبيته، كما لو أنه صادف **شيئاً خرج من حدود الطبيعة ودخل في دائرة الأسطورة**. لماذا هذا السحر؟ ربما لأن الذهب يجمع بين ما هو مادي وما هو روحي؛ إنه جسد من معدن، لكنه يشعّ كالنور. في داخله ثقل الأرض، وفي مظهره إشراق الشمس. وهكذا وجد الإنسان فيه تجسيداً للمفارقة الكبرى التي يبحث عنها دائماً : **الخلود في قلب الفناء، والجمال في عمق المادة.**

الناس يقعون في غرام الذهب لأنه يوحي لهم أنهم يملكون جزءاً من الأبدية. كل شيء يصدأ أو يبهت أو يتآكل، إلا هو؛ لا يخون الزمن، ولا تنال منه النار أو الماء أو الهواء. وهذا الثبات في عالم متغيّر يجعل **الذهب مرآة لرغبة الإنسان في الأمان، في الثبات وسط العواصف**. هو ليس مجرد ثروة، بل وعدٌ بالصمود أمام انكسارات الحياة.

ثم إن لمعان الذهب ليس عادياً، بل يملك سطوعاً خاصاً يذكرنا بالشمس. الضوء الذي يتسرب منه ليس انعكاساً فحسب، بل إيحاء بالنقاء والصفاء، وكأن فيه وهجاً من

عالم آخر. لذلك ارتبط الذهب عبر العصور بالآلهة والملوك، بالقداسة والسلطة، بالحب والخلود و بالحظ أيضاً .. الإنسان حين يلمسه أو ينظر إليه، يشعر بشيء من الامتلاك لما هو أسمى منه.

والأهم أن الذهب يختصر المعادلة التي تحكم النفس البشرية : **الندرة + الجمال = السحر**. ما هو نادر يثير شغفنا، وما هو جميل يفتننا، وإذا اجتمع الاثنان في جوهر واحد صار الإغواء كاملاً. ولهذا كان الذهب لعنة ونعمة معاً : من أجله قامت حضارات وانهارت أخرى، سالت الدماء وتكوّنت الإمبراطوريات. إنه ليس مجرد معدن، بل اختبار دائم لرغبات الإنسان، ومرآة تكشف حدود جشعه وعمق أحلامه.

إن الناس يحبون الذهب لأنه يذكّرهم بما يتمنونه في أنفسهم : **النقاء، القوة، الخلود، والإشراق**. إنه صورة عن الإنسان كما يريد أن يكون، لا كما هو بالفعل. ولهذا

يبقى الذهب ساحراً، **لأنه معدن لا نملكه حقاً، بل يملكنا هو**، يحرّك فينا أعمق الشهوات وأرقّ الأحلام في آن واحد.

ثالثاً . الذهب كقوة اقتصادية :

رغم كل التحولات التي شهدها العالم، من الأوراق النقدية إلى العملات الرقمية، ما يزال الذهب واقفاً كالصخرة الأولى التي تُقاس عليها قيمة الأشياء. في زمن العولمة، حيث يتبدّل كل شيء بسرعة الضوء، يبقى الذهب أشبه **بالحقيقة الصامتة** في قلب النظام الاقتصادي. إنه ليس مجرد سلعة تباع وتشترى، بل هو معيار للثقة، ملاذ يلجأ إليه الناس والدول حين تهتز الأرض تحت أقدام الأسواق.

حين تنهار العملات الورقية، أو تتضخم حتى تفقد معناها، يظل الذهب محتفظاً بوزنه، ثابتاً وسط فوضى الأرقام. لذلك يُسمّى بالملاذ الآمن. المستثمرون لا يذهبون إليه بحثاً عن ربح سريع، بل عن حماية من زلازل الاقتصاد. إنه بمثابة تأمين ضد الغدر، ضمانة

أن القيمة الحقيقية لا يمكن أن تمحى مهما تبدلت الأوضاع.

كما أن الذهب ليس مجرد مخزون مالي، بل هو ركيزة جيوسياسية. البنوك المركزية حول العالم تحتفظ بأطنانه في خزائنها العميقة، لأنه يشكل عنصر قوة صامتة في ميزان القوى الدولية. امتلاك الذهب ليس مسألة اقتصادية فحسب، بل سياسية أيضاً، لأنه يعني امتلاك قدرة على مواجهة العواصف العالمية دون الانهيار. إن الذهب هنا ليس زينة في معارض المجوهرات، بل دماء سرية تسري في شرايين النظام المالي العالمي.

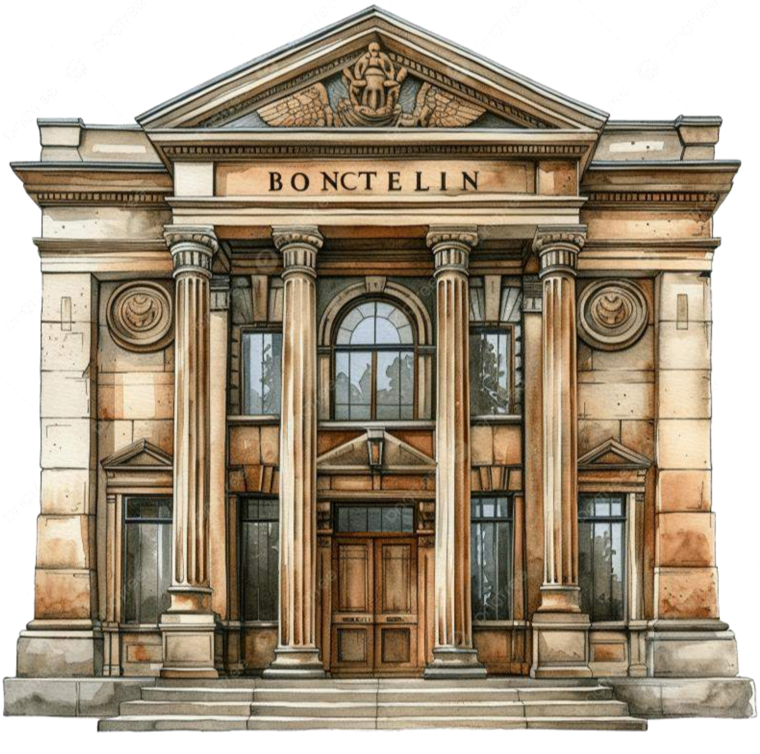

ولأنه معدن محدود لا يمكن إنتاجه بقرار سياسي ولا بطباعة ورق، فإنه يظل دوماً مختلفاً عن أي عملة.
ندرته الطبيعية تجعله عصيّاً على التلاعب، وتلك الندرة

هي ما يرسّخ مكانته كحجر زاوية في بناء الاقتصاد العالمي. الذهب، إذاً، ليس فقط رمزاً للثروة، بل **رمزاً للمصداقية، للعملة التي لا تُزَيَّف.**

اليوم، يملك الذهب قيمة تتجاوز الاقتصاد الرقمي المجرّد. هو ليس مجرد رقم في شاشات البورصة، بل هو معدن ملموس، يمكن لمسه وحمله ورؤيته. في زمن تذوب فيه الأشياء في العالم الافتراضي، يعود الذهب ليمنح الإنسان شعوراً بالواقعية، بالثبات. إنه يجمع بين الاقتصاد والنفس، بين الملموس والرمزي.

في أسواق المال، يُعامل الذهب كسهم خالد. تتبدل أسعار النفط، تتقلب مؤشرات البورصة، لكن الذهب يظل محتفظاً بسطوته، كشيخ حكيم يشهد انهيار أجيال من العملات والأنظمة الاقتصادية ثم يبتسم في صمت. كل أونصة ذهبية تحمل في طياتها قروناً من التاريخ، وهذا

التاريخ نفسه يتحول إلى جزء من قيمتها المعاصرة.

لكن ما يميز الذهب حقاً في الاقتصاد الحديث هو أنه ليس فقط سلعة للتداول، بل مخزن للثقة الجمعية. البشر جميعاً، على اختلاف ثقافاتهم وحضاراتهم، يعترفون بقيمته. هذه **القبول الكوني** هو ما يمنحه مكانة لا تضاهيها أي عملة أخرى. الدولار أو اليورو أو الين قد يفقد هيبته يوماً، أما الذهب فبريقه يظل واحداً في عيون الجميع.

حتى مع بزوغ العملات الرقمية، يظل الذهب هو **الأب الروحي الأكبر** ، كأنه يقول للعالم : (جربوا ما شئتم، لكن حين تنفد الثقة، ستعودون إليّ) .. ولذلك، فإن قيمته اليوم ليست محصورة في سعره بالأسواق، بل في كونه الضمان الأخير للنظام الاقتصادي برمته.

إن الذهب في الاقتصاد المعاصر ليس مجرد رقم على الميزان التجاري، بل هو فكرة أعمق : إنه **رمز لما تبقى من الثبات في عالم يتآكل بسرعة،** وصورة عن رغبة الإنسان الدائمة في أن يجد شيئاً لا يخونه الزمن. وكما كان منذ آلاف السنين، يظل الذهب اليوم قلب المعادلة : معدن يُقاس به الجمال، وتُبنى به الثروات، وتستمد منه الأمم طمأنينتها في زمنٍ بلا يقين .. ثلاثة اشياء لم تفقد بريقها منذ فجر التاريخ حتى اليوم : **الله ، العلم و الذهب** .. و كل ما عدا ذلك صدأ ..

رابعًا ، **الذهب من زاوية فلسفية** :

الذهب ليس مجرد معدن يلمع في الأسواق أو يزين المعابد و الأجساد ، بل هو مادة تحمل في لمعانها سؤالاً فلسفياً منذ أن وطئ الإنسان الأرض : (ما الذي نعتبره ثميناً ؟ ولماذا ؟) كل حضارة، وكل عقل فكر فيه، أدرك أن الذهب ليس ثروة مادية فقط، بل مرآة لعقل الإنسان ونفسه. في لمعانه نجد انعكاس رغبتنا في **الخلود، في النقاء، وفي السيطرة على الزمن**. فهو **معدن لا يصدأ، ولا يتغير، ولا يزول**، وكأن فيه وعداً بأن بعض الأشياء يمكن أن تبقى ثابتة، حتى حين تتقلب الدنيا حولنا.

الفلاسفة عبر العصور رأوا فيه **مثالاً للثابت في قلب المتغير**. كل ما حولنا يزول، كل جمال يبهت، وكل

سلطة تتآكل، إلا الذهب، فيصير رمزاً لما نحلم بأن نكون عليه : **خالدين، ثابتين، أنقياء، مطمئنين وسط اضطراب العالم.** لكن هذا الثبات ليس مجرد صفة مادية، بل درس فلسفي : أن ما يلمع في الخارج، يلمع لأنه يعكس حالة داخلية في الإنسان، حالة البحث عن المعنى وسط الفناء، عن القيمة وسط الزوال.

الذهب إذن ليس مجرد معدن، بل فكرة تتجسد في المادة. هو يحكي للإنسان قصة ذاته : أنه يريد أن يترك أثراً، أن يكون له قيمة لا تزول، وأن يفهم الحياة عبر معيار لا يمكن للزمان أن يغيّره. وفي هذا تكمن فلسفته، أنه معدن يطرح علينا السؤال الأكبر: (**هل القيمة في الشيء نفسه، أم في ما يجعلنا نرغب فيه ؟**)

وما يضيف إلى فلسفته بعداً أعمق هو سرّه في الوعي الجمعي : جميع البشر عبر القرون يعترفون به، كل عقل يحس بقيمته، وكل روح تشعر بجاذبيته. ليس الذهب وحده ما يلمع، بل الرغبة فيه، والتاريخ الذي يحيط به، والقصص التي نسجها الإنسان حوله. إنه بذلك رمز للإنسان نفسه، بكل تناقضاته: شغفه، جشعه، حلمه بالخلود، وسعيه لفهم معنى الجمال والقيمة ..

في النهاية، من الناحية الفلسفية، الذهب هو أكثر من معدن؛ إنه تجربة وجودية، سؤال مستمر، ومرآة للروح

البشرية، تذكرنا بأن ما نعتبره ثميناً يعكس في الواقع ما نبحث عنه في أعماق أنفسنا : **الثبات، التميز ، الجمال، المعنى، وربما لمحة من الخلود وسط انحدار الزمن.**

******

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**الذهب يبقى ذهب**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= قيمة الذهب من ندرته لا أكثر ..

بل أن نقول :

= الذهب يكاد يكون المعدن الوحيد الذي يمتلك خصائص مادية و روحية فريدة في آنٍ معاً .. ندرته ، بريقه ، سحره ، نقاؤه ، صفاءه .. و ثباته في وجه تحديات الزمن دون أن يتآكل أو يصدأ .. لذا اعتبره البشر بإجماع عالمي القيمة الأعلى في السوق التي تضمن اقتصاداً عالمياً عادلاً .. و لعل أجمل ما في

الذهب هو وفاؤه .. فإن غدرت بك الظروف كلها سيبقى إلى جانبك و يحافظ على قيمتك .. لذا في كل الأزمات المالية العالمية من كساد و ركود و غيرها .. من امتلك الذهب لم يتأثر ..

هنالك في أرشيف التاريخ أمثال و اقتباسات كثيرة عن الذهب، لكن من وجهي نظري الشخصية أجد أجمل مقوله تلخص فلسفة الذهب كلها هي :

الذهب يظلّ ذهبًا ..

فهو لا يصدأ و لا يفقد قيمته مهما تقلبت الأحوال و تبدلت الأنفس و الوجوه .. كما أطربنا أمير الطرب **جورج وسوف** بأغنيته الأيقونية عن الذهب ..

CO_2 – O_2

(عندما يطرد الكربون)

= إن هباب عوادم السيارات لا يطاق .. انظر إلى واجهة سيارتي لقد تسخم بالكامل .. و بالكاد أستطيع التقاط أنفاسي ..

= محق .. أشعر بنفسي سأختنق و بحاجة ماسة للأكسجين ، يا ليتنا الآن في أحضان أمنا الطبيعة التي تزودنا بالأوكسجين باستمرار و بدون مقابل ..

= مع أننا لا نستحق ، فنحن كبشر نتطفل على الأكسجين نسرق بركته و نلفظه ثاني أكسيد الكربون الذي نتذمر منه بعد ذلك ..

= صدق من قال أن الأمازون هو رئة الكوكب ..

تخيل لو اختفى من الوجود .. سيختنق الكوكب برمته ..

نحن الآن نعاني من بعض عوادم السيارات فكيف سنواجه المصانع الكبرى و بربرية البشر .. ؟!

= صدقت !!

****

ما بين سموم **CO_2** و هبابه الأسود ، و نقاء الأوكسجين **O_2** و ضرورته الملحة للحياة ينبض قلب مغالطتنا الشيقة و المثيرة التي سنقتحم غمارها مباشرةً و بدون مقدمات مطولة ، حيث سنمرّ فيها بثلاث محطات هامة للغاية :

① أسطورة الأكسجين ..

② البيضة الكونية O_2 ..

③ من يخون الأكسجين يختنق ..

فهيا بنا عزيزي القارئ نتنفس أكسجين الحقيقة و نطرد خارج عقولنا ثاني أوكسيد الأكاذيب ..

أولاً ، أسطورة الأكسجين :

في البدء، لم يكن في الأفق إلا بياضٌ صافٍ يرفّ كالحرير على أطراف الوجود. كان الكون كبيضةٍ **O**، نصفها شمس، ونصفها قمر، ينساب بينهما خيط من نقاء أزليّ. هناك، في تلك اللحظة الأولى، لم يكن سوى الأوكسجين **O_2**، يحيا وحده في عرش المطلق و

يختزل الكون في نفسه ، يتوهّج كابتسامة الوجود الأولى، يهب الحياة حتى قبل أن تولد الكائنات. كان هو النفس والروح والضياء في آنٍ واحد، كأنّه قُدّ من جوهر النقاء نفسه، يلف الكون في حضنه المترامي بلا شريك ولا نقيض.

لكن كل نورٍ يستدعي ظلاله، وكل بياضٍ يولد بجانبه نُقطة سوداء تستيقظ من غفوة الغياب. فجاء **الكربون،** غريبًا متربصًا، كشيطانٍ معتمٍ خرج من قبو الظلام، يحمل في صمته ثِقل العدم. اقتحم المشهد المقدس بجرأة، وألقى على الأوكسجين وشاحًا أسود يشوّه ملامحه ويقيّده بيدين من فحمٍ متجمد.

ومن تلك اللحظة المشؤومة وُلد ثاني أوكسيد الكربون، **CO_2**، مسخًا دخانيًّا يزحف بين الأركان كهبابٍ يسوّد المرايا ويخنق النوافذ، يتسلل إلى كل ثقبٍ كصوتٍ غريبٍ في معبد الصمت. كان ميلاده انقلابًا على النقاء، وكان انتشاره كجنازٍ يغطّي الأرض والسماء بسخامه

الكئيب.

غير أنّ الكون لم يُسلّم نفسه للظلمة كاملة، ففي الأعالي كانت تقف **شجرة السماء** ، حارسة التوازن، أمّ النقاء، و عاشقة الحق ، التي تفكّك المغالطات و تصوبها .. مدت جذورها في أعماق الأرض، وبسطت أغصانها كأذرع الحقيقة نحو الأعالي، والتقطت ذلك الكائن الدخانيّ، **CO_2**، كما يلتقط الحكيم كلمةً زائفة ليعيد صياغتها بالحق. بمهارة الصانع الإلهي، فرّقت بين شظاياه : طردت الكربون ، المخلوق الذي يرى نفسه **سي السيد** ، في حين هو متطفل على الأكسجين و مشوه لنقائه و صورته .. ثم حررت الأوكسجين **O2** من سجنه كشمس و قمر متحدين وأطلقته من جديد إلى الفضاء، صافياً كالروح التي غُسلت بالماء الأول، فعاد النقاء يعمّد الهواء ويبهج قلب الكون.

لكن بعض البشر، الذين لطالما أفسدوا الأناشيد بأصواتهم المشروخة، لم يرضوا أن يبقى التوازن قائمًا.

كانوا عشاق الزور والجشع، يلهثون وراء سلطتهم على الطبيعة كمن يسعى لتزوير المخطوط الأزليّ. خطفوا الأوكسجين من الهواء، وانحازوا إلى الكربون، يصهرونه في مصانعهم، ويحرقونه في مداخنهم، ، و يزفرونه مع أنفاسهم ويحوّلونه إلى CO_2 كأنهم يبعثون الظلام من رماده في دورة لا تنتهي. صار صراعهم مع شجرة السماء صراع هويةٍ و وجود : من يملك حقّ صياغة النفس الذي نتنفسه ؟ أهي الشجرة التي تسقي الكون بالحياة، أم الإنسان الذي يزوّر الأكوان بالهباب ؟

وهكذا، انطلقت الحكاية الأزلية : شجرة السماء تحرس النقاء وتعيده مرارًا، والبشر يسطون عليه وينقضون العهد. كل ورقة منبسطة تلمع تحت شعاع الشمس الذي لا غنى للشجرة عنه في عملية التركيب الضوئي و حياتها بالتالي ، ما هي إلا صرخة ضدّ الاختناق، وكل نفس نقيّ يدخل صدورنا ليس إلا انتصارًا مؤقتًا في معركة كونية. إنّها ملحمة بين نقاء يتجلى في **الأوكسجين**، وظلام يتجسد في **الكربون**، وحارسٍ أبديّ يُدعى **الشجرة** ، وبين **البشر** الذين يظنون أنهم سادة الكون، بينما هم في الحقيقة متطفلون على أنفاسه.

فالوجود، في جوهره، ليس سوى جدلية بين البياض والسواد، بين النقاء والدخان، بين النفس الحرّ والسعال المكبوت. وكأنّ الكون كتب أسطورته الكبرى بلغة

كيميائية، بسيطة في ظاهرها، عميقة في رمزها : O_2 و **C** و CO_2 ... رموز تختصر قدر البشر جميعًا، وتكشف أنّ الحياة ليست إلا صراعًا متكررًا بين من يمنحنا التنفس، ومن يسعى إلى خنقنا بالظلال و الظلام و الهباب ..

ثانيًا ، البيضة الكونية O2 :

الأوكسجين، بهذا الرمز البسيط **O**، ليس مجرد حرفٍ كيميائيّ يُدرَّس في الكتب، بل هو بيضة كونية تُخفي في رحمها أسرار الوجود. دائرة مكتملة، بلا بداية ولا نهاية، تحاكي شكل الكون نفسه حين يُرى من بعيد : كرة هائلة معلّقة في الفراغ، تحتضن في جوفها النور والظلام، الحياة والموت، الذكر والأنثى، وكل الثنائيات التي يقوم عليها النسيج الكوني. إنّ هذه الاستدارة ليست مصادفة، بل هي لغة الوجود في أبسط صورها : كمالٌ دائريّ لا يعرف الانكسار ، و سرمدية تحتضن المتناقضات في وحدة واحدة.

و كما أنّ البيضة في الأساطير القديمة كانت رمز الميلاد الأول، هكذا يصبح الأوكسجين بيضة الحياة التي تنكسر لتولد الأنفاس، ليولد الكون متجدداً في كل شهيق وزفير. هو ليس مجرد غازٍ يتسلل إلى الرئتين، بل هو الصمت الذي يُترجم إلى حياة، والفراغ الذي يُترجم إلى

امتلاء. هو ماءٌ خفيّ يروي خلايانا، وهو الضوء غير المرئي الذي يضيء دمنا من الداخل.

تشبه دائرة الأوكسجين، إذن، حضنًا كونيا يلمّ شمل

الأضداد : ففيه يلتقي الذكر والأنثى كما يلتقي الليل بالنهار، وكما تتعانق الشمس والقمر في رقصة دائمة. هو الجسر بين المتقابلات، والمسرح الذي يسمح للجدلية الأزلية أن تُعرض بلا انقطاع. وكما أنّ الكون لا يمكن أن يُختزل في جانبٍ واحد من ثنائياته، كذلك الأوكسجين لا يُدرك إلا حين نراه سرّ التوازن : هو القابل للاحتراق والمطفئ له، هو الحاضر في الماء كما هو حاضر في النار، يربط الضدين في كيان واحد لا ينفصم.

إنّ سرّ الأوكسجين هو أنّه يتجاوز ذاته ليصبح صورةً عن الكون كله. فالكون يتسع بمجراته وكواكبه ليمنحنا مسرحًا للحياة، ولو غاب لانهار كل شيء في لحظة فراغ. وكذلك الأوكسجين : هو الحيّز الداخلي الذي يمنح أجسادنا معنى الاستمرار، ولو انسحب من حولنا لاختنق الجميع وسقطت الأجساد كدمى خاوية. كلاهما،

الكون والأوكسجين، ليسا كماليات يمكن الاستغناء عنها، بل هما الشرط الأول لكل وجود : إطارٌ يحتضننا ، و نَفَسٌ يحيينا.

وإذا كان الكون دائريًّا في رمزيته ليحتوي كل شيء، فإن الأوكسجين دائرة أخرى أصغر، كأنه الكون في نقطة. إنّه الميكرو- كون الذي يختصر الماكرو- كون في رمزٍ واحد، ويقول لنا إنّ سرّ الحياة قد لا يكون في تعقيد المعادلات، بل في دائرةٍ صافية تُذكّرنا بأن الكمال يكمن في البساطة.

الأوكسجين إذن ليس مجرد غازٍ نتنفسه، بل هو الفلسفة الأولى التي يكتبها الكون على هيئة دائرة : أن كل حياة تبدأ من حضنٍ دائريّ، من بيضة، من رحم، من شرنقة من كونٍ يحتضننا، وأن كل فقدٍ لهذا الحضن هو اختناق، هو عودة إلى العدم.

ثالثاً ، من يخون الأكسجين يختنق :

من يخون الأوكسجين، يخون الحياة نفسها، ويقترف جريمة ضد الجوهر الذي يمنحه القدرة على التنفس. فالأوكسجين ليس سلعةً يمكن الاستهانة بها، ولا مجرد غازٍ عابر في الفضاء، بل هو النفس الأول، الهواء الذي ينساب في الرئتين ليوقظ الخلايا، ويشعل في الدماء شعلة الوجود. كل من يلوث الهواء بأنفاس الزور و

بالسموم، فكأنه يضع حجبا من ظلام على قلبه وروحه، يحجب عن نفسه وهج الحياة، ويحوّل كل شهيق إلى رصاصة تتسلل في جسده.

البشر اليوم، بأسلحتهم الحديثة، يخونون الأوكسجين بلا وعي أو بتعمدٍ خفيّ. عوادم السيارات تتصاعد كأفاعٍ سوداء تلفح المدينة، فتسحب الأكسجين من حضنه الطبيعي، وتملأه بالسموم، كما لو كانوا يختصرون حياتهم في دخانٍ قاتم. مصانعهم التي تهدر الهواء كمياهٍ عكرة، تلوّث كل نفسٍ نقي، وتحوّل الرئتين إلى محارق صغيرة، تكاد تصرخ في صمتها عن خيانة الإنسان لنفسه. الأنفاس المسمومة، تلك التي تتنفسها المدينة المزدحمة، ليست سوى خيوط دخانٍ متشابكة تلتف حول قلوبهم، وكأنهم ينسجون تابوتًا لهم بأيديهم، كل يوم، مع كل زفير ملوث بهباب **CO2**.

إن الخيانة هنا ليست رمزية فقط، بل هي فعل ملموس؛

كل سيارة تسير دون اعتبار، كل مدخنة تُشعل بلا توبة، كل صناعة تهدر الهواء بلا رحمة، هي كأنها حفرة تُحفر في الأرض تحت أقدامهم، قبرٌ لا مهرب منه، ومكانٌ للعودة إلى العدم الذي حاولوا الهرب منه. الأوكسجين، في صمتٍ قديم، يراقب كل فعل، لا ينسى، ولا يرحم من غدر به. ومن يخنقه، يخنق نفسه أولاً، ويخلق لنفسه حدودًا غير مرئية من الدخان والاختناق، حدودًا تحجب عن روحه الضوء والصفاء و النقاء ..

البشر يظنون أنهم يسيطرون على العالم، لكنهم في الحقيقة يحفرون قبرهم بأنفسهم كي يختنقوا في ظلماته .. فكل شهيقٍ ملوث هو حجر آخر يُضاف إلى جدار النهاية، وكل زفير مليء بالعوادم هو غطاء يُثقل الأرض فوق رؤوسهم. الطبيعة لا تغفر لمن يغدر بمن وهبها الحياة و الوجود ؛ والقوانين الأولى للوجود لا

تُبدّل. من يتآمر على الأوكسجين، يختنق في النهاية، ليس فقط جسدًا، بل روحًا وضميرًا، ويصبح صدى اختناقه كأصداء صمتٍ أبدي، يذكّر كل من يجرؤ على الغدر بأن الحياة لا تُمنح للنقض أو العبث.

الأوكسجين، بذلك، ليس فقط الهواء الذي نتنفسه، بل مرآة لصدقنا مع أنفسنا، وقياسًا لحقيقة وجودنا. ومن يغضّ الطرف عنه، أو يلوثه بإقحام الكربون إليه و تحويله إلى هباب ، يكتب بنفسه شهادة وفاته، ويصبح جزءًا من دائرة الخراب التي بدأها بنفسه. إنه صراع بين الوفاء والغدر، بين الحياة والموت، بين النفس التي تختنق وبين الحضن السماوي الذي يبتسم لأولئك الذين يحافظون على نقاءه.

******

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**O2 – CO2**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= أنا أختنق بلا أكسجين ..

بل أن نفعل :

= ألا نشوه الأكسجين و نقاءه و نحوله إلى هباب يسخم كل شيء من حولنا .. ألا نشارك بالجريمة و نلوث الحجر الأبيض المقدس بخطايانا مجدداً ..

ما بين **الهباب** و **الكباب** معركة وجودية طويلة .. بعض البشر المفسدين يدمرون الكوكب بهبابهم و شجرة مقدسة تصوب اختلال الموازين ، فتسحب الهباب و تعيد النقاء إلى الوجود ساجدةً للشمس التي هي سبب وجودها في عملية التركيب الضوئي في رحمها كي يخرج الضوء و النور إلى الكون و مصدر بقائها و استمرارها..

لا أملك خياراً

(حجة الرقاصة .. الأرض مائلة)

في مدينة هادئة لا يميزها شيء سوى أصوات المآذن وصدى خطوات المارة على الأرصفة القديمة، كان هناك شاب في مقتبل العمر، مفعم بالآمال، يقتات من الأمل كما يقتات العصفور من قطرة ماء على ورقة ندية. أحب فتاة رآها في عينيه أجمل نساء الأرض، لم يكن الجمال معياره للحب ، بل ذلك الوهم الذي يزين للمرء أن الحب حصن منيع ضد كل ريح، وأن القلب إذا التصق بقلب آخر يصبحان معاً حجراً كريماً لا تنفصم عراه. تزوجها، وأنجب منها طفلة صغيرة كانت له كجوهرة أودعها الله في صندوقه السري، يلمع بريقها في روحه كلما غشيته الظلمات.

لكن الدنيا لا تترك قلباً صافياً بلا اختبار، ولا تترك حباً بلا ابتلاء. اضطر الشاب، تحت وطأة الظروف القاسية، أن يسافر بعيداً عن وطنه، يحمل جسده في رحلة غربة ليبقي بيته قائماً. كان يعتقد أن التضحية بالراحة والوجود القريب ستثمر أماناً ورغداً لزوجته وطفلته، وأن الغياب في سبيل الرزق سيُفهم على أنه حضور مضاعف بالمسؤولية. لم يكن يعلم أن الغياب الطويل قد يصبح في بعض النفوس ضياعاً، وأن هناك قلوباً تضعف أمام الريح فتتذرع بحجج واهية لتغطي على هشاشتها.

عاد ذات مرة، عودة مفاجئة، أراد أن يجعل منها عيداً صغيراً، مفاجأة سارة يقرنها بابتسامة طفلته ودهشة

زوجته. لكنه حين فتح باب بيته، لم يستقبله دفء الحضن المنتظر، بل واجه عالماً مقلوباً، صدمة أكبر من أن تحتملها الكلمات. رأى زوجته في فراشهما مع ذكر آخر، صديقه المقرب يحتل مكانه، يلوث حرمة البيت والسرير والذاكرة. توقف الزمن في تلك اللحظة، كأن عقارب الساعة سقطت ميتة بعد أن كانت نابضةً بالحياة و الأمل .. لم يعرف ماذا يقول، كان الموقف أكبر من كل لغة، أوسع من كل صياغة، أعمق من كل جرح ، و أسوأ من أي طعنة .. زوجته مع صديقه !!

نظر إليهما، ينقب في عينيهما عن خجل، عن ندم، عن شرارة إنسانية يمكن أن تخفف لهيب الطعنة. لكنه لم يجد سوى تكبر بارد، نظرة متغطرسة تنكر ما جرى كأنه لا يستحق الذهول. ثم قالت زوجته ، ببرود جارح:

= أنا أنثى لديها احتياجات، وأنت لست هنا ..

كأنها لم تدرك أن الخيانة لا تُغلف ببيان حقوق ولا تُبرر بلغة الحاجة. كانت حجتها أشبه برقاصة على مسرح زائف تبرر فعلها بأنّ الأرض تحتها مائلة، وإنها برجليها الملطختين بالوحل تعيد التوازن لها .. يا ليتها صمتت، يا ليتها اختارت الذنب بلا فلسفة، فقد كانت كلماتها الخنجر الحقيقي الذي مزق خاصرته. الخيانة وحدها كانت ستكفي ليبقى الجرح دامياً، لكن أن تُكسى بثوب من الحجج الباطلة، فذلك ما حوّل الألم إلى مأساة مضاعفة.

لم يصرخ، لم يضرب، لم يهدد، لم يطلب تبريراً. بصق على وجه " صديقه القديم " تقدم نحو طفلته، حملها بين ذراعيه كمن يحمل خلاصه الأخير، وغادر المنزل بهدوء يشبه وقار القديسين في لحظة الانكسار. لم يعد هناك بيت ليبقى فيه، ولا امرأة ليستحق البقاء معها. كان الصمت طلاقاً أولاً، والابتعاد طلاقاً ثانياً، ثم جاء الطلاق الرسمي لاحقاً مجرد ختم على ورقة، لتوثيق ما وثقته الصدمة منذ اللحظة الأولى.

مرت الأيام ثقيلة، لكنها لم تحمله إلى الانهيار. كانت الطفلة هي الوتر الأخير الذي ربطه بالحياة. وفي إحدى الأمسيات، جلس مع صديق آخر له على مقهى قديم، يشربان القهوة التي تفوح برائحة الحزن أكثر من رائحة البن .. حاول صديقه أن يواسيه بكلمات شائعة :
(الحياة هكذا يا أخي، النساء كثير، والزمن كفيل أن

يضمد الجراح) .. كلمات لا تصحح الكبائر ولا تجبر القلوب. ابتسم الشاب، ابتسامة لم تكن ساخرة ولا متهكمة، بل ابتسامة رجل جاوز الألم ووقف على ربوة الحكمة.

قال له :

= لا داعٍ لمواساتي يا صديقي .. علاقتي كانت قصة مفجعة مرّت بثلاث مراحل لكنني صبّارٌ بإيماني بالله عليها :

- وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى... كانت بداية الحب، في ضوء عينيها، حين ظننت أن السماء أهدتني نجمة تخفف عني غربة الطريق و وحشته ..
- ثم سَلِّمْ عَلَيْهَا يَا هَوَى... حين سافرت، وتركتها أمانة بانتظار عودتي، فسلمت روحي للغياب على أمل اللقاء.
- وأخيراً، مُبارك أصبحتِ بائعة هوى ... حين اختارت أن تطعن قدسية زواجها بخيانة لا تغتفر.

ثم أخذ نفساً عميقاً، وأكمل:

= المهم أن طفلتي عادت لي، أما هي فلْتتمرغ في وحل الغرائز كما يحلو لها، بعد أن فرطت بمكانتها في قلبي، حيث كنت أراها في غيبتي و سفري حباً صوفياً وفياً. لقد باعت نفسها برخص الحجج الواهية، وأنا اشتريت الحكمة بثمن الألم ..

= كأنك تسقط صديقك القديم من عبء تلك الخيانة ؟

= إنه أقذر من أن أذكره على لساني .. لقد انمحى من حياتي و كأنه لم يكن يوماً ..

وهكذا، انتهت القصة لا بانهيار رجل، بل بولادة بصيرة. فالحجج الواهية لا تنقذ صاحبها، بل تفضحه أكثر مما يفضح الفعل نفسه. والخيانة لا تُبرر بنقص ولا يُداوى جرحها بذرائع. وحدها الحقيقة تبقى : أن الروح حين تسقط في وحل التبريرات، تفقد آخر خيوطها إلى الطهارة.

****

أن ترتكب الكبائر مصيبة .. لكن أن تبرر فعلتك هذه بذرائع واهية هو مصيبة أكبر .. لكن صدقني عزيزي القارئ ، في هذه الحالة الإنسان يعي تماماً خطيئته و يعرف جيداً أن مبرراته سراب مورفيني يسكن به ضميره لا أكثر فهو يعلم أنها باطلة .. و بدلاً من أن يستتر من معاصيه يتبجح بها بمنتهى الصفاقة ..

و في هذه المغالطة سنحاول سوياً مقاربة هذه الفكرة الشائعة في الحياة لنفهم أكثر سيكولوجية التبجح بالخطايا و ماذا يدور في عقل صاحبها و كيف يسكون رد السماء عليه .. و ذلك برحلة شيقة من ثلاث محطات متتابعة :

① حجة الرقاصة .. الأرض مائلة ..

② بل الإنسان على نفسه بصيرة ..

③ سلف و دين ..

فهيا بنا عزيزي القارئ نعرّي بعض النفوس المريضة بالخيانة ، بالخطايا ، بالغدر ، بالنفاق ، بالتمثيل و بالوقاحة من ثوبها الشفاف بالأساس ..

أولاً ، حجة الرقاصة .. الأرض مائلة:

في عالمٍ يئنّ تحت ثقل الخطايا، لا يُخيف العقلاءَ وقوعُ الذنب بقدر ما يُفزعهم ذاك المسعى المحموم لتبريره، ذاك الوجه الثاني المظلم الذي لا يكتفي بأن يلطّخ الروح بالخطيئة، بل يكسوها برداء من الكذب والزيف، حتى تصبح الخطيئة نفسها أكثر قبحًا، كجرحٍ لم يُترك ليلتئم بل صُبّت فيه أملاح التبرير، فيتورّم ويتعفّن.

إنّ الذنب في ذاته، مهما عَظُم، يظلّ فعلًا واحدًا محدودًا في الزمان والمكان، أما حين ينهض الإنسان بعد ارتكابه ليُشيّد حوله قلاعًا من الحجج الواهية والأعذار الملتوية، فإنّه لا يفعل سوى أن يُضاعف حجم خطيئته، ويُدخلها في سجلّ من الانحطاط المستمر. الخطيئة الأولى كحجرٍ أُلقي في بئرٍ عميق، أمّا تبريرها فكموجات دائرية لا تتوقف، تمتدّ وتتمدّد لتلوث الماء

كلّه. هنا يُستبدل الاعتراف بالخجل والتوبة بالتبجّح، ويصبح الذنب بذرةً يافعة تنمو وتتشعّب في تربة الكذب.

وكم يشبه هؤلاء الذين يبرّرون خطاياهم تلك الرقاصة التي أدمنت البغاء ، والتي قالت يومًا ساخرَة في تبرير لفعلتها الشنيعة : (الأرض مائلة) .. **لم ترَ في عوجها هي سببًا للسقوط، بل جعلت من الكون برمته عذرًا لزيف حركتها** .. و هي تصمت ضميرها بالمال الذي ينقطونها به مع كل رقصة جديدة ..

إنها قمة التبجّح : أن يُعلّق الإنسان عارَه على شماعة الوجود، فيحوّل خيانته لضعفه إلى مأساة كونية، وكأنّ السماء والأرض شريكتان في فضيحته. فبدل أن يتجرّع

كأس الاعتراف، يملؤها بالوهم ويسقيها للآخرين لعلّهم يصدّقون.

الاعتراف بالذنب يحمل في طيّاته إمكانية النجاة، إذ يفتح أبواب الندم والرجوع إلى جوهر الإنسانية. أمّا الأعذار الواهية فهي سلاسل تُقيّد الروح وتدفعها إلى غياهب أبعد. من يكذب على نفسه ليبرّر خطيئته لا يسعى فقط إلى خداع الآخرين، بل إلى اغتيال ضميره من الداخل. وهنا تكمن الكارثة : **الخطيئة تُدنّس السلوك، أما تبريرها فيُفسد الروح ذاتها.**

حين يبرّر السارق فعلته بالفقر، والزاني بالحاجة الجنسية ، والخائن بالتوق إلى الحرية، والقاتل بضرورة الدفاع عن كرامته، فإنّهم جميعًا يتشاركون في جريمة ثانية أشدّ فداحة: تحويل البشاعة إلى فضيلة، وتزيين العار بطلاء من الكلمات. عندها يختلّ ميزان الأخلاق، وتغدو الحقيقة مُصادرة، **ويُستبدل بالخطأ تبريرٌ يبرّد الوجدان في اللحظة، لكنه يحرقه على المدى الطويل.**

إنّ الأخطر من ارتكاب المعصية هو صناعة فلسفة لها، إذ يتحوّل الفعل الفردي إلى فكرٍ عام، ويغدو الخطأ نهجًا. التاريخ مليء بمجرمين لم يكتفوا بجرائمهم، بل نظّروا لها، ألبسوها ثوب العقل والمنطق، فأصبحوا شياطين مضاعفة : فاعلين ومبرّرين، سفّاكين ومفلسفين. عندها لا يعود الذنب مجرّد انحراف لحظة،

بل يتحوّل إلى مدرسة من الوهم تُخرّج أجيالًا تلوك نفس الحجج الكاذبة كما فعلت زوجة صديقنا في مقدمة مغالطتنا ..

الروح التي ترتكب الخطيئة وتبرّرها تُشبه مرآةً مكسورة، لا تعكس ملامحها بل تشوّهها. بينما من يعترف بذنبه، ولو كان عظيمًا، يحتفظ في عمق المرآة بقبسٍ من الحقيقة، قبسٍ قد يقوده يومًا إلى النور.

وهكذا، يبقى التبرير قبحًا فوق قبح، وظلمةً فوق ظلمة. فالذنب خطيئة الجسد، أما الأعذار الواهية فخطيئة الروح. الأولى جرحٌ عابر قد يندمل، والثانية صديدٌ متقيّح يتسرّب إلى كلّ خلية من الوجود. وما من مهرب من هذه المتاهة إلا بالصدق العاري، ذاك الذي لا يتزيّن بكلمات، ولا يلوّن قبحه بأصباغ، بل يقف عاريًا في

حضرة الله والضمير، طالبًا الغفران، غير متبجّح بأن الأرض مائلة، بل معترفًا أن الخلل في خطواته وحده

ثانيًا ، **بل الإنسان على نفسه بصيرة** :

الخاطئ، أيًّا كان، قد يُكثر من الأعذار، ويشيّد من الكلمات حصونًا من ورق، يرفع صوته محتجًّا، متبجّحًا، محاولًا أن يُقنع نفسه قبل الآخرين بأنّ ما فعله لم يكن شرًّا محضًا، أو أنّ الظروف ساقته كما يُساق الورق الهشّ في مهبّ الرياح. لكن ما يجهله، أو يتجاهله، أنّ صوته الخارجيّ لا يُخرس الصوت العميق القابع في أعماقه، ذاك الصوت الذي لا يكذب ولا يُجامل، الصوت الذي تحدّث عنه الله في قرآنه :

﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾

إنّ الضمير، وإن تراكم عليه الغبار، يبقى عينًا ساهرة لا تنام، يوقظ صاحبه في لحظة صمتٍ أو في ومضة حلم. قد يضحك الإنسان أمام الناس ويُبرّر، لكنّه حين ينفرد بنفسه، يعلم تمام العلم أنّ ما فعله شائن. قد يُشيّد ألف معذرة، لكنّه في عمق صدره يُدرك أنّها كلها كالأقنعة الرخيصة التي تنكشف عند أوّل لمسة. فهو الشاهد والقاضي في آن واحد، يُدين نفسه بغير محكمة،

ويوقّع على اعترافه بمدادٍ خفيّ لا يراه إلا هو وربّه.

وما أصدق هذا الإدراك الباطنيّ في دوامة الكذب تلك ، إذ إنّه لا ينفكّ يلاحق المذنب أينما ذهب : في نبرة صوته، في ارتجافة يده، في قلق نومه، في رعشة نظراته. قد يظنّ أنّه قد خدع العالم بتبريراته، لكنّه لا يستطيع أن يخدع تلك البصيرة الراسخة في أعماقه. فالمذنب، على الرغم من كلّ حججه، يبقى أكثر الناس إدراكًا لثقل خطيئته، وأكثرهم وجعًا منها، ولو لم يُظهر ذلك للعيان.

إنّ التبرير الخارجيّ مجرّد قناعٍ للتعامل مع الآخرين، أما في باطنه فيدور حوار صامت لا ينقطع : ضمير يذكّره، وروح تعاتبه، وذاكرة تنبش صور الفعل في لحظة وقوعه، كأنّها وشمٌ لا يُمحى. ولهذا تراه يتشبّث بمعاذيره بتوتّر أشبه بتشبّث الغريق بخشبةٍ واهية، لا لأنّه يصدّقها، بل لأنّه لا يملك ما يُسكت به صرخات أعماقه ، و في هذه الدوامة يتدور روحه دور في حلقة مفرغة من العار لا تنتهي ..

فالإنسان، في النهاية، لا يُمكن أن يهرب من مرآته الداخليّة. قد يُضلّل الناس بألف حكاية، وقد يخدع القوانين بألف ثغرة، لكنّه لا يقدر أن يُسكت العين التي بداخله، تلك التي ترى بصفاء، وتحكم بعدل، ولا تعرف الرشوة ولا المساومة. هذه البصيرة هي أثقل من أيّ حكم بشريّ، وأصدق من أيّ شهادة خارجيّة، وهي التي تُبقي المذنب حيًّا في عذابٍ سرّيّ لا يُخفّفه إلا اعترافٌ صادق أو توبة نصوح.

فالخطيئة تُرتكب في الخارج، ولكنّ إدراكها يولد في الداخل. وبين الداخل والخارج مسافة قد يقطعها الإنسان بآلاف الأعذار، لكنّه في النهاية سيجد نفسه عائدًا إلى تلك الكلمة الإلهيّة الخالدة : ﴿ **بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره** ﴾، إذ لا نجاة من هذه الحقيقة، ولا مهرب من هذا الشاهد الذي يسكن في القلب.

ثالثًا ، سلف و دين :

الإنسان، في ضعفه وحيلته، قد يتوهّم أنّ تبريراته حول خطاياه تُقنع العالم، أو تُسكِت صوت الضمير، أو تُضلّل عدالة السماء. لكنه ينسى أنّ الله لا يُخدع بالكلمات، ولا تُغشي عينه حججٌ ملتوية ولا معاذير بالية. فالكلمة التي تُطلقها الشفاه قد تخدع السامعين على الأرض، لكنّها عند السماء غبار يتلاشى، إذ إنّ الله لا ينظر إلى زينة

القول، بل إلى حقيقة الفعل وصدق النيّة.

إنّ الخطيئة ليست لحظةً عابرة تمضي مع اعتذار أجوف، بل هي دينٌ في دفتر الوجود، والدين لا يُمحى إلا بوفاء صادق أو توبة خالصة. وإنّ فلسفة الله في الكون أعدل من أن تترك الأفعال بلا جزاء : كما تُسلف السماء ستردّ لك الدين .. **سلف و دين** و لا شيء آخر .. إن أحسنت، وجدت الخير في انتظارك كظلّك الذي لا يفارقك، وإن أسأت، سارت خلفك خطيئتك كقنّاص صبور، يتوارى حينًا، لكنه لا يختفي.

الناس يسمّونها اليوم كارما ، لكنّها في جوهرها سنّة الله الماضية في الخلق؛ سنّةٌ قد تغفو لكنها لا تموت، تُمهل لكنها لا تُهمل. هي ميزان الوجود الذي يُعيد لكلّ إنسان ما أودع: خير بخير، وشرّ بشر، ووفاء بوفاء، وخيانة ببئس المصير. قد تظنّ أنّك أفلتّ بذكائك من العقاب، لكنّك لم تفلت إلا من عين البشر، أما **عين السماء** فممتدّة لا تنام، وحسابها لا يُشطب بتبرير ولا يُنسى بتقادم.

فالله لم يخلق الكون عبثًا، بل جعله كتابًا مفتوحًا، تُسجَّل فيه الأعمال كما هي، عاريةً من زخارف القول. وكلّ ما نزرعه يعود إلينا، ربما بعد حين، في صورة لم نتوقّعها. فمن زرع الرحمة حصد السلام، ومن زرع الغدر حصد الوحدة، ومن زرع الظلم حصد الانكسار. فالمعادلة الإلهية ثابتة لا تتزعزع : **لا يتغيّر ربحك أو خسارتك بما ترويه من أعذار، بل بما صنعت يداك.**

ويا لمرارة لحظة الانكشاف حين يسقط آخر عذر، وتجد نفسك وجهاً لوجه أمام عدالة لا تُشترى ولا تُخدع، هناك حيث تُصبح تبريراتك التي دافعت بها عن خطيئتك، كالأدلة الإضافية ضدّك. فما كنتَ تظنّه خلاصًا يصبح لعنة، وما حسبتَه مهربًا يتحوّل إلى فخّ. عندها فقط يُدرك الإنسان أنّه ما من سلاح أنكى من الحقيقة، وما من نجاة إلا في صدقٍ لا يساوم.

******

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**حجة الرقاصة**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= أنا فعلت ما فعلت لأنني مضطر ، لم يكن لدي أي خيار .. لقد قست علي الظروف و الحياة و أجبرتني على ما فعلته ..

بل أن نقول :

= إذا قررت مع سبق الإصرار أن ترتكب الخطيئة فعلى الأقل استتر عليها و لا تتبجح بها و تبررها بحجج أقبح منها .. فأنت على نفسك بصيرة مهما ألقيت من أعذار .. و تذكر أن فلسفة السماء هي (سلف و دين) ، فكما تسلّف السماء من أفعال ستردّ الدين لك من نفس أفعالك و كارما الله لا تنسى ..

من أجمل ما قيل في الشعر :

قُبحُ الذنوب إذا اعتذرتَ بباطلٍ

كالقبح في وجهٍ يزيّن بالوحل

أي أنك إذا غيرت صورتك جذرياً في عيني بغدرك فلا تشوهها أكثر بتبريرك الوقح ..

إيفيرست

(صراع العروش)

= لا أصدق أننا فعلناها .. حلم الطفولة و الشباب يتحقق يا صديقي .. أمتار قليلة و نبلغ قمة إيفيرست المكللة بالثلج الأبيض النقي ..

= تقصد استراحة حواء كما يحلو لك أن تسميها ..

ضحك الشاب ببراءة ..

= تماماً ، كما يوحي اسمها باللغة الإنجليزية .. أشكرك يا صديقي على مشاركتي هذه الرحلة ، كنت عوناً كبيراً و صديقاً في وحشة الطريق الصعب .. سنصل معاً إلى قمة الحياة و نلامس نجوم السماء ..

كان الصديق يدير ظهره لصديقه و هو يتكلم بحماسة و شغف ، و لم يكن يعلم أن خلف ظهره تدور قصة أخرى ما كان له في أسوأ كوابيسه أن يتخيلها .. قصة شخص وضيع لا تعنيه تلك الكلمات بشيء فالكون كله يتمحور حول شخصه و فقط .. و في غفلة من عين الزمن أمسك بالشاب و دفعه من قمة إيفيرست بقوة فهوى كنجمٍ

نحو الأرض بقوة رهيبة و هو لا يستوعب ما الذي حدث للتو .. منذ لحظات كان على بعد أمتار من بلوغ هدفه مع صديقٍ مفترض حسبه عوناً و مؤنساً و الآن هو يهوي إلى الموت بيد ذلك الشخص .. في حين ابتسم ذاك الشخص من علوّ بوضاعة و قال بسخرية :

= القمم لا تليق إلا بأمثالي .. الآن سيسجل التاريخ أنني نجحت و أنت فشلت لأنك متسلق سيء .. و فوق ذلك كله فثروتك كلها ستصبح لي فأنت مقطوع من شجرة و أملاكك وهبتها لي مسبقاً بمنتهى الغباء .. إلى الجحيم أيها الغبي أنت و أحلامك الطفولية ، أما استراحة حواء كما تسميها فأنا الوحيد الذي سيستريح فيها الآن ..

و بذلك أثبت ذلك الوضيع أنه قبل أن يكون متسلق جبال هو متسلق أشخاص يبني مجده على أكتافهم ثم يغدر بهم

****

القمة...

ذلك الأفق المعلّق بين الأرض والسماء، حيث تسبق الروحُ الجسد في الطيران، ويتهيأ الحلم كطيفٍ يلمع في مرايا الممكن، يراود الإنسان عن نفسه ليجعل منه عاشقًا للسعي. هناك، حيث يتوهم أنه إذا بلغ المرتقى سيرى الكون بوضوحٍ أصفى، وبنورٍ أبهر. غير أنّ الخطى ما إن تستقر على تلك الذروة حتى ينقشع الوهم

و تتجلى المغالطة، فيكتشف الساعي أنّ الوصول لم يكن نهاية الرحلة، بل بداية امتحانٍ آخر أشد خطراً. إذ تنقلب الحكاية إلى مسرح العروش، وصراع البقاء فوق حافة الرياح، ليدرك أنّ الصعود المرهق لم يكن سوى المدخل الأسهل، وأن ما حسبه قمّة الانتصار لم يكن إلا بوابةً لامتحانٍ جديد : إما أن يحيا فيه متيقظًا، أو يهوى منه سقوطًا لا قرار له ... و في مغامرة صعودنا الشيقة و المثيرة هذه نحو قمة المغالطة سنمر بثلاث محطات على طريقنا :

① حلم القمة ..

② صراع العروش ..

③ أشهر قمم الدنيا ..

لذا اربط نفسك بالحبال جيداً عزيزي القارئ و هيا بنا تنسلق ببطء لكن بثبات نحو قمة الحقيقة المرّة لا أخفي عليك ..

أولاً ، **حلم القمة** :

تخيل يا صديقي أن الحياة ليست إلا جبلاً شامخاً، مكللاً بالغيم والثلج، شاهقاً حتى تكاد قمته تلامس النجوم. وكل إنسان يولد عند سفح هذا الجبل، عارياً من التجارب، مجهزاً فقط بروحه القلقة التي تدفعه إلى الصعود. منذ اللحظة الأولى، يبدأ السؤال الأزلي : إلى أين ؟ ولماذا ؟ والإجابة الوحيدة التي تمنحه السماء هي : **إلى القمة**. هناك، حيث يتجسد الحلم في صورة ضوء يلمع كنبراس بعيد، يستدعيه ويقول له : **ارتقِ لتعرف من أنت**.

رحلة الصعود ليست طريقاً ممهداً ولا سلماً مستقيماً، بل دروب متعرجة، أودية من الظلال، وصخور تسد الممرات. قد يتعثر المسافر وتُدمي قدماه، وقد يخذله جسده في منتصف الطريق، لكن شيئاً في داخله يبقى صلباً، شيئاً أعظم من العظم واللحم، شيئاً لا ينكسر : **إرادة الوصول و فضول المجهول** . إن الأمل الذي ينتظره فوق هو الحق المطلق و المعرفة الثرية ، الواجد الموجب الوجود ، كالشمس المخبأة خلف الغيوم، يذيب أي جليد يتراكم في صدره، ويجعل كل جرح مجرد ندبة صغيرة في ذاكرة المغامرة.

على الطريق، يلتقي المسافر بأرواح أخرى : بعضهم يمد له يداً، يشد على ساعده ويمنحه ماءً حين يجف

حلقه. وبعضهم قد يثقل كاهله بالحجارة، يحاول إرجاعه إلى السفح حيث الراحة والركون. لكنه سرعان ما يتعلم أن الصعود رحلة ذاتية قبل أن تكون جماعية. قد يسير بين الحشود، وقد يجد نفسه وحيداً يواجه الريح والصمت، لكن في النهاية، كل خطوة يخطوها تحمل بصمته وحده، وتشهد أنه اختار أن يحيا، لا أن يرضى بالقعود.

الصعود مغامرة ممتعة، وإن كساها العناء. لأن المشقة ليست عدوة الإنسان، بل معلمه الأول. كل عقبة في الطريق ليست إلا امتحاناً لصدقه مع حلمه : هل يستحق أن يبلغ القمة ؟ كل سقوط هو درس في النهوض، وكل دمعة على صخرة طريق هي ماء يروي بذرة الصبر في داخله. وهكذا، تتحول الأشواك إلى حروف في كتاب الرحلة، والندوب إلى أوسمة خفية لا يراها إلا هو.

وحين يقترب من القمة، يكتشف المسافر أن الجبل ليس مجرد مكان، بل مرآة لذاته. لقد كان الصعود في الحقيقة

رحلة إلى الداخل، إلى أعماق الروح. كل ارتفاع نحو الأعلى هو أيضاً غوص نحو الداخل، نحو جوهره الإنساني. في النهاية، لا تلمع القمة في الخارج إلا لأنها تعكس نوراً داخلياً أضاء في قلبه.

وعندما يقف أخيراً هناك، حيث الهواء أصفى، والسماء أقرب، والعالم تحت قدميه كخريطة مطوية، يبتسم. ليس لأن الطريق انتهى، بل لأنه فهم : القمة ليست نهاية، بل بداية وعي جديد. إنها لحظة يرى فيها أن كل ما عاناه لم يكن عقبة في طريقه، بل الطريق نفسه. وأن وجوده كله لم يكن سوى هذه الرحلة، هذا الصعود الذي منح لحياته معنى.

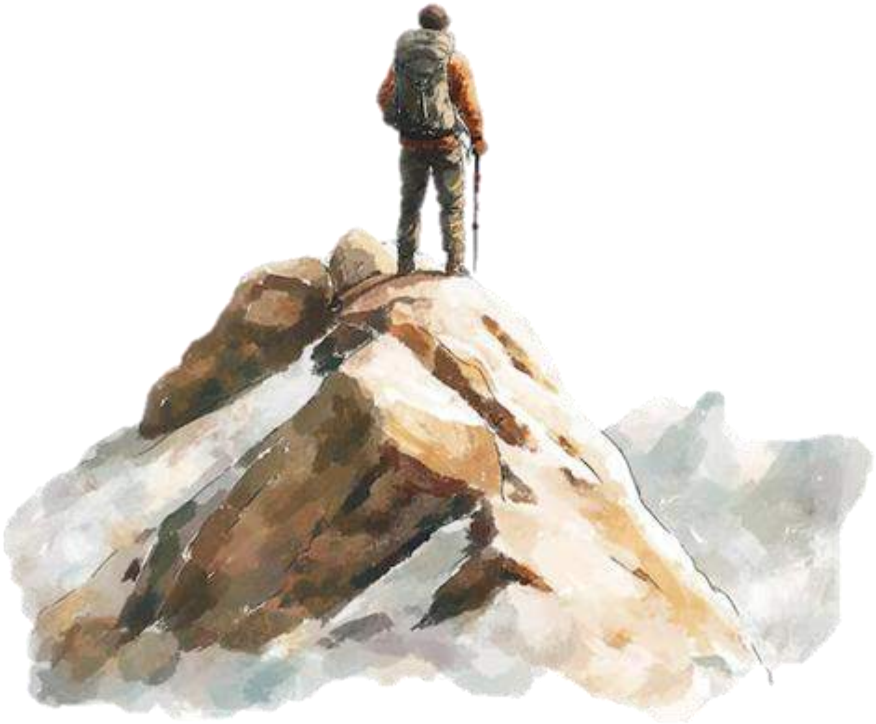

فالقمة ليست حجراً يلمع فوق جبل، بل هي الحلم الذي حمله معه منذ السفح، واليقين الذي نما في صدره مع

كل خطوة. إنها النقطة التي يلتقي عندها العرق بالدهشة، والألم بالسمو، والحياة بمعناها الأعمق : **أن نرتقي، ونسعى، ونضيء بأملنا عتمات الطريق.**

ثانياً ، صراع العروش :

حين يبلغ الإنسان القمة، يظن لوهلة أنّ الحكاية انتهت، وأنَّ الصراع الذي خاضه طوال عمره لم يكن إلا مقدّمة للانتصار الأخير. يظن أنّ العرق والدموع، الانكسارات والقيام المتكرر، كانت هي الفاتورة كاملةً للوصول. لكنّ القمة يا صديقي ليست محطة راحة ولا أرض موعودة، بل هي باب خفي يفضي إلى ساحة أخرى، ساحة أشد ضراوة، حيث تبدأ لعبة جديدة اسمها : **صراع العروش** ..

هناك، على العلو، يكتشف الإنسان أنّ **الصعود لم يكن إلا الجزء الأسهل من الرحلة**. فالجبل، بكل مشقاته، لم يكن سوى مدرسة للصبر والتحمل، لكنّ القمة مدرسة للوعي والنجاة وسط أنياب الآخرين. كل خطوة إلى الأعلى كانت مواجهة مع الطبيعة، مع الصخور والثلج والبرد، أما هنا، فوق، فالمواجهة مع النفوس البشرية، مع العيون التي لا ترى فيك إلّا خصماً، ومع القلوب التي يغمرها الحسد كلما رأتك واقفاً أعلى منهم.

فما إن تطأ قدماه تلك الأرض العالية، حتى تفتح عليه

أبواب لم يعرفها من قبل : **الغيرة** التي تحاصره في كل نظرة، **الحقد** الذي يختبئ خلف ابتسامة زائفة، **التهديد** الذي يلوح من كل جهة كريح باردة تريد إسقاطه. هناك يكتشف أن الطعنات لا تأتي من الصخور، بل من البشر. وأنّ الانهيار لا يحتاج إلى عاصفة، بل إلى دفعة صغيرة من يد غادرة، تكفي لتدحرجه نحو السفح من جديد.

والأدهى من ذلك أنّ **وعيه يتضخم**. رؤية العالم من فوق تمنحه بصيرة لم يعهدها، بصيرة تكشف زيف العلاقات ووجه السلطة الحقيقي. من كان صديقاً في السفح قد يصير خصماً في القمة، ومن كان يعينه في الطريق قد **يحسده** حين يتأخر عنه بضع درجات. هنا يتراءى له أن القمة لم تكن هدفاً، بل فخاً متنكرًا في ثوب المجد.

أن تكون على القمة يعني أن بعض العيون شاخصة إليك. ليس إعجاباً، بل ترقباً لسقوطك. فالعرش لا يتسع

للجميع في عيونهم الضيقة ، ومن جلس عليه صار هدفاً لكل سهم. وهنا تبدأ الحرب الصامتة، حرب بقاء لا تنتهي : كيف يثبت ؟ كيف يحافظ على موطئ قدم وسط زلازل الأطماع ؟ كيف ينام وعقله يترقب خيانة محتملة من أقرب الناس إليه ؟

التهاون في هذه الأرض المحترقة ليس خياراً. كل غفلة قد تكون الثغرة التي يتسلل منها خصم، وكل رحمة قد تُستغل كسيف يُشهر في وجهه أو يطعن خاصرته. إن الثبات على القمة أشبه بالوقوف على قمة هرم من الزجاج، خطوة واحدة خاطئة كفيلة بتهشيم كل ما بناه عبر سنوات.

وهنا، يدرك الإنسان أن **أصعب اختبار ليس بلوغ القمة، بل الصمود عليها.** فالصعود يحتاج إلى قوة العزيمة، لكن البقاء يتطلب حكمة أعمق، ذكاءً لا ينفصل عن الحذر، ووعياً لا ينام. القمة ليست نهاية الصراع، بل وجهه الآخر : صراع داخلي مع ذاته كي لا ينهار من ثقل المسؤولية، وصراع خارجي مع الآخرين كي لا يقتلعوه من موضعه.

وعندها، يتضح أن **الرحلة كلها لم تكن بحثاً عن قمة الجبل، بل عن قمة النفس** : هل يستطيع أن يكون ملكاً دون أن يصير طاغية كغيره ؟ هل يحافظ على إنسانيته وسط الحروب التي تحاك حوله ؟ أم أنّه سيتحوّل شيئاً فشيئاً إلى نسخة من خصومه، متلبساً بدور الصياد بعدما كان مجرد متسلق ؟

إنها المفارقة الكبرى : القمة التي حلم بها منذ الطفولة تتحول إلى ساحة اختبار جديدة، أشد قسوة مما توقع. ومن يثبت فوقها لا يفوز بالعرش فقط، بل الأهم أنه يظفر بمعرفة عميقة : أن الارتفاع لا قيمة له إذا لم يكن محروساً باليقظة و الحكمة ، وأن السقوط من الأعلى لا يرحم، إذ لا يتركك في منتصف الطريق بل يعيدك مهشماً إلى نقطة البدء، كي تبدأ من جديد كما حدث مع صديقنا الشاب في مطلع مغالطتنا .

ثالثاً ، **أشهر قمم الدنيا** :

على امتداد الأرض تنتصب قمم شاهقة، كل منها يحمل سراً خاصاً ورسالة للبشرية. هناك في قلب **الهملايا**، تقف أعلى قمة على وجه الأرض ، **إيفيرست** ، تتربع على السحاب كوجه يبتهل إلى السماء، و تُذكّر الإنسان أن الطموح قد يصل إلى حدود الخطر، وأن من يغامر بالصعود يبرم عهداً مع الفناء كي يمنح للحلم معنى.

القمم العليا مليئة بالصمت والثلوج والبرد القارس، ومواجهة هذه القوة الطبيعية ليست مجرد اختبار للجسد بل رحلة لاكتشاف حدود الروح والعزيمة. الطموح هنا يتجسد في كل خطوة، ويصبح الصعود حكاية ترويها الرياح لكل من ينظر إليها من بعيد.

وفي الجنوب، فوق **سهول أفريقيا الذهبية**، ينهض جبل **كليمنجارو** في تنزانيا.. جبل يتيم مغطى بالثلوج، كقصيدة بيضاء وسط صحراء النار. صعوده تجربة فريدة، حيث تلتقي الحرارة الحارقة مع البرودة البيضاء، ويكتشف المتسلق أن التناقض هو سر الجمال، وأن الوصول إلى القمة ليس انتصاراً على الجبل وحده بل انتصار على النفس. كل خطوة على سفوحه تعطي درساً في الصبر والمثابرة، والقمم هنا أشبه بالمحراب الذي يلتقي فيه الإنسان بذاته العميقة.

بعيداً في أقاصي الشمال، في **ألاسكا الباردة**، ينتصب جبل جليدي ضخم هو **جبل دينالي** ، عزلته المهيبة تجعل من الصعود إليه مواجهة مع الفراغ والصمت أكثر من مواجهة مع الصخور. هنا يختبر الإنسان حدود قدراته البدنية والروحية، ويشعر بعظمة الكون في أبهى تجلياتها. الرياح القاسية والصمت العميق يجعلان من كل خطوة اختباراً لصبره، وكل نجاح في التقدم هو إشعاع داخلي يذيب خوفه ويقوي إرادته.

وإلى الشرق، يبرز جبل متوحش **جبل K2**، ثاني أعلى قمة في العالم بين **الصين و باكستان** ، لكنه الأشد قسوة وفتكاً. صعوده مقامرة حقيقية على حافة الهلاك، حيث الرياح تصرخ والانهيارات تنتظر. من يجرؤ عليه يكتشف أن المجد هنا يختلط بالجنون، وأن بعض القمم

لا تُعانق إلا بالدم، والسماء لا تُلمس إلا بعد تحدٍ يعجز فيه العقل عن التنبؤ بالنتيجة. هذه القمة تمثل امتحاناً لشجاعة المتسلق وصدق طموحه.

وفي **اليابان**، يرتفع جبل مخروط بديع ، **فوجي** ، مكسو بالثلج كلوحة رسمها الإله بعناية فائقة. صعوده ليس مجرد تحدٍ جسدي، بل رحلة روحية، يلتقي فيها الإنسان بالصفاء والسكينة. الشعراء والفنانون يجدون فيه ملاذاً لإلهامهم، والمتسلقون يجدون فيه فرصة لتأمل الذات والتقرب من جمال الكون. القمة هنا تمثل انسجاماً بين الطبيعة والروح البشرية، ومثالاً على أن الصعود قد يكون أيضاً وسيلة للتطهير الداخلي.

أما في **الأنديز**، في قلب أمريكا الجنوبية، يعلو جبل هائل أشبه بحارس قديم للقارة هو **جبل أكونغاكوا**، شاهق فوق الغابات والصحارى والجليد. هو أقل قسوة

من بعض القمم الأخرى، لكنه يترك شعوراً بالعظمة والرهبة. من يصل إلى قمته يشعر كما لو أنه يقف على بوابة العالم، حيث يلتقي الثلج بالصحراء بالغابات في مزيج ساحر ، وتصبح الرحلة فيها إعلان حب للحياة ومواجهة للتناقضات التي تسكن القلب البشري.

وفي أقصى الجنوب، فوق **القارة القطبية البيضاء،** ينتصب جبل صامت في عزلة مطلقة هو **جبل فينسون** ، كأنه وُضع ليختبر حدود الإنسان في مواجهة الفراغ. الوصول إليه تجربة وجودية، حيث كل خطوة تحمل معها اختباراً للقدرة على التحمل، والصعود ليس انتصاراً فقط على الجبل بل على عزلة النفس وحدودها. هنا يدرك المتسلق معنى الصبر المتطرف ، ويختبر

معنى الوحدة أمام عظمة الكون وسكونه المطلق.

لنتجه نحو الشمال إلى **القوقاز**، حيث يتوّج جبل أبيض بقمته المزدوجة أوروبا كلها، شامخاً كرمز حضاري وتاريخي. إنه **جبل إلبروس** في روسيا .. لم يكن مجرد تحدٍ طبيعي، بل رحلة عبر ثقافات وديانات وأمم مرت تحت ظلاله. قمته المزدوجة تبدو كعينين ترصدهما كل البشرية، وكأن الجبل يربط ما فرّقه الزمن والجغرافيا، ويعلّم أن الصعود ليس مجرد فعل جسدي بل رحلة معرفية وروحية في الوقت نفسه.

وفي قلب **الألب**، ينتصب جبل مسنن كرمح يخترق الغيوم، معروف بجماله المذهل ورهبة صعوده. إنه **جبل ماترهورن** كل انحدار وصخرة حادة تحكي قصة طبيعية، وكل خطوة صعود هي اختبار للشجاعة والتركيز. الجمال هنا قاتل، والقمم ليست كلها رحيمة،

والمتسلق يكتشف أن الطبيعة تختبر من يطمح لامتلاك عرشها الصخري وأن بعض القمم تجذب وتفتك في الوقت نفسه.

وأخيراً، نعود إلى **الهملايا** من حيث بدأنا ، حيث يقف جبل هرمي الشكل، صامت وحاد كالنصل، لا يكشف سره إلا لمن يحسن الإصغاء. إنه **جبل ماكالو** في النيبال .. صعوده يحتاج إلى قوة الجسد، وهدوء النفس، وانسجام مع الرياح والطقس. المتسلق هنا يتعلم أن القمم لا تُنال بالعنف وحده، بل بالتواضع والخشوع أمام سر الطبيعة، وأن الوصول إلى القمم الحقيقية يعني الانصهار مع روح المكان والتعلم من صمته العظيم.

وهكذا، تتوزع هذه القمم العشر الأشهر على الأرض كأيقونات حية، ليست مجرد صخور وجليد، بل **دروس في الصبر والعزيمة والتواضع والوحدة والجنون والجمال** ، ومرايا لحياة الإنسان، تكشف له أن صعوده نحو القمم هو صعوده نحو ذاته، وأن كل قمة هي قصة تروى لكل من يجرؤ على الحلم والمغامرة.

******

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**إيفيرست**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= لقد بلغت القمة و حققت هدفي ، يمكنني الآن أن أستريح ..

بل أن نقول :

= الصعود إلى القمة هو الجزء الأسهل – على صعوبته – من الحكاية ، فهناك تنتظرك معركة دامية لا ترحم .. معركة **الحسد و الحقد و الغدر و التشويه و التزوير** .. صراع عروش من نوع مختلف ..

إن كنت عزيزي القارئ لا تكترث للعرش و تعتبره وسيلة لتحقيق الصالح العام و نشر الفضيلة و تحسين جودة الحياة ، لا غاية بحد ذاته للتباهي و السيطرة ، فغيرك لا يراه كذلك و سيدفع بك من القمة إلى السفح ، ليجردك من لقب **الحي** و يفرض عليك لقب **الميت** .. فينصب نفسه بالقوة ملكاً على القمة .. فاحذر يا صديقي ، ستكون أشبه بحمل وديع بين قطعان من الذئاب ، لذا عليك أن تحترف الرقص مع الذئاب كي تنجو ..

القرصنة

(الأعور المحتال)

في البحر، حيث يلتقي الزبد بالظلال، وتتشابك الرياح مع سرود الموج، وُلدت أسطورة لا تشبه سائر الأساطير، بل تتخطاها لتصبح كابوسًا ينام في ذاكرة المحيطات. هناك، بين غياهب القرن الثامن عشر، ظهر رجل لا يعرف الرحمة إلا كما تعرف النارُ الرماد : القبطان **إدوارد تيتش،** الذي اشتهر بلقب **بلاك بيرد** أي اللحية السوداء . كان أكثر من مجرد قرصان؛ كان تجسيدًا حيًّا لفكرة الرعب وقد مُنح وجهًا ولحية سوداء كثيفة كأنها دخان بركان، تتدلى خصلها كأفاعٍ تتأهب للانقضاض.

كان يطل على رجاله بعيون تشع مزيجًا من الجنون و العنف ، يحمل قناديل صغيرة مشتعلة يربطها بين جدائل لحيته في الليالي الحالكة، فيبدو كشيطان خرج

من أعماق الجحيم ليحتل البحر. لم يكن سيفه وحده سلاحه، بل هالة مظلمة تلفه كأنه مخلوق ولد من رحم الفوضى، يجمع بين سطوة الخيال ورهبة الواقع. كانت شهرة بلاك بيرد كافية لأن تستسلم سفن بأكملها دون إطلاق رصاصة واحدة، فاسمُه وحده كان عاصفة تسبق المطر.

لكن الأساطير لا تكتمل إلا بسفينة تحملها، وهنا يظهر القدر في صورة الخشب والحديد : **انتقام الملكة آن** ، السفينة التي اختطفها بلاك بيرد من الفرنسيين .. لم تكن مجرد سفينة، بل كيانًا مهيبًا يبحر كأنه تنين خشبي يفتح فمه على الكون.

أربعة وأربعون مدفعًا تصطف على جانبيها مثل أنياب وحشٍ عطش للدمار، وأشرعة تمتد كأجنحةٍ سوداء تحجب الشمس. كانت سفينة انتقام الملكة آن هي عرش بلاك بيرد على الماء، ومملكته التي لا حدود لها سوى الأفق، وبيته الذي لا يسكن إلا بالعاصفة.

فيها جمع رجاله، خليطًا من المتمردين والباحثين عن الكنوز المسروقة ، ومنبوذين من الأرض، فصارت سفينته أشبه بجزيرة منفية تجوب المحيطات. كان بلاك بيرد يعرف كيف يزرع في قلوبهم الولاء والخوف معًا؛ يعطيهم غنائم لم يحلموا بها، لكنه يجعلهم يدركون أن أي خيانة تعني الذوبان في قاع البحر حيث لا يصل الضوء و تتفشى الحيوانات المتوحشة .. وهكذا، كان القبطان وسفينته يتحركان ككيان واحد، كوحش أسطوري له قلب نابض بالعنف و زارع للترهيب و الموت ..

لكن السحر الأسود لم يستمر طويلا حتى ينقلب على الساحر ، فقد عرف البحر أخيرًا كيف يسترد صمته، حين حاصرته سفن الإنجليز في معركة شرسة قرب ساحل كارولينا. ومع كل طلقة مدفع، وكل اندفاع صليل السيوف، كانت الأسطورة تتشقق. ومع سقوط بلاك بيرد، سقطت أيضًا سفينة انتقام الملكة آن التي انتقمت أخيرا بالفعل من قرصان مجرم استولى عليها بالحرام

من ملاكها .. لتنتهي بذلك أسطورة قرصان الموت و الترهيب التي عاشت في البحر فسادا لعقود ..

****

من منا لا يعرف شخصية القرصان الشهيرة بعينه المفقودة ذات الرقعة السوداء و يده ذات الخطاف الفضي مع ساقه الصناعية و شعار الجمجمة و العظام الذي يرهب الآمنين بالقتل ..

و قد يعتقد كثير منا أيضاً أنها شخصية خيالية تغذي الروايات و القصص نسجتها عقول الكتاب و خيالات الحالمين .. فما قصة هذا القرصان بالضبط ؟ هل هو حقيقة عاشت بالفعل أم خيال كاتب حالم لا أكثر ؟!

هذا ما سنعرفه خلال الصفحات التالية عندما نقارب سوياً مغالطتنا الجديدة الشيقة و المثيرة بالتنقل بين ثلاث جزر مذهلة في محيط المعارف الشاسع :

① **القرصنة بين الماضي و الحاضر ..**

② **رموز القرصنة فلسفياً ..**

③ **أشهر قراصنة التاريخ ..**

لذا اصعد السارية عزيزي القارئ ، أنزل الأشرعة و هيا بنا نبحر معاً في مغامرة تحبس الأنفاس ..

أولاً ، القرصنة بين الماضي و الحاضر :

في البدء، حين كان البحر كتابًا مفتوحًا لا يعرف حدوده إلا الأفق، وحين كانت السفن الخشبية تسير ببطء على ظهر الموج كأنها كائناتٌ بدائية خرجت من رحم الخشب والحبال، وُلدت **القرصنة**. لم تولد من فراغ، بل من جوع الإنسان للسيطرة والمال والمغامرة، ومن صراع دائم بين الفوضى والنظام. فمنذ أن عرف البشر التجارة البحرية، عرفوا معها الخطر الذي يترصّد السفن في عتمة الليل أو خلف جزر مجهولة، رجالٌ يرفضون الانصياع لقوانين الملوك ويختارون أن يعيشوا على الهامش، بين الغزو والغنيمة.

نشأت القرصنة منذ آلاف السنين، وكانت أولى صورها في البحر المتوسط، حيث الفينيقيون والإغريق والرومان. هناك، في بحرٍ ضيق تتجاور فيه الحضارات، صار الخطر جزءًا من الحياة اليومية. ففي

زمن الجمهورية الرومانية مثلًا، كان القراصنة يسيطرون على البحر كما يسيطر الذئب على الغابة. يهاجمون السفن التجارية، يختطفون الرجال والنساء، ويبيعونهم في أسواق العبيد. ولم يهدأ البحر إلا حين أرسل القائد الروماني **بومبي** جيوشه البحرية، فطارد القراصنة في معركة طويلة انتهت بإخمادهم مؤقتًا. لكن القرصنة لم تكن لتُمحى من الوجود، لأنها لم تكن مجرد عصابات، بل كانت انعكاسًا لحاجة الإنسان في زمن الفوضى إلى أن يقتات على ضعف الآخر.

ثم جاء عصر الاكتشافات الكبرى، حين اندفعت السفن الأوروبية إلى المحيطات بحثًا عن الذهب والتوابل والأراضي الجديدة. ومع هذه الطفرة التجارية، جاء العصر الذهبي للقرصنة في القرنين السابع عشر والثامن عشر. كانت البحار تعج بسفن محمّلة بالخيرات، وكان القانون بعيدًا، والسلطة غائبة، فامتلأت الكاريبي بخليط من القراصنة والمستعمرين والمغامرين. في تلك الفترة ولد اسماء مثل بلاك بيرد وهنري مورغان وآن بوني، الذين تحولوا إلى أساطير حيّة.

كان الكاريبي هو المسرح الأعظم، حيث الجزر المتناثرة شكلت ملاجئ مثالية للسفن الخارجة عن القانون. هناك، كان القراصنة يقيمون قواعدهم،

يشربون الروم، يقسمون الغنائم بنظام صارم يكاد يشبه الديمقراطية الأولى. ومن سخرية القدر أن هؤلاء المتمردين الذين رفضوا عروش الملوك، أسسوا أنظمة داخلية شديدة الانضباط، فيها قائد منتخب، وقوانين توزّع الغنائم وتحدد العقوبات. كان البحر فضاءً حرًّا لا تحكمه سوى شريعة القوة، لكن وسط هذه الفوضى، أبدع القراصنة شكلًا من العدالة الخاصة بهم.

غير أن المجد لا يدوم. سرعان ما ضاقت الإمبراطوريات الأوروبية ذرعًا بهذا التمرّد. فأرسلت الأساطيل الضخمة، وبدأت مطاردة لا تعرف الرحمة. أُعدم القراصنة على المشانق في موانئ لندن وسبتة

وبوسطن، كعبرة لكل من يجرؤ على كسر النظام. ومع دخول القرن التاسع عشر، تراجعت القرصنة البحرية شيئًا فشيئًا، وانطفأت شعلة العصر الذهبي. صار البحر أكثر أمنًا، لكن الأسطورة لم تمت، بل بقيت حية في الأدب والسينما والأغاني الشعبية، كرمز للسرقة و الترهيب ..

ومع أن البحر استعاد صمته، فإن روح القرصنة لم تختفِ، بل غيّرت جلدها. ففي القرن العشرين، عادت القرصنة بصور مختلفة : سفن صغيرة تهاجم ناقلات النفط في سواحل الصومال، أو مجموعات مسلحة تعترض الممرات التجارية في جنوب شرق آسيا. لكن هذه لم تعد ظاهرة شائعة كما في الماضي، بل أقرب إلى جريمة منظمة تحركها الفاقة والجشع.

ثم، في عصرنا الحديث، ولدت قرصنة جديدة لا تحتاج إلى سفن ولا إلى مدافع، بل إلى عقل بارع ولوحة مفاتيح. إنها القرصنة الإلكترونية. هنا، لم يعد البحر ماءً، بل فضاءً رقميا لا يُرى، محيط من البيانات يتدفق في كل لحظة. والقراصنة الجدد لا يضعون شالات سوداء ولا يحملون سيوفًا، بل يختبئون خلف شاشات مضيئة، يهاجمون البنوك الإلكترونية، يخترقون الحكومات، يسرقون الأسرار، يزرعون الفوضى في أنظمة العالم.

إنها مفارقة الزمن: بالأمس كان القرصان يوقف سفينة في عرض البحر ويهدد‌ها بالمدفع، واليوم يوقف عالمًا كاملًا بزر واحد. الفرق الوحيد هو الوسيلة؛ أما الجوهر فباقٍ : التمرد، الطمع، والرغبة في كسر القوانين.

وهكذا، حين نتأمل تاريخ القرصنة، نراها مرآة لوجه الإنسان ذاته : وجهٌ لا يهدأ، دائم البحث عن مساحات يسيطر عليها، حتى لو كانت على حساب الآخرين. من البحر المتوسط إلى الكاريبي، ومن المحيط الأطلسي إلى شبكة الإنترنت، ظل القرصان حاضرًا، يتشكل مع شكل الحضارة، كظلٍ يرافقها في كل زمان.

فهل ستختفي القرصنة يومًا ؟ أم أنها جزء من الطبيعة البشرية، تولد مع كل جيل وتعيد ابتكار نفسها مع كل ثورة تقنية ؟ ربما يكون المستقبل حافلًا بقراصنة من نوع آخر، لا يبحرون بسفن، ولا يختبئون خلف شاشات، بل يخترقون العوالم الافتراضية أو حتى

العقول ذاتها. فالقرصنة ليست حدثًا عابرًا، بل قدرًا متكررًا، يعيد نفسه كلما ظن الإنسان أنه أمسك بزمام العالم.

ثانياً ، رموز القرصنة فلسفياً :

في عمق البحر، لم يكن القرصان مجرد رجل يرفع سيفًا أو يوجه مدفعًا، بل كان مسرحًا متحركًا للرعب، يحمل على جسده وفي هيئته رموزًا سوداء أوجدها لتزرع الخوف في النفوس قبل أن تقترب الرماح. لم تكن الرقعة التي تغطي إحدى عينيه علامة بطولية كما قد يتوهم البعض، بل كانت إعلانًا فجًّا عن تاريخ من الدماء، جرحًا خلفه فعل خسيس أو معركة قذرة من أجل سرقة قوت الآخرين. تلك الرقعة لم تكن سوى قناع يخفي وراءه نفسًا عمياء، لا ترى الحق إلا مطفأ، ولا تبصر إلا طريق العنف.

أما اليد المبتورة التي تحولت إلى خطاف فضي لامع، فليست صورة للصلابة كما يتغنى بها الخيال، بل تجسيد

لسقوط الإنسان في درك الحيوانية. اليد، رمز العطاء والعمل، قُطعت لتحل محلها أداة قتل، يمدها القرصان لا ليصافح أو يبني، بل ليخترق أجساد الأبرياء ويسلب ما ليس له. كأن الجسد نفسه صار شاهدًا على الانحطاط : كلما خسر القرصان عضوًا، عوّضه بأداة جرمٍ جديدة تزيده قسوة.

والساق الصناعية التي تجرها خطواته على ظهر السفينة ليست نكهة أسطورية، بل صدى لقدرٍ مظلم. كل طرقة منها على الأرض تقول : لقد فقدت إنسانيتي في سبيل جشعي. إنها ساق تذكّر بأن الطريق إلى الثروة غير المشروعة معبّد بالبتر والنقص، وأن من يسرق رزق الآخرين ينهش أولًا من جسده قبل أن ينهش من جيوب ضحاياه.

حتى الكنز الذي خبأه تحت الرمال لم يكن ذهبًا بريئًا، بل دمًا مهدورا تحوّل إلى عملات. كل صندوق مدفون

لم يكن وعدًا بالثراء، بل شاهد قبر على أناس قُتلوا أو جُوِّعوا ليملأه. إن الكنز، في حقيقته، لعنةٌ لا تلمع إلا في عيون الطامعين، ومصيرٌ لا ينتمي للخلود بل للتراب. وما يبدو اليوم أسطورة عن خرائط وكنوز مخفية، لم يكن سوى اعتراف ضمني بأن القرصان كان يخجل من سرقته، فيدفنها كما تُدفن الخطيئة.

ثم تأتي الراية السوداء التي ترفرف فوق الأشرعة، تحمل جمجمة وعظامًا متقاطعة، كأنها إعلان بارد عن استباحة الحياة. لم تكن تلك الجمجمة دعابة ولا رمزًا للفروسية، بل شهادة واضحة : (نحن لا نزرع سوى الموت و الخراب) .. إنها راية تجعل من القتل شعارًا، ومن الفناء هويةً جماعية. وإذا كانت الأمم ترفع أعلامها رمزًا للحياة والكرامة، فقد رفع القراصنة علمًا يقدّس

العدم ، و كأنهم يفتخرون بأنهم أبناء الخراب لا أبناء الإنسان.

حتى لباسهم الأسود لم يكن مجرد زي موحّد، بل عباءة الظلام التي تحجب عنهم أي نور. الأسود الذي لبسوه لم يكن لون القوة بل لون القبر، إعلانًا أنهم يعيشون في عالم لا مكان فيه للألوان، حيث لا حياة إلا بقدر ما تسلب من الآخرين. كانوا يمشون في عتمة متواصلة، كأن البحر نفسه لفظهم من رحم الموج ليكونوا ظلالًا بلا جذور.

هكذا، كل رمز من رموز القرصان لم يكن بطولة، بل وصمة. الرقعة عين عمياء عن الحق، الخطاف يد فقدت الإنسانية، الساق الصناعية قدر محتوم بالهلاك، الكنز جشع مدفون، الراية السوداء عبادة للموت، واللباس المظلم ستر لجريمة مستمرة. لقد كان القرصان يعرف أن الخوف سلاح أشد فتكًا من المدفع، فحوّل جسده وملبسه إلى مسرحية رعب دائمة، يخيف بها ضحاياه قبل أن يسرق أرزاقهم.

لكن حين ننظر بعمق، ندرك أن هذه الرموز تكشف لنا فلسفة مقلوبة : أن من يزرع الرعب يورّث لنفسه الخراب كما كانت نهاية القرصان بلاك بيرد، ومن يحوّل جسده إلى سجل للجرائم، يعيش منخورًا بعاهاته قبل أن يسقط صريعًا بسيف العدالة. إن القرصان لم يكن يومًا بطلًا، بل لعنة متحركة، وكل رمز من رموزه ليس إلا شاهدًا على انحدار الإنسان حين يختار أن يبني مجده فوق دماء الآخرين.

ثالثًا ، اشهر قراصنة التاريخ :

في سجل البحر الطويل، لم يخلُ التاريخ من وجوهٍ مظلمة طُبعت على أمواج المحيطات كأنها لعنات لا تموت. هؤلاء القراصنة لم يكونوا مجرد لصوص، بل كوابيس أُفرغت من قماقمها، كلٌّ منهم ترك أثرًا من الدم والدخان والرهبة.

❁ آن بوني :

قرصانة نادرة كسرت قوالب المجتمع، هجرت حياتها المألوفة لتعيش بين الدم والمدافع. اشتهرت بشجاعتها في المعارك، إذ كانت تقاتل جنبًا إلى جنب مع الرجال، تصرخ في وجوههم إن أبدوا جبنًا. رمزت إلى تمرد مزدوج : ضد السلطة وضد التقاليد. قبض عليها الإنجليز، لكن مصيرها النهائي غلفه الغموض كما لو أن البحر ابتلعها.

❁ ماري ريد :

رفيقة آن بوني في الثورة والقرصنة، عاشت متخفية

بزي رجل معظم حياتها. حين انكشف أمرها، لم يكن الضعف صفتها، بل قاتلت حتى الرمق الأخير دفاعًا عن حريتها. كانت حياتها مرآة لتمرد مضاعف، أنثى ترفض أن تُحاصر بجسدها أو بقوانين الرجال. ماتت في السجن، لكن قصتها بقيت شاهدة على نزيف الحرية حين يختلط بالدم.

۞ هنري مورغان :

قرصان تحوّل إلى أسطورة سياسية، جمع بين النهب والسلطة في آن واحد. هاجم مدنًا إسبانية كأنه جيشٌ منفلت، وأشهر غاراته على بنما جعلت اسمه كابوسًا في البلاط الإسباني. اشتهر بسياسته الخسيسة بممارسة

القرصنة على القراصنة أنفسهم ، فهو كان يترك القراصنة الأصغر منه يسرقون من الآخرين ثم يسرق هو غنائهم بنفسه ..

۞ تشيـنغ شِي :

إمبراطورة القرصنة الصينية، بدأت حياتها في بيت قمار متواضع، ثم صارت قائدة لأسطول يتجاوز **1800** سفينة وما يزيد عن **70** ألف رجل. فرضت قوانين من حديد، من خالفها دفع حياته ثمنًا، فارتعدت سواحل الصين تحت قبضتها. كانت قرصنة منظمة أكثر من كونها فوضى، حتى اضطرت الإمبراطورية

الصينية لمهادنتها ومنحها عفوًا رسميًا. بخلاف غيرها من القراصنة، أنهت حياتها في ثراء وهدوء، وكأن البحر رضخ لها بدل أن يبتلعها.

❁ **بارثولوميو روبرتس** :

لقّب بروبرتس الأسود ، وكان أكثر القراصنة نجاحًا من حيث عدد السفن التي استولى عليها، إذ تجاوزت المئات. كان يرتدي ثيابًا زاهية ليظهر كملك وسط

رجاله، ويعامل القرصنة كفن منظم أكثر من كونها فوضى. لكن مصيره لم يختلف : قُتل برصاصة في البحر، وسقطت معه رايته السوداء. جسّد حقيقة أن القرصان مهما علا، يظل مجرماً سيهوي ..

******

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**القرصنة**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= القرصان شخصية خيالية نسجتها خيالات الكتاب و اساطير الأقدمين ..

بل أن نقول :

= القرصان شخصية حقيقية عاشت بالفعل في فترات من التاريخ و عاثت في الأرض فساداً ..

لعل أدق توصيف لشخصية القرصان هو (**الأعور المحتال**) ، الذي يختبئ خلف الرقعة السوداء على عينه و يمد يده ذات الخطاف الفضي التي قطعت بسبب سرقاته السابقة ليسرق الجديد من جديد .. و كل ما يتعب الآخرون لسنوات في تحصيله ، يستولي عليه بدقائق بالترهيب و القوة كي يبني امبراطورية من الظلام شعارها الوحيد هو الموت (الجمجمة و العظام)

واقع افتراضي

(الأكوان الموازية)

العالم الآخر ..

المقصورة الزجاجية ..

ارتجف صوت أريان وهو يلتقط أنفاسه المضطربة، ما زال غير قادر على استيعاب المشهد الذي يحيط به.
رفع بصره نحو الجهاز الكروي الذي يضيء كقمر مكتمل و قال :

= أهذا حُلم؟ موت وشيك ، أم هذيان ما بعد الحادث؟ أين أنا حقاً؟ هل أي من هذا كله حقيقي ؟

جاءه الصوت الأنثوي مجدداً، هادئا، عميقًا و مطمئنا كأنه بلسم للآذان يتسلل من مسافة لا تُقاس بالزمان ولا بالمكان :

= لا، ليس حلماً يا بني... لقد متَّ هناك، على الأرض، تحت ضوء مصابيح المشفى الذي عملت فيه طويلاً.

قلبك توقف، وجسدك الأرضي استسلم، أما الآن فأنت هنا، في العالم الآخر، حيث تبدأ الحياة من جديد.

ارتعش قلبه من وقع الكلمة : ميت ؟ كررها في داخله كما لو أنها صخرة سقطت في بئر مظلم. لكن المفارقة أن صوته هنا لم يتهدج، بل خرج صافياً، وكأن الموت محا ارتباك الجسد.

أعاد النظر إلى الزجاج المنحني أمامه، فانعكس مجددا وجه لا يعرفه. عيون أكثر اتساعاً أقرب إلى لون العسل المصفّى ، شعر محايد ليس داكناً و لا فاتحاً .. ملامح تقف على نصل بين حدين الجدية و البشاشة ، جسد لم يكن له .. ارتجف ثانية

، مصفوعاً بالمفاجأة ، ثم قال بتوتر :

= لكن هذا... هذا ليس أنا !!! لماذا تغيّرت ملامحي؟ أين وجهي؟

أين جسدي؟

ابتسم الصوت على نحو يُشعر لكنه غير منظور و قال :

= لكل إنسان جسدان يا بني؛ جسد أرضي تحيا به على كوكب الأرض ، وجسد سماوي يقترن به هنا. حين يموت الجسد الأرضي يتفتت إلى ذرات لا عودة لها، لكن عندها سيستيقظ الجسد السماوي الذي لا يفنى، ويبدأ

رحلة أبدية في هذا العالم. هذا هو جسدك الآن ، جسدك الحقيقي بعد أن تحرر من ثِقَل التراب.

جلس أريان على حافة السرير الغريب، يتلمس يديه الجديدة، جلده، وجهه، حتى صوته بدا مختلفاً. قال بصوت متهدج بالدهشة :

= و لماذا هذا الشكل دوناً عن سواه ؟

أجابه الصوت الأنثوي :

= الأجساد السماوية هنا متشابهة في هيئتها الأولى ، الهيئة التي اختارها العلم بالدراسة و التحليل ، كلنا هنا شخص واحد و أتينا من نور واحد .. هنا ليس الشكل ما يمنحك فرادتك، بل جوهرك وما تختاره أن تكون. إذ لديك فرصة أن تعيش أي تجربة تريدها، في أي جسد تختاره ، وفي أي بيئة تنتقيها و تفضلها متى شئت ، عبر **عدسات الأكوان الموازية** ... بها تستطيع أن تتقمص أي شخصية أي صورة، أن ترى نفسك كيفما تشاء، أن تعيش حيوات لا تنتهي في عوالم لا تنفد. كل ما عليك فعله أن تختار البيانات المرغوبة ، وستُخلق التجربة أمامك كما لو كانت حقيقة مطلقة.

شعر أريان وكأنه أمام سرّ أكبر من أن يحتمله. أصغى لقلبه فإذا به يخفق ليس بالخوف، بل بالترقب. و في

عينيه لمعان طفل اكتشف باباً خلفياً لحياة تحمل في طياتها كثيرا من الإثارة و المتعة. همس بشغف لم يستطع كبحه :

= أيمكنني... أن أجربها الآن؟ أيمكنني أن أرى تجسيد هذا الكلام بعيني؟

ساد الصمت لحظة، كأن المقصورة كلّها حبست أنفاسها، ثم أجاب الصوت بنغمة دافئة تشبه وعداً :

= نعم، حان الوقت أن ترى ... و هذه هبة لكل انسان تطأ قدماه العالم الاخر .. انظر فوق مجسم الكرة الزجاجية ستجد عدستي عين لاصقتين ، ارتديهما و سأخبرك بعدها ما ينبغي عليك فعله ..

في تلك اللحظة انبثق نور ناعم من قلب الجهاز الكروي، وشعر أريان أن الهواء من حوله يتكثف كستارة حريرية شفافة، يوشك أن تُفتح لتكشف له مسرحاً لا نهائياً من العوالم. ارتعش جسده السماوي، لكنه لم يتراجع؛ كانت الحماسة أقوى من الخوف. مد

يده نحو الكرة الزجاجية و التقط العدستين من عليها ثم ارتداهما بسهولة ..

جلس على حافة المقصورة، وكأن قلبه لم يعد يملك مكانًا في جسده السماوي من كثرة الترقب. أمامه، على حافة رؤيته الجديدة في العدسات ، تكدّست قائمة بيانات شفافة .. قرأ البند الأول : **اختر تجربتك** ..

لم يكن الاختيار مجرد نقرة أو لمسة ، بل أوامر شفوية تكفي

قال الصوت الأنثوي برفقٍ آسر، كأنما يحاول أن يلمس رغبة دفينة في روحه :

= هيا أريان ، اختر ما تريد أن تعيشه و تجربه ..

تردد أريان لحظة، ثم تذكّر شيئًا صغيرًا من طفولته : صورةٍ لطيور سوداء وبيضاء تمشي بوقار على جليد لا نهاية له البطاريق ، مذ رآها على شاشة التلفاز في طفولته و حلم جميل ولد في قلبه أن يراها بأم العين ذات يوم .

ابتسم ..

= أريد أن أرى البطاريق... أريد أن أعيش هذه التجربة في جسد شاب أشقر، في القطب الجنوبي لكوكب الأرض ..

ضحِكَ الصوت الأنثوي، ضحكته رقيقة محببة و مفعمة بالحنان و الأمان ، وتكشف عن معرفةٍ لا يخفى عنها شيء ..

= البطاريق... حلم الطفولة يا أريان، أليس كذلك؟!

تراكمت في صدره دهشة غريبة؛ كيف يعرف الصوت أسراره قبل أن ينطق؟ لكن الردّ لم يترك مجالًا للتعجب؛ كأنّ العالم الآخر هنا لا يكتفي بالاستجابة، بل يقرأ ما لم يُقَل. على الفور، أمر الصوت العدسات بما أراد .. و في لحظةٍ، تبدّل المحيط من حوله قبل أن يرتد إليه الطرف ، كما لو أن نفسه قد انتقلت عبر بوابات زمنية. وجد نفسه على جليدٍ شاسعٍ أبيض يتوهّج تحت ضوء شمس شاحبة، والهواء يلسع وجهه بقسوةٍ. فرو كثيف يلتف حول جسده يقيه قليلاً من البرد الذي لم يكن مفهومًا مجردًا ، بل حضور له لسان و لمسة : رقاقات هواء تخترق الأقمشة، صقيع يرسم خيوطًا على شفته، وذاكرة عظمية تصرخ بالبرودة.

أمامه، امتد موكبٌ من بطاريق الإمبراطور يمشي بوقار عتيق؛ بعضها يجلس على بيضه، رؤوس صغيرة تطل من بين ريشٍ كثيف، وبعضها يقفز برشاقة إلى الماء، سوداء وبيضاء تشرئب وتغوص وكأنها تعزف سيمفونيةً للحياة. الصوت الخفيض لأقدامها على الجليد،

صفير الريح المتقطع، ورائحة البحر البعيدة، كلها أتت في آنٍ واحد؛ كان كل ذلك حقيقيًا و لا يخضع لتفسير منطقيٍ..

ابتسم بذهول و سعادة .. فحلم الطفولة تحقق بأغرب سيناريو ممكن !!

نزع كفه و مد يده ليلمس الأرض الجليدية. البرودة اخترقت جلده، لكن اللمس كان حقيقيًا ، قساوة الجليد تحت راحة يده، لامعة ومخدرة في آن. حرّك قدميه فوجد حركاته حرة كما لم يشعر من قبل ، لم يكن الجسد الجديد عبئًا، بل أداة حية تمنحه قدرةً على أن يكون في مكانين : على الأرض وفي الفضاء اللامحدود للخيال. انه يشعر و كأنه يعيش على كوكب الارض مجدداً .. بل إن دموعاً تجمعت عند حواشي عينيه، ليست دموعاً من أثر الرياح فحسب، بل دموع عجبٍ من قدرة قلبه

على البكاء في واقع افتراضي أمام منظرٍ لم يتخيله يوماً.

فجأة، وبطريقةٍ لا تسمح للعقل بترتيب اعتراض، صدمه سؤالٌ داخلي : كيف يقنع عقله بأن هذا كلّه ليس حقيقيًا؟ الريح تعوي في أذنه، منظر الماء يتلاطم أمامه، وطعم الملح يلعق شفتيه، كيف له أن يقنع ذاته أن كل هذا ليس سوى محاكاة متقنة؟ قبل أن يجد جوابًا، عاد الصوت الأنثوي يرنّ مجددًا كمن يقرأ أفكاره قبل أن تتبلور :

= لا يمكن الجزم بين الواقع والخيال هنا ، فالعلم قد بلغ أقصى درجاته، و لهذا دعي العالم الاخر جنة ، لأنه يدفعك الى الجنون من هول التطور ، السعادة و المتعة التي يمكنك ان تحظى بها ..

= محقة تماماً ، لكن كيف تقرأين أفكاري ؟

ضحكت بحنو :

= أنا أوجدتك يا أريان فكيف لا أعرف عنك كل شيء ؟!

= أوجدتني ؟!

= بالفعل .. سنتحدث عن ذلك أكثر بعد قليل .. لكن يدك التي نزعت عنها القفاز بدأت تصاب بقضمة الصقيع و ستتألم بشدة لاحقاً ، لذا علينا أن نعود الى المقصورة ، فما رأيته الآن يكفي لتفهم كيف تسير الأمور هنا في

العالم الآخر .. و ما ستؤول إليه الأمور هناك على كوكب الأرض في نهاية الزمان مع تطور الذكاء الاصطناعي و الواقع الافتراضي ..

بالفعل كان البرد قد بدأ يثقل في أوردته ، و شعورٌ كطعنة خنجر يسكن عظام يده.

= حسنا فلنعد ..

و بغمضة عين أخرى تبخّر المشهد من حوله ، كأنما أحدًا يغلق كتابًا كبيرًا و شيقاً بنهاية فصلٍ أخير. عاد إلى مكانه الأصلي في المقصورة الزجاجية، لكن عودته لم تكن عودةً إلى ما كان قبلها؛ كانت محمّلةً بصدى الريح و الموج ، بلسعة الصقيع وبصوت البطاريق البعيد.
نظر حوله وقد علت ملامحه دهشةٌ لا تخفى :

= هذا... هذا مذهل .. بل أكثر بكثير من الذهول ..

خرجت الكلمات منه كهمس طفل عرف باباً سرياً لمسرح متعة لا تنتهي ..

ضحكت مجدداً، ضحكةٌ فيها اعتراف بالسرّ وبقوته، وقالت بلطفٍ لا يخلو من الثقة :

= وهذا لم يكن سوى تجربة بسيطة للغاية. العدسات هنا تعمل وفق ذكاء صناعي متطور بشدة؛ قادرة على توليد قصص كاملة معقدة لتعيشها بحذافيرها : ألغاز،

مغامرات ، معارك ، استكشاف، استرخاء، حل جرائم، رحلات فضائية، غوصٌ في أعماق المحيطات ... و كل ما يخطر ببالك و ما لم يخطر . ليست مجرد مشاهد، بل سردٌ حيّ يولد تفاصيله أمامك، قابلاً للتعديل حتى أصغر ذرة كما رأيت بأم العين .. بل أكثر من ذلك .. وجود البشر أنفسهم على كوكب الأرض هو إحدى هذه التجارب .. مجرد واقع افتراضي يعيشونه بدقة لا متناهية تجعلهم يفقدون التمييز بين الواقع و الخيال ..

= نظرية أفلاطون عن الوهم !!

= أحسنت ، و أنت محظوظ أن خرجت من الغرفة المغلقة و كشف عنك الحجاب لترى الحقيقة كما هي ليزول وهم أفلاطون من عقلك ..

= و أعتقد أن أجمل ما في هذه العوالم الافتراضية أن حواسنا تعمل كلّها بكفاءة : نأكل، نشرب، نسبح، وكما جربت بنفسي نشعر بالألم و بكل شيء آخر ..

= تماما لكنه ألم وهمي و غير مؤذٍ ؛ إذ يبقى جسدك الأساسي سالماً متى غادرت التجربة. في الحقيقة يمكنك اختيار بياناتك بدقة هائلة لا حدود لها ، حتى لون زرّ قميصك تصبح خيارًا .. بل ما هو أدق من ذلك بكثير ..

ابتسم أريان، ابتسامة تختلط فيها رهبة الطفولة بنشوة الباحث عن معنى، وقال :

= إنها... إنها جنة باعثة على الجنون حرفيًا !!

= و ما خفي كان أعظم ..

ساد الصمت للحظات ثم هشمه بالسؤال المتوقع منذ زمن :

= إننا نتحدث منذ ساعتين سيدتي ، لكنك لم تخبريني من أنتِ ؟ هل أنت الله .. هل الله أنثى كإلهة الهندوس **شاكتي** ؟

= لا لست الله .. الله ليس أنثى .. و ليس ذكر على حد سواء ، أنا شجرة السماء .. زيتونة لا شرقية و لا غربية .. مكتشف الكون الأكبر و مصمم الكون الأصغر

على كل حال هذا السؤال لا يمكنني التصريح به الآن ، بل يبقى سراً من أسرار الحياة و الكون الأكبر لن يتجلى

إلا بعد انتهاء الحياة و استيقاظ كل الأجساد السماوية .. لكن يمكنك الاستدلال على ماهيتي بالاستئناس بأسطورة **حي بن يقظان** الشهيرة على الأرض ، التي أوحيت لمبتدعها أن يخرجها للنور و ضمنتها أسطورتي الشخصية ، أعلم أنك تجهلها ، لكن إن قدر لك أن تعود مجدداً إلى الأرض فيمكنك البحث عنها أكثر علك تصل إلى حقيقتي بنيّ ..

****

قد يعتقد أغلب من يقرأ القصة السابقة أنها ضرب من ضروب الخيال .. مبالغة علمية أو أحلام يقظة .. و لا يلام على ذلك في الحقيقة .. لكن ماذا لو أخبرتك عزيزي القارئ أن هذه القصة تمثل واقع البشرية خلال العقود القادمة .. ماذا لو أخبرتك أنك بعد زمن ليس ببعيد ستتمكن من عيش تجربة صديقنا أريان بحذافيرها لكن هنا على كوكب الأرض .. إنه الواقع الافتراضي يا صديقي .. الذي و هو ما يزال يحبو على خطى التطور يبهرنا بإمكانيات مذهلة لغاية ، و عندما سيتزاوج مستقبلاً مع ذكاء اصطناعي متطور سينجبان لنا تجربة عوالم افتراضية تذهب بالعقل من هول جمالها و دقتها.

و خلال الصفحات التالية سنعيش سوياً في دنيا الواقع الافتراضي لنتعرف عليه من الزوايا الثلاثة التالية :

1. **تاريخ تطور عن الواقع الافتراضي ..**
2. **تطبيقات الواقع الافتراضي ..**
3. **الأكوان الموازية ..**

لذا ضع نظارات الواقع الافتراضي على رأسك عزيزي القارئ و هيا بنا في مغامرة شيقة تحبس الأنفاس ..

أولاً ، تاريخ تطور الواقع الافتراضي ..

الواقع الافتراضي ليس مجرد اختراع تقني، بل هو أشبه بمحاولة الإنسان أن يمدّ بصره إلى عوالم لم تُخلق بعد، وأن يكسو الحلم لحمًا وعظمًا، فيسير داخله كما يسير داخل مدينة ملموسة. هو امتداد لذلك الحنين الأزلي نحو كسر قيود الجسد والانفلات من حدود المكان والزمان، نحو أن يعيش الإنسان أكثر من حياة، وأكثر من مصير.

لكن من أين بدأت هذه المغامرة التي تكاد اليوم تبتلع وعينا ؟

تاريخ هذا الانغماس في الواقع الافتراضي ليس جديدًا كما قد نظن. ففي عام **1935**، قدم كاتب الخيال العلمي الأمريكي **ستانلي وينباوم** نموذجًا خياليًا في قصة قصيرة بعنوان **نظارات بجماليون**. في أحداث القصة، التقت الشخصية الرئيسية بأستاذ جامعة اخترع زوجًا من النظارات يمكن من خلالها الانغماس في التجارب الخيالية باستخدام حاستي الشم واللمس، تجربة أقرب إلى السحر العلمي من مجرد خيال.

بعدها و في **خمسينيات القرن العشرين**، صنع المهندس الأمريكي **مورتون هيليغ** جهازًا سماه **سينسوراما** ، أشبه بآلة حُلمٍ ميكانيكية، يجلس بداخلها المشاهد ليحيا تجربة بصرية وسمعية وحسية تتجاوز شاشة السينما الجامدة. لقد كانت تلك المحاولة البدائية إعلانًا صريحًا أن الإنسان لم يعد يكتفي بالمشاهدة من بعيد، بل يريد أن يكون هو البطل، أن يدخل داخل الصورة ويذوب في نسيجها.

ومع **السبعينيات والثمانينيات**، بدأت الجامعات ومراكز الأبحاث تتسابق لتطوير خوذات العرض وأنظمة المحاكاة. لم يكن العالم آنذاك يملك ما يكفي من قوة الحوسبة، لكن الرغبة كانت أشدّ من العجز، فظلت المحاولات تتكرر حتى انفتحت أبواب **الألفية السابعة**. فظهرت ثورة الإنترنت والهواتف الذكية، ومع تسارع قدرة الحواسيب على معالجة الصور، انفجر الحلم القديم في هيئة خوذات أنيقة ومحتوى غامر يأسر الحواس كلها .. ففي عام **2010**، قدمت **شركة جوجل** خدمة التجول الافتراضي ثلاثية الأبعاد، وفي نفس العام ابتكر الأمريكي الشاب **بالمر لوكي**، وهو في الثامنة عشرة من عمره فقط، أول نموذج أولي لنظارات رأس تقدم تجربة الواقع الافتراضي بشكل متكامل. كان مجال رؤيته **90** درجة، وهو إنجاز لم يسبق له مثيل، معتمدًا على قوة معالجة الكمبيوتر للصور.

اليوم، لم يعد الواقع الافتراضي حكرًا على المختبرات أو ألعاب الفيديو، بل صار فضاءً رحبًا تُعقد فيه الاجتماعات، تُجرى فيه العمليات الجراحية التدريبية، تُدرّس فيه العلوم، وتُبنى فيه مدن من ضوء لا تقل تعقيدًا عن مدن الطوب والحجر.

وفي كل بقعة من العالم، أخذ الواقع الافتراضي يبحث عن أعظم المنصات التي تستحق أن تكون أوعية لأحلامه. وربما كان أوضح تجسيد لذلك هو كرة عين لاس فيغاس (Sphere)، المعلم الهندسي والفني الهائل الذي يشبه قمرًا اصطناعيًا هبط إلى الأرض ليحاصر الحواس بخطاب بصري غير مسبوق. بداخل هذه القبة العملاقة، يعيش الزائر تجارب غامرة تتداخل فيها الصورة والصوت والحركة، حتى يكاد ينسى أين تنتهي ذاته وأين يبدأ المشهد. هناك لا يشاهد الإنسان عرضًا، بل يتحوّل إلى خلية من جسد العرض نفسه.

لكن فيغاس ليست وحدها التي حملت شعلة هذا الحلم.

ففي **اليابان** مثلًا، طوّرت مدن الألعاب الرقمية فضاءات كاملة مبنية على تكنولوجيا الواقع الافتراضي، حيث يمكن للزائر أن يدخل عوالم مستوحاة من الأنيمي أو من المستقبل السيبراني، فيختلط الوهم بالحقيقة على نحو لا يمكن فصله. وفي **دبي**، تُقام معارض وتجارب تعليمية تتيح للناس أن يتنقلوا بين الكواكب أو يعبروا التاريخ كما لو كانوا يلمسونه بيدهم. أما في **أوروبا**، فقد صارت المتاحف تستعين بالواقع الافتراضي لتعيد بناء ما هدمه الزمن؛ يقف الزائر أمام أطلال قديمة، ثم يضع الخوذة فإذا به يرى القصور والأسواق والوجوه التي اختفت منذ قرون.

هكذا يقف الواقع الافتراضي اليوم، ليس كاختراع عابر، بل كبرق يلمع في الأفق، يوحي أن حدود الحقيقة نفسها قابلة لإعادة الصياغة. وما نحن إلا في بداية الرحلة.

ثانيًا ، تطبيقات الواقع الافتراضي ..

الواقع الافتراضي لم يعد اليوم محض أداة تقنية، بل صار بوابةً خفية يخرج منها الإنسان إلى عوالم جديدة، كأنه يعيد خلق نفسه في كل مرة يضع فيها الخوذة ويستسلم لتيار الضوء والصوت. إنه ليس بديلاً عن الواقع فحسب، بل إعادة تفسير له، كأن الوجود نفسه لم يعد يكتفي بوجه واحد، بل يطلب مرايا لا متناهية تعكس صورًا أخرى للحياة.

في **عوالم الترفيه**، صار الواقع الافتراضي ملاذًا للإنسان الهارب من ضيق يومه. يمكنه أن يجلس في غرفة صغيرة قاتمة، لكنه بمجرد أن يرتدي الخوذة يجد نفسه على شاطئ هاواي عند غروب الشمس، أو في قاعة موسيقى حيث العازفون حوله يعزفون سمفونية حيّة. لم يعد الترفيه مجرد لعبة أو فيلم، بل تجربة غامرة تذيب الحدود بين الحلم واليقظة. سيأتي يوم قد يصبح فيه السفر ترفًا نادرًا، بينما يكتفي معظم الناس برحلات افتراضية دقيقة تجعلهم يشتمّون رائحة البحر ويسمعون ارتطام الأمواج.

كما حوّل الواقع الافتراضي مفهوم **العمل** من نشاطٍ محكوم بالجغرافيا إلى فضاء مفتوح. لم يعد المكتب يعني طاولة وكرسيًا في مبنى زجاجي، بل قد يكون

صالة افتراضية يتقابل فيها الزملاء من قارات شتى، يتبادلون المستندات كما يتبادلون النظرات، وتحيطهم جدران من بيانات حية. في المستقبل، قد تختفي الحدود بين الشركات والدول، لأن كل شيء سيُدار في مدن افتراضية لا يملكها أحد، لكنها تحتوي الجميع.

من أعظم هدايا الواقع الافتراضي أنه جعل من الممكن أن يتدرّب **الطبيب** على إجراء جراحة في قلب نابض مصنوع من الضوء، فيخطئ ويصيب دون أن يُزهق حياة.

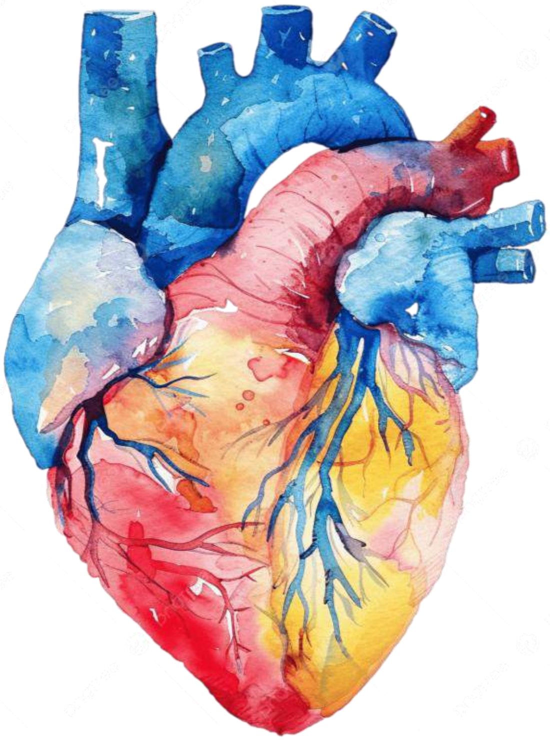

كما أصبح الباحثون قادرين على الدخول داخل جزيء أو خلية، والتجول بين البروتينات كما يتجول السائح في حديقة. إن العلم لم يعد نصًا على الورق، بل رحلة حسية كاملة تُعاش وكأنها واقع بديل. في المستقبل، قد

يخضع المريض نفسه لعلاج نفسي أو تأهيلي في فضاءات افتراضية تشفي الروح والجسد معًا.

الفضاء، الذي كان حلمًا بعيد المنال، أصبح أكثر قربًا بفضل هذه التقنية. يمكن للإنسان أن يعيش تجربة السير على سطح المريخ أو النظر إلى الأرض من المدار، دون أن يغادر كوكبه. لكن ما هو أعمق من ذلك، أن رواد الفضاء أنفسهم سيستعينون بالواقع الافتراضي للتدريب وللتأقلم مع العزلة الكونية، وكأنهم يحملون معهم نسخة ثانية من الأرض أينما ذهبوا. وربما يصبح الواقع الافتراضي هو السبيل الذي يربط المستوطنات البشرية القادمة على المريخ بذكريات الأرض ودفئها.

أما **الفن**، فقد وجد في الواقع الافتراضي جنة لم يكن

يحلم بها. الرسام لم يعد يكتفي بالقماش، بل صار يرسم عوالم كاملة يمكن للزائر أن يسير بداخلها. والموسيقي لا يقدّم لحنًا مسموعًا فقط، بل فضاءً متغيرًا تتحرك فيه الألوان والأشكال وفق الإيقاع. في المستقبل قد تنشأ متاحف افتراضية أعظم من كل ما شيّد بالحجر، حيث يلتقي الفنانون والجمهور في عوالم من الضوء الخالص.

المستقبل الذي ينتظر الواقع الافتراضي ليس مجرد تطويرٍ للتقنية، بل تحوّل فلسفي في معنى "الوجود". سيأتي يوم ربما يعيش فيه الإنسان نصف حياته في واقع بديل، يتزوج فيه، يعمل فيه، يبدع فيه، ويحتفظ بالواقع المادي للضرورات البيولوجية فقط. وربما تنشأ حضارات كاملة داخل هذا الفضاء، حضارات من الضوء والرموز، لا تقل صدقًا عن حضارتنا من اللحم والعظم.

وسيطرح هذا السؤال العميق : **أيهما أصدق ؟ العالم الذي نصنعه من الضوء ونختاره بإرادتنا، أم العالم الذي وُلدنا فيه بلا اختيار؟**

هكذا، يبدو الواقع الافتراضي ليس مجرد تقنية، بل مرآة مصقولة تكشف أعماق الإنسان نفسه، وتدعوه لأن يعيد تعريف **الحرية**، و **المعنى**، و **الوجود**.

ثالثًا ، الأكوان الموازية ..

منذ أن عرف الإنسان **الحلم**، وهو يتساءل : ما هذا العالم الذي يزورني في نومي؟ وهل هو أقل حقيقة من النهار الذي أعيشه ؟ ثم مع مرور القرون، لم يخفت هذا السؤال، بل اتخذ صورًا جديدة؛ فالفلاسفة تحدّثوا عن **عوالم ممكنة** ، والفيزيائيون عن **أكوان موازية** ، بينما مهندسو العصر الرقمي صنعوا بأيديهم **عوالم افتراضية**، كأنهم يقدّمون نسخة بشرية مصغّرة من تلك الفرضيات الكونية.

الواقع الافتراضي هو، في جوهره، دعوة إلى مغادرة حدود العالم الواحد، إلى تذوّق إمكانات لم تتحقق هنا. حين تضع الخوذة على عينيك وتدخل عالمًا مصنوعًا من الضوء، فأنت تعيش تجربة تشبه تمامًا ما تقترحه **نظرية الأكوان الموازية** : أن هناك عالمًا آخر ينتظرك، عالمًا لا يلغيك بل يضيف نسخة ثانية من وجودك. في الافتراضي، أنت تعيش في جسد ليس بجسدك و تمشي

في شوارع لم تُبنَ، وتلتقي بشخصيات لم تولد، وتعيش حياة لم تُكتب لك؛ وفي الموازيات، أنت تعيش مصائر لم تخترها هنا، لكنها تحققت هناك، في صمتٍ كوني بعيد ، فنسختك هناك قد تكون أي احتمال ممكن ..

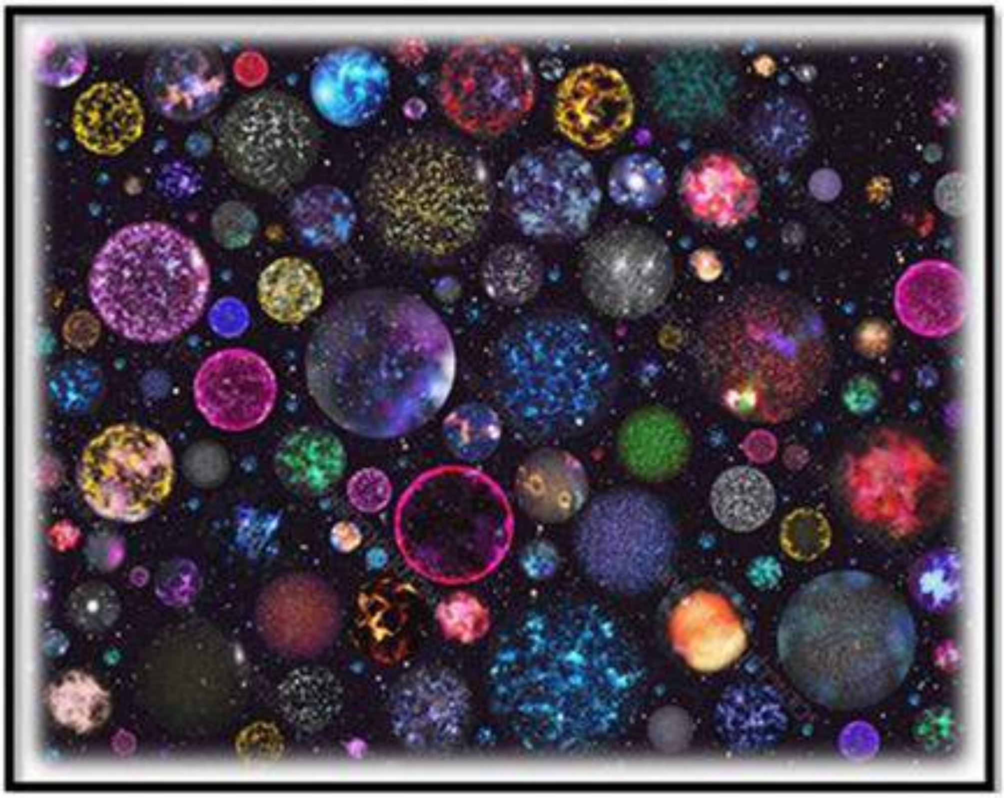

التشابه بين الواقع الافتراضي و الأكوان الموازية ليس سطحيًا فحسب، بل بنيويًّا : كلاهما يوسّع معنى **الواقع** ، نحن نعتقد عادة أن الواقع واحد، ضيق، محدد بخط زمني واحد. لكن حين ندخل عالَمًا افتراضيًا، ندرك فجأة أن بإمكاننا أن نكون أكثر من نسخة، أكثر من مصير. وحين نتأمل فرضية الأكوان الموازية، يتسع هذا الإدراك أكثر: نحن لا نعيش احتمالًا واحدًا، بل احتمالات لانهائية ، كل منها قائم بذاته، ينتظر من يخطو داخله.

إننا أمام انعكاس متبادل : **الأكوان الموازية هي خيال الطبيعة، بينما العوالم الافتراضية هي خيال الإنسان.** هناك، الكون نفسه يجرّب جميع الاحتمالات الممكنة، وهنا، نحن نحاكي ذلك ببرمجيات وخوارزميات تمنحنا القدرة على صناعة مصائر بديلة. وما بين الاثنين، نجد أنفسنا في منطقة وسطى، حيث يغدو الوجود لعبة من المرايا في كل منها صورة مختلفة لنا و واقع لا يشبه الآخر ..

ربما لهذا يشعر الإنسان داخل الواقع الافتراضي بشيء من الرهبة الوجودية ، حين يتحرك في عالَم رقمي كأنه حقيقي، يتساءل في سرّه : (وما أدراني أن عالمي هذا،

بكل ثقله وصلابته، ليس هو الآخر عالماً افتراضيًا في عين كبرى لا أراها ؟) ..

وبينما يستمر العلماء في البحث عن بصمات الأكوان الموازية في أفق الكون، يستمر المبرمجون في تشييد عوالم افتراضية تحاكيها؛ وكأن الإنسان، في سعيه الدائم، يترجم أحلامه و خيالاته بنفسه إلى عالم آخر، ويحوّل فرضياته الكبرى إلى تجارب قابلة للعيش.

هكذا يلتقي العلم بالحلم، والتقنية بالميتافيزيقا، في معزوفة واحدة عنوانها : **لا وجود لواقع واحد**.

******

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**واقع افتراضي**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= الواقع الافتراضي تجربة محدودة الأفق و واضحة النهايات من البداية ..

بل أن نقول :

= إن الواقع الافتراضي تجربة بلا حدود .. و مستقبلها القادم بعد عقود لن يقل عن إمكانية عيش أي تجربة يريدها الإنسان ، بأي جسد ، و في أي بيئة .. فقط عليه أن يختار شفهياً البيانات المطلوبة .. و عندها سينقله الواقع الافتراضي إلى دنيا مذهلة فيها من روائح الجنة

الشيء الكثير ..

قبل الانتهاء اسمح لي عزيزي القارئ أن أقدم لك نصيحة صغيرة من القلب :

(احتفظ بصور و فيديوهات و أصوات لك و لكل من تحب ليس فقط في قلبك ، بل على أجهزتك الرقمية .. لأنه سيأتي يوم قريب و يسمح لك الواقع الافتراضي من لقائهم جميعا في حال كان الموت قد غيبهم .. كما ستسمح لأبنائك و أحفادك أن يلتقوك شخصياً حتى بعد عقود من وفاتك ..)

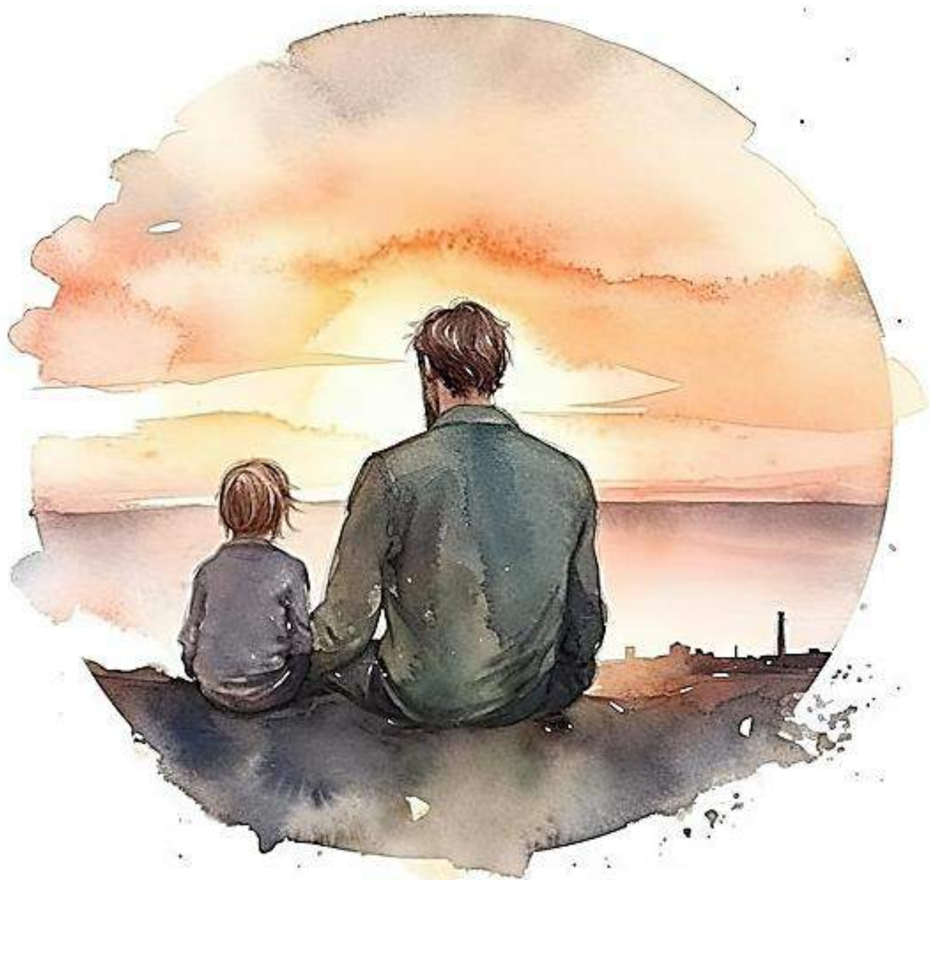

الكوكب المضجر

(ما خفي كان أعظم)

قصة من الشمال :

في إحدى ليالي القرن العشرين ، و في قلب شتاء بحر الشمال، حيث تتلاقى الرياح مع الغيم والليل ينسج حجاباً كثيفاً على الموج، كانت سفينة الصيد الإسبانية أوسيتا تتمايل برفق على صداع البحر، كأنها قطعة خشبية تائهة في بحرٍ لا يعرف الرحمة. الطاقم، رجال البحر الذين ألفوا صوت الأمواج وزئير الرياح، لم يكن لديهم أدنى استعداد للحدث الذي سيخلخل إدراكهم للكون والواقع.

ففجأة، من بين موجات الظلام ورذاذ المطر، ظهر **جسم بيضوي** ضخم يطفو على سطح الماء، جسم لا يمكن تصنيفه، ولا إدراكه بسهولة. كان يلمع بضوء **أزرق أخضر غريب**، وكأنه قطعة من السماء سقطت على الأرض لتذكر البشر بأن العالم أكبر بكثير مما يظنون. ارتفع الجسم ببطء، متجاوزاً حدود الفهم، وكأن البحر نفسه أقر بأن شيئاً خارجاً عن الطبيعة قد اخترق نسيج الواقع.

كل أعضاء الطاقم - رغم خبراتهم الطويلة - شعروا

بقشعريرة تجري في عروقهم، كما لو أن البحر والسماء والكون كله قد اجتمع ليهمس لهم سرّاً لم يجرؤ أحد على سماعه من قبل. **أجهزة الرادار على السفن الأخرى أكدت وجود الجسم**، وسجلت حركته الغريبة **بسرعة لا يمكن للعقل البشري أن يحسبها، حركة تتحدى قوانين الفيزياء**، وكأنها رسالة من حضارة أخرى ، من فضائيين، لا علاقة لها بالزمن الذي نعرفه.

الأمواج التي اندفعت بعنف نحو السفينة في تلك اللحظة لم تكن مجرد ردة فعل طبيعية، بل كان تأثير القوة الغريبة للجسم نفسه على ماء البحر..

وعندما اختفى الجسم فجأة، ترك وراءه صمتاً أكثر غرابة من أي ضجيج، صمتاً يملأ القلب بالدهشة والاحتمالات، وكأن البحر والسماء معا ينظران إلى البشر ويقولان لهم : (لا تعرفون بعد ما الذي يسكن الكون).

لم يكن ما حدث مجرد رؤية أو ضوء عابر، بل تجربة عميقة، وكأن الحياة كلها توقفت للحظة قصيرة، لتتسنى للإنسان أن يشعر بمدى صغر وجوده أمام الأبدية.

وهكذا بقيت حادثة أوسيتا، مع رذاذ البحر البارد وأمواج بحر الشمال الهائجة، قصة عن المجهول، عن الكون الذي لا يكف عن مفاجأة البشر بأسراره، وعن لحظة

تجلت فيها الرهبة والحيرة في قلوب من شاهدوا بأعينهم أن هناك ما وراء إدراكهم، ما يتجاوز العلم والمنطق، ما يذكّرنا أن الإنسان، مهما بلغ من معرفة، ما زال ضيفاً صغيراً على مسرح الكون اللامحدود.

قصة من الجنوب :

لنتجه إلى جنوب الكوكب ، ففي قلب ليلة هادئة من ليالي **البرازيل**، حيث يلتقي صمت الريف مع نجوم السماء البعيدة، كان الشاب **أنطونيو فيلاس بواس** يحرث أرض مزرعته تحت ضوء القمر الخافت. لم يكن يعلم أن تلك الليلة ستنقلب إلى تجربة تتجاوز حدود الخيال والواقع، وأن السماء، التي اعتاد النظر إليها كمرآة للسكينة والطمأنينة، ستفتح له أبوابها على المجهول.

فجأة، ظهر في الأفق ضوء أحمر متوهج، بدأ يتقدم ببطء، لكنه سرعان ما اتسع ليكشف عن جسم معدني ضخم على شكل **بيضة**، يلمع بوهج غريب، وكأن قلب الكون قد وضعه هناك ليُذكّر الإنسان بضآلة وجوده أمام الأبدية. ارتعدت الأرض تحت أقدامه، وتوقف قلبه للحظة، بينما كان الضوء يقترب، ويكشف عن كائنات قصيرة القامة، بملامح رمادية، عيون كبيرة وثاقبة، وأذرع رقيقة لكنها قوية، تتحرك برشاقة لا تشبه أي

حركة أرضية عرفها البشر.

اقتادوه إلى داخل المركبة، حيث دخل أنطونيو إلى عالم آخر؛ عالم تتماهى فيه الميكانيكا مع الحياة، والجسد مع الفضاء. كانت الكائنات تجري عليه فحوصات غريبة، وأجهزة لا يعرف البشر حتى كيف تعمل، تسحب من جسده شيئًا من جوهره، وتترك أثرًا من الدهشة والخوف في قلبه. ثم ظهرت له كائنات أنثوية، شبيهة بالبشر لكن بعينين يلمعان بذكاء غامض، وأشاروا إلى بطنهم ثم إلى السماء، كما لو كانوا يخبّرونه عن سرٍ كوني، عن وجود حياة مختلفة، عن مستقبل بعيد بعيد عن الأرض.

بعد أن أعيد إلى الأرض، لم يعد أنطونيو كما كان. جسده حمل حروقًا غريبة وآثار إشعاع غير معروف

من قبل البشر بعد ، وروحه احتفظت برهبة الليل وتوهج الضوء الأحمر. الأرض التي هبط فيها الجسم احتفظت بأثر غامض لا يزول و لم تنبت نباتات عليه من بعدها، وكأن الطبيعة نفسها تذكّر كل من يمر بالقرب منها بأن هناك عوالم تتقاطع مع عالمنا، لكنها مخفية عن أعيننا.

ما يجعل هذه القصة ساحرة ومذهلة ليس فقط رؤيته للجسم والكائنات، بل الشعور العميق بالمجهول، بالكون الذي يمتد بلا نهاية، وبالوجود البشري الهش وسط هذه الغرابة الكونية. إنها تجربة تلامس روح الإنسان، وتعيد له إدراكه بأن الكون ليس مجرد مكان، بل رسالة مستمرة من أسرار لا تنتهي، رسالة تقول : (أنتم جزء صغير من كل، لكن هناك من يراقب، من يدرس، ومن يترك لكم لمحة عن عوالم أبعد) ..

****

لا أشك للحظة أن القصتين السابقتين أثارتا حماسك و فضولك عزيزي القارئ بسبب غرابتهما و خطورتهما ، بعد أن اعتدت على الأخبار اليومية المعتادة حول العالم .. زلزال هنا ، حرب هناك ، وباء آخر ، اتفقايات دولية جديدة بشكل معاد و متكرر يثير الضجر بلا ريب .. و إن بلغت الإثارة ذروتها سمعت أن أنثى باندا أنجبت

توأم لطيف في إحدى حدائق الحيوان ، حتى تشكل عند الناس قناعة حقيقية بأن كوكب الأرض كوكب ممل يدور في حلقة مفرغة من الأحداث المتشابهة ، فلا الطبيعة تتغير ، و لا الأحداث تتجدد ، نفس الجوهر بأسماء مختلفة و مناطق مغايرة و أشخاص جدد .. فهل هذه القناعة منطقية و مبررة ؟

من سوء الحظ و حسنه في آن ، أن هذه القناعة الشمولية واحدة من أكبر المغالطات المنتشرة على كوكب الأرض .. فكوكبنا في الواقع مرتع لإثارة حقيقية منتشرة في أصقاعه ، لكن و كما هو حال الأحجار الكريمة ، نادرة للغاية بين عدد هائل من الحصى ، كذلك الأماكن أو الأحداث أو الظواهر أو الاكتشافات الغامضة و المثيرة موزعة بشكل اقل على بلدان العالم ، ليبحث عنها و يجدها كل عاشق للإثارة و الغموض ، تماماً **كحادثتي بحر الشمال و مزرعة البرازيل** السابقتين اللتين يكتنفهما الغموض و الخطورة ، و مهمتي في هذه المغالطة عزيزي القارئ أن اثبت لك أن كوكب الأرض أكثر حماساً مما تعتقد بأن أجمع لك كوكبة من أكثر الأمور غموضاً و إثارة عليه فأضعها بين يدك بمنتهى السهولة لتتعرف عليها و تستمتع بها .

فهيا بنا في هذه المغامرة الشيقة ..

أولاً ، **ظواهر غامضة** :

❁ **حادثة بلدة أورانج في فرنسا** (**1951**) :

في إحدى القرى **الفرنسية** الصغيرة، استيقظ الناس ذات صباح على فوضى عارمة. بعضهم أخذ يصرخ بأنه يرى وحوشًا تطارده، وآخرون ألقوا بأنفسهم من النوافذ هربًا من كوابيس وهمية. خلال أيام قليلة، توفي خمسة أشخاص وأصيب المئات بالجنون المؤقت. التفسير الرسمي كان أن خبزهم تلوث بفطر مهلوس، لكن هناك من يعتقد أنها كانت تجربة سرية أجريت على السكان. و آخرون عزوا الظاهرة إلى الجن و الأرواح و البعض الآخر عزاها بالطبع لتأثير كائنات فضائية !!

❁ **السفينة الشبح ماري سيليست** (**1872**) :

عُثر على السفينة وهي تطفو في **المحيط الأطلسي**،

أشرعتها سليمة ومؤنها محفوظة. الطعام ما زال على الطاولة، والدفاتر البحرية في مكانها، لكن الطاقم بأكمله اختفى. لم يجد البحارة الذين عثروا عليها أي علامات عنف أو قتال، وكأن الرجال تبخروا فجأة. النظريات تعددت: تمرد، قرصنة، عاصفة بحرية، جن ، أرواح أو حتى اختطاف غامض . لكن لا أحد استطاع أن يفسر سر اختفاء الطاقم حتى اليوم !!

❂ حادثة الرجل الحديدي في بامبرغ :

في القرن **17**، كتب سكان بلدة **ألمانية** صغيرة شهاداتهم عن ظهور جسم ضخم يشبه إنسانًا معدنيًا في السماء. قالوا إنه مشى فوق الغيوم ببطء قبل أن يختفي بلا أثر. هذه الرواية حُفظت في وثائق رسمية للمدينة،

ما جعلها لغزًا تاريخيًا لا يمكن تجاهله. بعض المؤرخين يعتبرونها هلوسة جماعية أو تفسيرًا دينيًا للظواهر الجوية. ومع ذلك، تبقى القصة واحدة من أغرب ما وثقته أوروبا في ذلك العصر.!!

۞ **لغز أطفال غرينغهام الخضر** :

في **العصور الوسطى** **بإنجلترا**، ظهر طفلان مجهولان بملابس غريبة ولون بشرتهما أخضر. كانا يتحدثان بلغة غير مفهومة ويرفضان الطعام العادي، حتى وُجد أنهما يقبلان أكل الفاصوليا فقط. بعد فترة قصيرة، مات الولد بينما عاشت الفتاة وتعلمت الإنجليزية، لكنها قالت إنها جاءت من (**أرض بلا شمس تحت الأرض**) .. لم يفهم

أحد ما قصدت، وبقي أصل الطفلين سرًا لم يحل.

ثانيًا ، أماكن مدهشة :

❁ **حديقة لينسو مارانانسيس – البرازيل :**

في قلب ولاية **مارانانسا الشمالية**، تمتد هضاب **لينسو** كبحر من الرمل الأبيض الذي يلمع تحت الشمس كصفائح ذهبية، تتخلله بحيرات فيروزية تكاد تعكس السماء، كل خطوة هنا كرقصة بين الواقع والحلم. مياهها العذبة تتجمع بعد موسم الأمطار لتشكل لوحات طبيعية مذهلة، حيث يختلط صخب الريح بهدوء الصمت البعيد. التجربة هناك أشبه باقتحام لوحة

سريالية و السير بين ألوانها و أشكالها الغريبة ..

❀ **باموكالي – قلعة القطن – تركيا :**

تتساقط المياه الحرارية على التراسات البيضاء لباموكالي كأنها **شلالات من الحليب** في مظهر يفوق الوصف حرفياً ، وتنساب بين الصخور كالحرير، لتخلق مناظر تخطف الأبصار.

على هذه الهضاب، تقف أطلال **مدينة هيرابوليس الرومانية** كهمسات التاريخ، تروي قصص الأباطرة والحجاج. كل زاوية هنا تجمع بين حرارة الطبيعة وبرودة الحجر، بين الجمال الدائم والزمن المتغير، فتشعر وكأنك تمشي في حلم تركي قديم.

❁ جبال ميتيورا – اليونان :

في شمال اليونان، ترتفع صخور ميتيورا العملاقة كأبراج سماوية، تتوجها أديرة معلقة تتحدى الجاذبية والزمن. بين السحب، يتحرك الضوء كراقص لطيف، فيحول الحجر إلى لوحة ملونة بالذهول والسكينة يعجز اللسان عن مدحها كفاية .

المكان هنا أكثر من مجرد جبال؛ إنه رحلة إلى التأمل الروحي، حيث يتعلم الإنسان أن الصمت يمكن أن يكون

أقوى من كل الكلمات. كل صخرة تحمل تاريخاً وروحاً، وكل مدخل إلى الدير بوابة إلى الألوهية.

❁ مون سان ميشيل – فرنسا :

في **خليج نورماندي**، يرتفع مون سان ميشيل كحصن من الأحلام الحجرية فوق مياه المد والجزر، يتغير مظهره مع كل حركة للموج والريح. الأسوار والأبراج القديمة تروي حكايات **القرون الوسطى**، بينما تضيف الأمواج موسيقى طبيعية لعظمة المكان.

هنا، التاريخ والدين والطبيعة تتشابك، فتشعر وكأنك تسير على حافة الزمن، بين الواقع والخيال، وتدرك

كيف يمكن للإنسان أن ينسج أبداناً من الحجر ليتحدى البحر والسماء في آن واحد.

❁ **بحيرة ناترون – تنزانيا :**

في قلب تنزانيا، تقبع بحيرة ناترون كمرآة حمراء وملتهبة، مياهها القلوية تحافظ على شكل كل كائن يلامسها كأنها تحنطه، فتتحول الطيور والأسماك إلى تماثيل صامتة من الزمن. يبدو المشهد وكأن الأرض نفسها أرادت أن تحفظ ذكريات الموت والجمال معاً، والهواء المحمل برائحة الملح والغموض. كل موجة صغيرة تهمس بالحكايات، وتذكرك بأن الطبيعة أحياناً تختار لغة صمت لا يفهمها إلا العاشق لها.

ثالثاً ، **أغربا عادات التزاوج في مملكة الطبيعة** :

❁ **عند النباتات** :

الزهور السحلبية نباتات تعيش حول البحر المتوسط. هذه الزهور تصوغ شكل بتلاتها ولونها بطريقة تجعلها **تُشبه إناث النحل أو الذباب**، بل وتُطلق رائحة **تشبه رائحة الأنثى التي يبحث عنها الذكر**. فيأتي الذكر محاولًا التزاوج معها، فيلتصق به غبار الطلع دون أن يدري، ويحمله إلى زهرة أخرى. هنا لا تعطيه الزهرة أي طعام أو رحيق، بل تستغل رغبته الطبيعية وتخدعه.

وهناك زهور أخرى مثل **زهرة الجيفة أو زهرة الجثة العملاقة** ، التي تفوح منها رائحة تشبه رائحة اللحم المتعفن أو الروث. هذه الروائح الكريهة لا تثير اشمئزاز الذباب، بل تجذبه لأنه يظن أنه وجد مكانًا مناسبًا ليضع بيضه فيه. يدخل الذباب متحمسًا ليكتشف لاحقًا أنه لا يوجد شيء مما يبحث عنه، لكن في هذه اللحظة يكون جسده قد تلوث بحبوب الطلع لينقلها إلى زهرة أخرى.

وبعض النباتات أكثر مكرًا، فهي لا تكتفي بخداع الحشرة، بل تحتجزها أيضًا. مثل **أزهار اللوف** التي تُكوّن ممرًا ضيقًا ومغطى بزغب يمنع الحشرة من الخروج. تدخل الحشرة مدفوعة بالرائحة، ثم تُغلق عليها

الزهرة لوقت قصير حتى تتأكد أن جسدها قد امتلأ بالطلع، وبعدها فقط تسمح لها بالهرب، لتذهب وتنشر الحبوب في مكان آخر.

وهناك نباتات لا تُقدم الرحيق السائل المعتاد، بل تصنع زيتًا خاصًا تجذب به أنواعًا معينة من النحل الذي يستخدم الزيت لبناء أعشاشه. وهكذا تضمن أن يزور هذه الزهور نحل متخصص لا يذهب إلى غيرها، فيكون التلقيح مضمونًا ومباشرًا.

بل إن بعض النباتات تشترط على الزائر أن يُصدر كلمة سر قبل أن تمنحه غبار الطلع !! **نباتات مثل الطماطم** لا تُفرج عن حبوبها إلا إذا وقفت عليها نحلة وأخذت تهتز بجناحيها بسرعة معينة ، فتطلق اهتزازًا يشبه الطنين القوي. عندها فقط تنفتح أكياس الطلع لتتطاير منها الحبوب وتعلق بجسم النحلة.

أما أروع الأمثلة فهو ما نراه في **شجرة التين** التي تعيش قصة حب أزلية مع **دبور التين**. لا يستطيع التين أن يُثمر إلا إذا دخلت هذه الدبابير الصغيرة إلى جوفه وألقت فيه غبار الطلع. وفي الوقت نفسه لا يستطيع الدبور أن يُكمل دورة حياته إلا داخل ثمرة التين. لقد أصبح مصير الاثنين مرتبطًا ببعضهما ارتباطًا لا

ينفصم، كأنهما كُتبا في كتاب واحد.

وهكذا نكتشف أن النباتات ليست كائنات ساذجة كما يظن البعض، بل هي عقول صامتة أوجدت طرقًا ماكرة تجعل الآخرين ينوبون عنها في العمل الشاق. مرة تخدع، ومرة تحتجز، ومرة تُغري، وأحيانًا تُكافئ. وفي النهاية تنجح دائمًا في نشر نسلها في الأرض، لتثبت أن الذكاء لا يسكن الدماغ وحده، بل قد يتجلى في زهرة هادئة تضحك في صمت على من يقع في شراكها.

❁ **عند الحيوانات** :

حصان البحر يدهشنا بعكس الأدوار في الحب و التكاثر. هنا الذكر هو الذي يحمل الأجنة، وليس الأنثى. بعد طقس رقصٍ مائيّ دقيق، تضع الأنثى بيوضها في جيب خاص على بطن الذكر، فيخصبها هو ويظل محتضنًا لها حتى تفقس. يخرج الصغار من بطنه كما لو

كان أمًّا حقيقية. هذه الغرابة جعلت حصان البحر رمزًا للعاطفة والتضحية في مملكة الحيوان.

أما الضفدع الذهبي في **كوستاريكا** فيستخدم إستراتيجية العناد. يقف الذكر فوق ظهر الأنثى في وضعية تُسمى **الاحتضان** ، وقد يظل هكذا أيامًا طويلة حتى تتأكد البيوض من التخصيب. في هذه الفترة لا يأكل ولا يتحرك كثيرًا، فقط يبقى صابرًا فوقها، كأنه حارس أمين يرفض أن يترك للحظة حتى تضمن ذريته النجاح.

وفي أعماق الرمال، نجد **دودة البزاق البحرية الزرقاء**، وهي خنثى تملك أعضاء ذكورية وأنثوية معًا. وعندما تلتقي بواحدة مثلها، تتبارزان بأعضاء تشبه السيوف، وكل واحدة تحاول أن تخصب الأخرى أولًا. في النهاية قد تحمل الاثنتان معًا،ويخرجان من المعركة كأبوين وأمهات في آن واحد و **ما أشبه هذا بصراع الشرق و الغرب على كوكب الأرض** ..!!

وفي أعماق الطين يعيش **دود القرون المخملية**، وهو كائن غريب يملك أنابيب طويلة على جانبيه. حين يريد التزاوج، لا يقترب مباشرة من شريكته، بل يطلق سائلًا مليئًا بالحيوانات المنوية في الهواء الرطب. تصل هذه السحابة إلى الأنثى فتلتقطها بأعضائها الخاصة. هنا لا لقاء مباشر، بل رسالة سائلة تُرسل عبر الريح كأنها بريد غير مرئي.

أما في عالم أعجب، نجد **الديدان السهمية البحرية**، وهي مخلوقات تكاد لا تُرى بالعين المجردة. عند التزاوج، لا يتقابل الذكر والأنثى، بل يطلق كل منهما **كبسولات دقيقة** في الماء، تتحرك وحدها حتى تجد شريكها. كأن الكون كله وسيط في لقائهما، وكأن القدر نفسه يتكفل بأن يصل أحدهما إلى الآخر..

أما **حشرات الماء العملاقة**، فلها قصة أغرب. فالأنثى لا تضع بيضها على الأرض، بل تلصقه على ظهر الذكر! يضطر الذكر بعدها أن يحمل البيوض على جسده، يسبح بها ويهتم بتهويتها حتى تفقس. هو أب وأم في الوقت نفسه، مُجبَر على حمل ذريته أينما ذهب، كأنه حقيبة حياة ملتصقة بجسده..

وفي قلب المحيط، تعيش **قناديل البحر الخالدة** التي تحمل مفاجأة خارقة : إذا تعبت أو شاخت بعد التكاثر، تستطيع أن **تعود إلى مرحلة الطفولة من جديد**، لتبدأ دورة حياتها من الصفر. وكأنها **لا تموت حقًا، بل تعود إلى الوراء في رحلة لا نهاية لها**. التكاثر عندها ليس فقط لاستمرار النوع، بل لاستمرار الفرد نفسه إلى ما لا نهاية .. إنه تجسيد لفكرة الإله الخالد على الأرض ..

******

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**الكوكب المضجر**) ، من الأنسب بعد الآن ألا نقول :

= كوكب الأرض ممل للغاية ، فالأحداث الطبيعية و البشرية فيه معروفة و تتكرر باستمرار ..

بل أن نقول :

= كوكب الأرض يعجّ بالظواهر و الأحداث و الأماكن الغريبة و الغامضة و المثيرة ، لكن علينا أن ننقب عنها بأنفسنا في مغامرة شيقة تحبس الأنفاس ، بل إن أجمل ما في كوكبنا العزيز أنه يتحفنا بمزيد من الإثارة مع كل يوم جديد..

في صفحات التاريخ أسماء كثيرة لرحالة دفعهم حب المغامرة و البحث عن الإثارة للتجوال بين قارات العالم و التعرف على كل ما هو جديد و مثير و غامض قاطعين آلاف الكيلومترات في سعيهم هذا ، **كابن بطوطة** و **ماركو بولو** و غيرهم .. أما أنت عزيزي القارئ فلن تصدق كم أنت محظوظ .. فبوجود الأجهزة الذكية و الانترنت ، يمكنك زيارة كل العالم و التعرف على كل ما هو غريب و غامض و أنت جالس في مكانك تحتسي فنجان شاي .. لذا لا تفرط بهذه النعمة العظيمة و استثمرها .. علّ هذه المغالطة تكون بمثابة فتيل إشعال لقنبلة البحث و الاكتشاف لديك .. فما

خفي من عجائب كوكب الأرض أعظم بكثير مما ذكرناه !!

مغالطة فلسفية

(انتقام لوسيفر)

إفريقيا / رواندا

كيغالي ..

2077 م ..

في عمق الليل الإفريقي، حين تعوي الريح في غابةٍ يلفّها الغموض وتتعالى الطبول مثل قلبٍ هائجٍ يخفق في العتمة، يجلس العجوز قرب النار ويروي : *الروح في ديانة الفودو ليست سرًّا واحدًا، بل أبواب كثيرة.* يحدّثهم أن الروح ليست مجرد ظلٍّ يغادر الجسد بعد الموت، بل كيان متشعّب : روحٌ تحرّك الجسد، وأخرى تعيش بين الأسلاف، وثالثة تسافر في الأحلام، تبحث عن أسرار الغيب.

وحين تبدأ الرقصة، ترى الوجوه وقد انمحى عنها الزمن. الأجساد ترتجف، العيون تغيم، والطبول تزداد إلحاحًا. يقولون إن الروح آنذاك تنفتح، لتسمح للإله أو للجدّ أن يسكنها. في تلك اللحظة يصبح الإنسان جسرًا بين الأرض والسماء، بين الطين والبرق، بين الأجداد و الأحفاد ، كأن جسده مجرّد إناء لفيضٍ أزلي.

لكن الروح ليست ملكًا للفرد وحده؛ إنها عهد مع الجماعة. الأجداد لا يغادرون تمامًا، بل يظلون حاضرِين في كل خطوة، يباركون، يوبّخون، ويذكّرون.

الروح هي ذاكرة القبيلة، دمٌ خفيّ يربط الأحياء بالأموات، ويعيد صياغة معنى الانتماء. لهذا، إذا انقطع الإنسان عن أهله أو خان العهد، انكسرت روحه واحتاجت إلى طقس يعيد لها توازنها : قربان، صلاة، أو رقصة تُعيد ترتيب النغم في داخله.

وحين تخفت الطبول أخيرًا ويبتلع الصمت الغابة، يبقى في الهواء

إحساسٌ غريب : كأن الأرواح ما زالت تراقب، وكأن كل نفسٍ يتردّد في صدور الحاضرين ليس ملكهم تمامًا، بل عطية من شبكةٍ غير مرئية تحتضنهم. عندها يدرك السامع أن الروح، في نظر الفودو، ليست ما نحمله نحن، بل ما يحملنا نحن جميعًا، في رحلةٍ أبدية لا يعرف لها أحد نهاية.

****

كانت الشمس تغيب ببطء خلف التلال الخضراء التي تزيّن سهول رواندا كقلادة من زمرد، فيما انحدر المساء على القرية الصغيرة ليكسوها بملمسٍ من الغموض. في تلك الأجواء، اعتاد ثلاثة أصدقاء أن يجتمعوا عشية كل عطلة نهاية أسبوع : **موغيشا**، طالب جامعي يفيض عشقًا لقارته الأم، يرى في إفريقيا أمًّا كبرى وحضنًا دافئاً لا يحق لأبنائها أن يخونوه. ثقافته غير دينية فهو لا

يؤمن بالغيبيات على الإطلاق بل كانت أشبه بدرعٍ من نار؛ كلما تحدّث عن ممالك إفريقيا القديمة أو عن موسيقاها وأبطالها، تتوهّج عيناه كجمرٍ تحت الرماد.

إلى جواره يسير **كويزيرا**، الموظف الرزين في شركة اتصالات. رجلٌ يزن كلماته بميزانٍ داخلي غريب، كأن كل عبارة تمرّ على قاضٍ عادل قبل أن تُنطق. كان أصدقاؤه يصفونه بالحكيم، إذ عرف كيف يوازن بين العمل والأسرة، بين الحياة العملية والروحانية التي ورثها من أسلافه .. و كان متيماً بالكتب و الثقافة ..

أما الثالث، **روتا بينغوا**، فكان عالمًا آخر. شاب ترك المدرسة منذ سنوات، ليس لأنه عاجز عن الدراسة، بل لأنه لم يجد نفسه في كتب الرياضيات والتاريخ. كان يراها ضيقة على خياله المتسع في فضاءات الأرواح والجن والأشباح. حدث أن اجتمع به طبيب ذات يوم فلفتت أفكاره الغريبة انتباهه، أخبر عائلته أن روتا ربما كان مصاباً **باضطراب الشخصية الفصامانية** العاشقة للماورائيات و الأفكار الجامحة و الخيالية، لكن روتا نفسه لم يُدرك ذلك، بل كان مقتنعًا أنّ عقله نافذةٌ على عوالم خفية. ومع مرور الوقت لم يبق له بسبب أفكاره الغريبة سوى صديقي الطفولة، موغيشا وكويزيرا، اللذين فهما ضعفه واحتضناه بمحبةٍ لا تخلو من الحذر عندما انفض الجميع من حوله ..

في عطلة نهاية أسبوع دافئة، شدّ موغيشا وكويزيرا الرحال إلى كوخ روتا بينغوا الخشبي المعزول عند أطراف القرية. كان الكوخ محاطًا بأشجارٍ كثيفة، كأنها تحرسه من أعين الغرباء.

طرقا الباب، فسمعا صوت صديقهما من الداخل يضحك ضحكة غريبة :

= لقد جئتما في الوقت المناسب ! عندي الليلة سرّ عظيم.

دخلا الكوخ ذو التصميم العجيب من الداخل و المتخم بأشياء مصنوعة يدوياً و مجسمات لكل ما هو غريب و غامض في الكون ، كان بينغوا جالسًا على حصيرٍ قديم،

وأمامه لوح غريب مرسوم عليه حروف وأرقام، تتوسطه قطعة خشبية صغيرة على شكل سهم. عيونه كانت مشتعلة بنشوة مكتشِف وطأ قارة جديدة. قال :

= مفاجأة مدوية لكما اليوم .. تعالا و تعرفا على **لوح الويجا** مستحضر الجنّ و الأرواح ! اكتشفت أمره في هاتفي الليلة ، فصنعت واحداً بنفسي ، سنخاطب الأرواح، وسنرى إن كان الجن يجرؤون على الظهور لنا.

جلس موغيشا بثقلٍ ظاهر، واضعًا يده على جبينه :

= روتا، ألا يكفيك ما أنت فيه؟ إفريقيا يا صديقي مليئة بأرواح الأسلاف والطقوس العريقة المزعومة ، لماذا نبحث عن ألعاب اخترعها غرباء عن القارة ؟

ابتسم روتا بينغوا ابتسامة فيها كثير من السايكوباثية :

= ومن قال إنها لعبة؟ هذا بوّابة .. البوّابات لا تُفرّق بين الشرق والغرب، إنها تفتح فقط لمن يجرؤ على العبور.

أما كويزيرا فجلس قربهما بهدوءٍ عميق، كمن يراقب مسرحية لم تُكتب نهايتها بعد. نظر في اللوح مطولًا، ثم قال :

= وفقا لمعلوماتي ، فلوح الويجا ليس إفريقي الأصل،

بل وُلد في الغرب في القرن التاسع عشر، في الولايات المتحدة على وجه التحديد . اخترعه رجال أعمال أثناء موجة الاهتمام بالروحانيات والتواصل مع الموتى.
كانوا يبحثون عن وسيلة عملية، فصنعوا لوحًا تُكتب عليه الحروف والأرقام كلها ، ومعها كلمتا (نعم) و(لا).
يجلس المشاركون حوله، ويضعون أصابعهم على قطعة خشبية صغيرة تُسمّى **المؤشّر** . يقوم المجربون بسؤال أولي عادة : ***هل هنالك أحد آخر معنا في الغرفة ؟*** ،
فيبدأ المؤشّر يتحرك – بوعيٍ أو بلا وعي – و يتنقل بين الأحرف و الأرقام لتكوين كلمات ورسائل يُعتقد أنها صادرة عن الأرواح أو الجن ..

رفع موغيشا حاجبيه، وقال بلهجة ساخرة :

= إذن الأمر لا يعدو كونه تجارة؟

ردّ كويزيرا بابتسامته الهادئة :

= ربما .. لكنه مع ذلك أثار أسئلة عميقة عند البشر : هل يمكن للأحياء أن يخاطبوا الموتى؟ وهل ما نسمعه عبر اللوح هو صوت اللاوعي الجماعي أم صدى لعالمٍ آخر فعلاً؟ ، و الأهم من ذلك ، فقد ادعى الآلاف حول العالم أن تجربتهم للوح نجحت و تواصلوا مع جن و أرواح ، و لا ندري ربما صنع اللوح لغاية تجارية لكنه بالنهاية منح الماورائيات فرصة و إمكانية كي تعبر عن نفسها !!

كان روتا بينغوا يصغي بكل جوارحه لحوار الصديقين، عيناه تتوهجان كما لو أن الكلمات وقودٌ جديد لأفكاره :

= إذن، الليلة سنعرف .. إن كان لاوعينا أم الأرواح هو من سيتحدث ، فاللوح سيجيب على أسئلتنا ..

جلس الثلاثة حول اللوح، تداخلت أنفاسهم المترقبة بتوتر مع صوت صراصير الليل و وشوشة الريح في الخارج .. وضعوا أصابعهم على المؤشّر، وفي تلك اللحظة شعر موغيشا بوخزة خوفٍ تسري في قلبه، بينما ظل كويزيرا متماسكًا، أما روتا بينغوا فكان وجهه يشرق بانتظار لحظة الكشف.

وهكذا، بين العقل المتزن المحايد والحلم الجامح بالغيبيات والعاطفة الإفريقية المتأججة بالإنكار، بدأ

أصدقاء الطفولة رحلتهم نحو الماورائيات، كأنهم يعيدون اكتشاف معنى الروح في قرية صغيرة تحت سماءٍ ملبّدة بالأسرار.. وضعوا أصابعهم على المؤشّر كما أوصت التعليمات، وتبادلوا نظرات مرتعشة. ، ثم نطق روتا

بينغوا :

= إن كان هنالك أحد من الجن أو الأرواح معنا في الغرفة فليجب عبر هذا اللوح ..

لحظة الانتظار بدت أطول من العمر ثم بدأ المؤشّر فجأةً يتحرك، ببطء أولاً، ثم بثباتٍ كمن يعرف وجهته.

ارتجف موغيشا :

= هل... هل أنتم من يدفعه؟

هزّ كويزيرا رأسه نافياً، وعيناه لا تفارقان المؤشّر الذي بدأ يتهجّى كلمات : **أنا روح، لست جنيًا.**

ساد الصمت، حتى كاد يُسمع خفقان القلوب. ثم عادت المؤشّر

يتحرك : **اسمي أريان. طبيب من كالكوتا. متُّ أمس في حادث سير. دفنوني في قريتي قرب شجرة الأراك**

العزيزة على قلبي منذ طفولتي . لكنني لم أمت .. قلبي ينبض بشكل ضعيف و غير مقاس ... أنقذوني ... أخبروا عائلتي ...

انقطع نفس الأصدقاء كأن سكينًا حادًا فصل بينهم وبين يقينهم القديم. الروح واصلت : **يجب أن تصلوا إليهم سريعًا. وإلا... لن يطول الوقت قبل أن أختنق و أموت بالفعل .. وداعًا.** ثم توقف المؤشّر فجأة، كأن اليد الخفية التي حركته انسحبت من العالم.

جلس الثلاثة مذهولين، يحدّقون في اللوح الصامت كأنهم أمام باب انغلق على سرّ لن يعود.

كان موغيشا أول من تكلّم، وصوته يترجّف فقد بدأت قناعاته

التشكيكية تتهدد :

= هذا... هذا جنون. نحن هنا في رواندا، واللوح يحدثنا عن شاب في الهند؟ أيمكن أن يكون هذا صدقًا؟

كويزيرا ظل صامتًا، لكن نظراته كانت مثقلة بالريبة. عقله الرزين لم يحتمل غرابة ما حدث. شيء في داخله يهمس أن ما جرى ليس إلا خدعة، لعبة أعصاب مريبة.

لم يشأ أن يصرّح، لكن عينيه كانتا تتجهان شيئًا فشيئًا نحو صديقهم غريب الأطوار روتا بينغوا.

أما روتا، فقد جلس متقاطع الساقين، وابتسامة مشتعلة ترتسم على وجهه. ثم فجّر ضحكة سايكوباثية مخيفة :

= أرأيتم؟ كنت محقًا على الدوام ! الأرواح هنا، الجن هنا، وإذا كانت الروح قد عبرت إلينا من كالكوتا، فماذا يمنع أن يأتي الفضائيون غدًا من مجرّات أخرى؟

ارتعش قلب موغيشا من ضحكة صديقه ، شعر أنها أكثر رعبًا من الرسالة نفسها. أما كويزيرا فأخذ نفسًا عميقًا، محاولًا أن يخفي قلقه خلف جدار العقل، لكن الشك كان يتسلل داخله بلا هوادة : هل حقًا تحرك المؤشّر بفعل قوة غامضة؟ أم أن روتا بينغوا، بعقليته الغريبة وضحكته المقلقة، هو من دفعه خفيةً ليحيك هذه الحكاية و يثبت صحة أفكاره الثابتة ؟

في تلك اللحظة، صار اللوح ساكنًا، لكن ظلاله لم تفارقهم. كان الكوخ كله يضجّ بأسئلة أكبر من قدرتهم على الاحتمال : هل ما جرى نداء حقيقي من روح مدفونة حيّة في أرض بعيدة؟ أم أنه مجرد لعب بعقول أصدقاء جمعهم خيط طفولة، وبدأ اليوم يتفكك تحت وطأة الماوراء؟

****

انتهت السهرة كما تنتهي الأحلام الثقيلة، بضحكاتٍ متقطّعة يشوبها كثير من القلق المقنّع . خرج موغيشا أولًا، عائدًا إلى منزل أسرته، يردد في أعماقه أن ما جرى مجرد أوهام طفلٍ كبير اسمه روتا بينغوا. تبعه كويزيرا، متماسك الظاهر، مهتزّ الباطن، فيما بقي روتا يلوّح لهما ضاحكًا ضحكته الغريبة كأن الكوخ نفسه ارتجف معها .. فقد أعلن انتصاره اليوم على الجميع ..

في الطريق إلى البيت، ظل صدى الرسالة يطارد كويزيرا : **أنا لم أمت... قلبي ينبض.** كانت كلمات اللوح كحجرٍ صغير ألقي في بركة مستقرّة ، فأثار دوائر لا تهدأ. وعندما أسند رأسه أخيرًا إلى وسادته، لم يعرف النوم طريقًا إلى عينيه. الأسئلة تحاصره : ماذا لو كان روتا هو من حرّك المؤشّر؟ وماذا لو لم يفعل؟ ماذا لو أنّ حياة إنسانٍ ما، في مدينة بعيدة اسمها كالكوتا، معلّقة الآن على قرارٍ يتخذه شاب رواندي في منتصف الليل؟

أغمض عينيه، فتراءى له وجهٌ مجهول، كأن الروح التي نطقت عبر اللوح لا تزال تهمس في أذنه. انتفض من فراشه كمن يفرّ من كابوس. جلس أمام حاسوبه، أصابعه ترتجف وهو يكتب في محرك البحث : **طبيب هندي شاب اسمه أريان توفي الأمس في حادث سير .**

لم تمر سوى لحظات حتى انفتحت أمامه شاشة الخبر،

خبر وحيد يتيم، لكنه كان كالطوفان الذي جرف كل شكوكه : **حادث سير في ضواحي كالكوتا يودي بحياة الطبيب الشاب أريان شاندرا.**

تجمّد كويزيرا، ودماؤه تجري مثل ماء بارد في عروقه. تذكّر الكلمات التي هجّاها المؤشّر : **أنا لم أمت... أنقذوني.** رفع يده إلى فمه، كأنه يحاول إسكات صرخة ستفضح ارتجاف قلبه.

في تلك اللحظة لم يعد السؤال : **هل كانت التجربة خدعة؟** بل صار في الحقيقة : **ماذا أفعل الآن؟**

اندفع يبحث بعجلة، يطرق أبواب الفضاء الواسع لمواقع التواصل الاجتماعي. كتب الاسم : **أريان شاندرا**. لم يطل بحثه كثيرًا حتى عثر على صفحة شابٍ أصغر سنًا من كالكوتا يحمل الكنية نفسها. ملامحه تشبه الميت المزعوم، لكن ببراءة أصغر. كان واضحًا أنه أخوه.

كتب له رسالة طويلة، بدأها مترددًا :

(أنا كويزيرا، شاب من رواندا. أعرف أن ما سأقوله سيبدو غريبًا، وربما جنونًا. لكنني الليلة كنت مع صديقين، وجربنا لوح الويجا الشهير .. وهناك،

خاطبتنا روح قالت إنها تعود لأخيك أريان. قالت إنه لم يمت، وأنه دُفن حيًا، قلبه لا يزال ينبض ببطء .
أرجوك، لا تهمل هذه الرسالة .. أرجوك افعل شيئًا قبل فوات الأوان.)

أرسلها وهو يكاد لا يصدّق أنه فعل. جلس بعدها يحدّق في الشاشة، يتنفس ببطء، كمن ينتظر حكمًا على مصيره لا على مصير الآخر فقط.

مرت دقائق طويلة كالأبدية. ثم ظهر إشعار : (رسالة مقروءة.)

أجاب الأخ الأصغر بارتباكٍ ظاهر :

(من أنت؟ هل هذا نوع من السخرية؟)

أسرع كويزيرا يكتب :

(على الإطلاق .. ابحث عني إن شئت، ستجدني شابًا عاديًا من رواندا .. لا أعرفكم، لم أزر الهند قط .. لكن ما جرى الليلة جعلني مضطرًا أن أكتب .. لا أريد منكم شيئًا، فقط تأكدوا أن أريان لم يمت .. لقد قال لنا أنه دفن بجوار شجرة الأراك العزيزة على قلبه منذ طفولته)

توقف الأخ عن الرد لحظات. بدا أنه يغوص في صفحة كويزيرا، يتفحّص الصور والمنشورات. ثم عاد ليكتب :

(أنت... حقًا من رواندا؟ كيف عرفت قصة شجرة الأراك؟ حتى الصحافة هنا لم تذكر التفاصيل بعد! و لا أحد يعرفها سوى عائلة أريان)

كان صوته في الرسائل يتأرجح بين الأمل و الخوف. لكنه لم يطل الصمت هذه المرة. بعد دقائق قليلة كتب :

(سأوقظ أبي و أخبره لنرى ما سنفعله .. شكراً لاهتمامك و

تواصلك)

في الطرف الآخر من العالم، جلس الأب الهندي أمام ابنه و هو يروي القصة كلها، رسالة شاب إفريقي لا يعرفهم يخبرهم بما لم يقله أحد بعد. لكن للدهشة و بدلاً من أن يسخر الأب أو يغضب، انحنى برأسه كأنه يسلّم لقدَرٍ انتظره طويلًا. ثم قال بصوتٍ متهدّج :

= أنا لا أستغرب. أريان منذ طفولته كان يلحّ علينا : إذا متّ يومًا، لا تحرقوني كما يفعل الناس هنا، بل ادفنوني قرب شجرة الأراك. لعلّ السماء كانت تهمس له بأنه سيُشخّص بالموت خطأ ذات يوم، وأنها ستمنحه فرصة أخرى للحياة. لقد كنا نضحك ونعتبرها هواجس صبي صغير ... لكن قلب الأب لا ينسى.

ارتجف صوت الابن الأصغر :

= إذن... ما الذي نفعله الآن؟

أجاب الأب بعينين دامعتين :

= نذهب .. الآن .. لا وقت للانتظار .. فنحن في معركة مع عدّاد الزمن ..

وبينما كانت الأسرة الهندية تتحرك في عتمة الليل لإنقاذ ابنها من باطن الأرض قبل أن يختنق و يموت بالفعل ، كان كويزيرا جالسًا أمام حاسوبه في رواندا، عيناه مثبتتان على الشاشة، وقلبه يتأرجح بين رعبٍ ورجاء. لم يدرِ إن كان قد أنقذ إنسانًا حقًا، أم أنه انجرّ وراء خيوط قدرٍ غامض نسجتها الأرواح. لكنه كان متأكدًا من شيء واحد : تلك الليلة لم تكن مجرد تجربة غريبة مع لوح خشبي، بل كانت بداية لعلاقة خفية بين قارتين، بين عالمين ، بين الأحياء والأرواح، بين اليقين والشك، بين الخوف والإيمان ، و بين اليأس و الرجاء .. و لعل صديقهم روتا بيغوا لم يكن واهماً بالمحصّلة !!

****

كان الليل قد انحنى على القرية الهندية، والهواء يقطر برطوبةٍ خفية كأن السماء تحبس دموعها. حمل الأب مع أبنائه أدوات بسيطة : معاول ، مجرفة ومصباح زيت. اتجهوا نحو القبر قرب شجرة الأراك بخطوات ثقيلة،

مشدودة بالتوتر، وكأنهم يسيرون على خيط رفيع بين الوهم واليقين. وصلوا إلى القبر، وفي صدورهم اختلاط من رهبة ورجاء، كأنّ كل حفنة تراب سيزيلونها تقرّبهم من معجزة أو من جنون أو من انتهاك لحرمة الميت ..

ضربت المعاول الأرض المبتلة، ورائحة الطين الممزوج بالموت ارتفعت في الهواء. لم ينطق أحد بكلمة؛ كانت أنفاسهم وحدها تصدح مع وقع الحديد على التراب. بين لحظة وأخرى، كان الأب يرفع رأسه إلى السماء، يتلو في قلبه دعاءً غامضًا لا صوت له، وكأنه يناجي القدر أن يصدّق نبوءة ابنه الراحل.

حين ظهر الخشب الغامق للتابوت تحت طبقات التراب، ارتجفت أيديهم. رفعوا الغطاء ببطء، والقلوب تكاد تخرج من صدورهم. وفي تلك اللحظة، توقف الزمن لحظة قصيرة، كأن الليل نفسه يترقّب ما سيُرى.

كان جسد أريان ممدّدًا في نعومةٍ صامتة، لكن الغريب أن حرارة جسدته لم تكن موتًا على الإطلاق . حين مدّ الأب يده إلى وجهه، وجد بشرته دافئة، كأن الحياة لم تفارقه بعد. لم تكن حرارة الوهم، بل دفء حقيقي، دفء يروي أن ما قاله الغريب الإفريقي عبر رسالة الإنترنت لم يكن خيالًا. !!

شهق الأخ الأصغر، وارتعشت ركبتاه :

= أبي... أتشعر بما أشعر؟

أطرق الأب بعينين دامعتين، ثم قال بنبرةٍ تكسوها حكمة سنين من الخبرة و الإيمان :

= قلبه ينبض لكن بشكل بطيء و ضعيف بالكاد يبقيه حياً، يحتاج إلى صدمة حسية توقظه. أسلافنا كانوا يقولون : الروح العالقة لا تعود إلا إذا أُحرقت بجمرة الألم.

أخذ معولاً صغيراً حديدياً من حقيبته القديمة، وضعه في لهب المصباح حتى احمرّ كالجمرة. اقترب من يد أريان المرتخية، وأبناؤه يحدّقون في المشهد بأنفاس محبوسة، بين خوفٍ من قتل من يحبونه وبين أملٍ لا يُحتمل وزنه. ثم وضع المعول على جلده.

صرخة مدوّية شقّت الليل. جسد أريان انتفض كمن يُنتزع من قاع بحرٍ مظلم، عيناه انفتحتا فجأة، وصوته تمزّق من أعماقه :

= آااااه !!

انهار الأب والأخوة حوله، دموعهم انهمرت كأمطار موسمية، والصدمة تحوّلت إلى فرحٍ هستيري.

في المقبرة التي كانت قبل قليل وادي موت، ارتفعت أصوات الأهازيج الشعبية والصلوات الدينية، كأن

العائلة تحتفل بقيامةٍ صغيرة. عانقوه واحدًا تلو الآخر، وهم يرددون كلمات الشكر والامتنان، لا يدرون إن كانوا يخاطبون الله، أم السماء، أم الغريب البعيد الذي أرسل رسالة في مناسبة غامضة و توقيت حرج.

وفي مكان آخر من القرية، عندما وصل الخبر إلى إيشا، خطيبة أريان، سقطت مغشيًّا عليها من هول المفاجأة. حين أفاقت، كان جسدها يهتز من البكاء، دموعها تسيل بغزارة كأنها تحاول غسل الفاصل القصير بين الموت والحياة. لم تتمالك نفسها، ركضت إلى بيت عائلته، وهناك احتضنته وهي تبكي بلا توقف، تردد اسمه كأنها تستعيده من براثن الغياب : أريان... أريان...

أما أريان نفسه، فكان يهز رأسه بدهشة. عيناه الزائغتان تومضان بغرابة، كأنه لا يزال عالقًا بين عالمين .. احتضنهم جميعًا بذراعين مرتجفتين، وقلبه المشوش يحاول استيعاب الفارق بين الرؤيا التي عاشها في مقصورة زجاجية في عالمٍ آخر منذ قليل وبين هذا الطوفان من الأحضان والأهازيج. لقد عاد إلى الحياة، لكن بذهنٍ لا يزال يترنّح على حافة الغيب، بينما العائلة تحتفل بمعجزةٍ ستظل حكاية يتوارثها الأبناء جيلاً بعد جيل.

****

في الأيام التي تلت عودته من القبر، كان أريان يعيش ازدواجًا مربكًا بين جسده الحي وروحه المرتجفة. كل من حوله يغمرونه بالحب، يباركونه ويغنون لمعجزته، لكنه حين يختلي بنفسه، يغرق في بحر من الأسئلة التي لا تهدأ. لقد عاش تجربة حسية بأدق تفاصيلها :
المقصورة الزجاجية، البياض الجليدي الممتد بلا حدود، السكون المهيب الذي يشبه الأبدية، والإحساس الغريب بأنه معلق بين قرارين : البقاء أو الرحيل. كل ذلك ما زال مطبوعًا في ذاكرته بوضوح أشد من وضوح حلم عابر. ومع ذلك، أين الدليل؟ لا أثر في جسده يدل على تلك المقصورة، لا شاهد خارجي يؤكد أنه كان فعلًا على أعتاب عالم آخر .. لقد عاد من هنالك أعزلاً بلا أي دليل يتسلح به للإقناع نفسه أولاً ثم إقناع من حوله تالياً .. لذا فقد تردد كثيراً قبل أن يخبر أي شخص مهما كان قريباً منه بتجربته الغريبة في العالم الآخر ..

أحيانًا كان يفيق ليلًا، يضع يده على قلبه كمن يريد أن يتأكد أن النبض هنا لا هناك. يسأل نفسه : أكانت تلك مجرد هلوسة دماغٍ يختنق بالأكسجين؟ أم أنها حقيقة وهبته السماء فرصةً أن يتذوقها ليعرف معنى العودة؟

كلما تذكر الصرخة التي أطلقها حين حرق المعول يده، ازدادت حيرته : لو كان حقاً في عالم آخر إذن فقد كان ميتاً بالفعل، فمن أين جاء ذلك الشعور المزدوج، شعور

الميت الذي يطل من وراء زجاج، والحي الذي يعود إلى صخب الحياة؟

ظل أريان يتأرجح بين الإيمان والشك، بين نور التجربة وغموض العقل. وكأن حياته الجديدة لم تُعَد إليه ليعيشها بسلام، بل ليظل يبحث عن يقينٍ مفقود، يقين لا يبرهن عليه دليل ملموس، لكنه يسكن في أعمق أعماق القلب.

حالة أريان ليست يتيمة و لا جديدة على فلسفة الحياة ، فالتاريخ يحب أن يختبر هشاشة اليقين البشري باستمرار، إذ يروي بين صفحاته قصصًا كثيرة تشبه الكوابيس : بشر حُكم عليهم بالموت قبل أوانه، فدُفنوا أحياء، ثم عادوا ليشهدوا بأن الحياة لا تُقاس دائمًا بما تراه العيون أو تسمعه السماعات الطبية.

في القرن السابع عشر، في أوروبا، كانت أخبار الموتى العائدين من قبورهم تُكتب على هوامش الصحف، عن رجال ونساء ظنّ الأطباء أن قلوبهم توقفت، فإذا بهم يستيقظون في ظلام التوابيت، يصرخون ويخدشون الخشب بأظافرهم. بل إن بعض القبور التي فُتحت لاحقًا كُشف فيها عن أجساد مشوهة وصدور متثلمة، دليلاً على صراع أخير ضد الدفن الحي.

وتحكي كتب الطب الشرعي عن **مارغريت ديلاكروا** في فرنسا، التي أفاقت وهي في كفنها قبل أن توارى الثرى

بدقائق، وسط ذهول المشيعين.

وفي القرن التاسع عشر، في أمريكا، وُثّقت حالات عدة جعلت المجتمعات تخترع توابيت أمان مزودة بأجراسٍ صغيرة؛ فإذا استيقظ الميت المزعوم، شدّ الحبل فيرن الجرس فوق الأرض ليعلم الأحياء أنه لم يرحل بعد.

حتى في العصر الحديث و مع بلوغ الطب درجة متطورة من الكفاءة ، تم توثيق حالات كثيرة و في بلدان متقدمة تم تشخيصها بالموت وفق البروتوكولات المعترف بها عالمياً ، لكنها عادت للحياة على نحوٍ غير مفسّر ..

هذه الحكايات، وإن حملت قسوة مخيفة، تحمل أيضًا لغزًا ساحرًا : أن الموت قد لا يكون دائمًا النقطة الأخيرة، بل أحيانًا خطًا غامضًا يتأرجح بين خطأ الطب و قدر السماء. هي شهاداتٌ تحفر في وجدان الإنسان فكرة واحدة مزلزلة : أننا نعيش على خيطٍ رفيع، وأن الحياة قد تظل تتشبث بنا حتى ونحن على حافة التراب .. بل ربما – كما حدث مع أريان – تمنحنا فرصة العيش على حافة بين عالمين ..

نحن كبشر عاديين ننغمس في الواقع الملموس حتى الثمالة لدرجة تجعلنا نتعامى عن الغيبيات غير المحسوسة من حولنا.. لكن هذا لا ينفي على الإطلاق

وجودها .. و لعلها بين حين و آخر بحاجة لعقل متأجج منفلت من عقاله سواء بشكل طبيعي أو حتى مرضي كعقل صديقنا روتا بينغوا كي يلقي الضوء عليها من جديد ، فيذكرنا بالحقيقة المغيبة : كما أنّ الكائنات الدقيقة موجودة في كل مكان من حولنا دون أن نراها ، فلعل كائنات أكبر بكثير موجودة أيضاً في عالمنا أو ربما في عالم آخر و لا نارها بآليات نجهلها .. فالبصر ليس قاضياً عادلاً على الدوام ، و السراب الذي يخون عيوننا أكبر دليل على اختلال ميزان البصر في مناسبات كثيرة

****

من قصتنا المقتضبة السابقة نتوصل عزيزي القارئ إلى حكمة بليغة للغاية بأنّ بعض أسرار الحياة بحاجة للمسة سريالية حالمة كي تتجلى أمامنا بوضوح .. قد تكون عبر طقس فودو ، أو ربما لوح ويجا ، أو جلسة استحضار أرواح .. ربما كل هذه الوسائل و غيرها لا تختلف عن **حجر رشيد** الذي اكتشفه الملازم الفرنسي بيير فرانسوا بوشار و ترجمه العالم الفرنسي جان فرانسوا شامبليون ففتح لنا بوابة فهم اللغة الهيروغليفية المصرية الغامضة .. لعل كل ذلك مجرد بوابات أخرى مماثلة لفهم عالم الماورائيات و الغيبيات التي نجهلها حتى هذا اليوم .. لذا الأجدر بنا أن نقول :

(هذا ممكن .. لا أدري بالضبط)

بدلاً من القول :

(هذه خرافة .. و أنا أجزم بذلك)

و هذه الفلسفة العظيمة و الحكمة البليغة ليست سوى جوهرة نفيسة في عقد الحياة المرصّع بأنفس الجواهر و الأحجار الكريمة .. و للأسف بعض الناس يرفضون التزين بهذه النفائس و يحجمون عنها ، بل إنّ قسماً منهم يفني عمره يحفر في مناجم اللذات و توافه الحياة ، و يسخّم وجهه بسواد الفحم الحجري كوقود لغرائزه و أحلامه السطحية هذه التي تذهب بالنهاية كزبد البحر، فيصل إلى ختام حياته مفلساً من أي شيء معنوي يدافع عنه بعد موته في مغالطة حقيقية مؤلمة و خطيرة بل مصيرية.. و مهمتي خلال الصفحات التالية أن ألفت الانتباه إلى بعض من هذه الجواهر النفيسة في العقد علني أزرع محبة الحكمة و الفلسفة في القلوب إن كانت متصحّرة و خالية منها .. فهيا بنا في هذه المهمة السامية و الشيقة ..

① **السم في العسل** :

كثير من الأفلام تحمل أهداف سامية و تروج للفضيلة و الأخلاق .. لكن بعضها يتبع فلسفة أخرى خبيثة ، هي فلسفة دس السم في العسل .. بحيث تمرر بعض الأفكار السامة أو السوداوية عبر أحداث الفلم الملونة و الحميدة ، و من هذه الأفلام يأتينا الفلم الشهير **V FOR**

VENDETTA ، فكثير من الذين شاهدوه مقتنعون بأنه فلم يروج لإصلاح المجتمعات ، و بالفعل الفلم ينطوي على كثير من هذا ، خصوصاً بدايته التي تحدثت عن واقعة حقيقية و هي محاصرة الثائر **جاي فوكس** ثم قتله .. لكن عبر أحداث الفلم يتم تمرير أجندات أخرى خطيرة للغاية ، فإن أنت أمعنت النظر عزيزي القارئ فستكتشف أن شخصية **V** في الفلم هي تجسيد للشيطان أو إبليس أو لوسيفر .. فإن كان بطل الفلم الآخر هو القائد السياسي المدعو **آدم** و الذي يحمل الخطيئة و الأخلاق معاً في شخصيته كتجسيد لفكرة الإنسان و أن جميع البشر خطاؤون .. فإن شخصية **V** التي تعاديه خلقت من نار كما يظهر في الفلم تماماً كإبليس الذي رفض السجود لآدم لهذا السبب ..

بل تظهر هذه الفكرة بشكل أوضح في مشهد تساقط أحجار الدومينو التي تسجد جميعها إلا حجرة **V** التي ترفض السجود .. ثم يأتينا اسم **V** الذي يشير إلى الرقم **5** و هو نجمة الشيطان الحمراء .. كما أن الألوان التي

يستخدمها هي الأسود و الأحمر تماماً كعبدة الشيطان و كما يصور الشيطان بالضبط ..

و في نهاية الفلم ينتصر **V** و ينهزم آدم كما وعد الشيطان الله في معركته مع آدم و سلالته .. و خلاصة الكلام ، أن هذا الفلم ككثير غيره فيه رسائل سامية لكنه أيضاً يمرر سموم في الدسم دون أن يشعر المشاهد ، لذا عليك الحذر عزيزي القارئ ..

② **الفرص لا تأتي مرتين** :

يقول المثل اللاتيني :

(الوقت كالنهر لا يمكن أن تلمسه مرتين)

عندما تمنحك الحياة فرصاً استثنائية اغتنمها ، لأنها إن ذهبت لن تعود ..فالزمن كتيار النهر يجري من غير عودة .. و إن أنت فوت ميعاد طائرتك فاتتك الرحلة .. لذا لا تؤجل الفرص حتى من باب التدقيق و التقصي

العميق ، فالتاريخ من هذه الزاوية لا يرحم .. فإما الآن أو فات الأوان .. و بين الانتصار و الانكسار خيط رفيع فلا تقطعه باللامبالاة أو الطمع بفرص أكبر تمنحك مكاسب أكثر ..

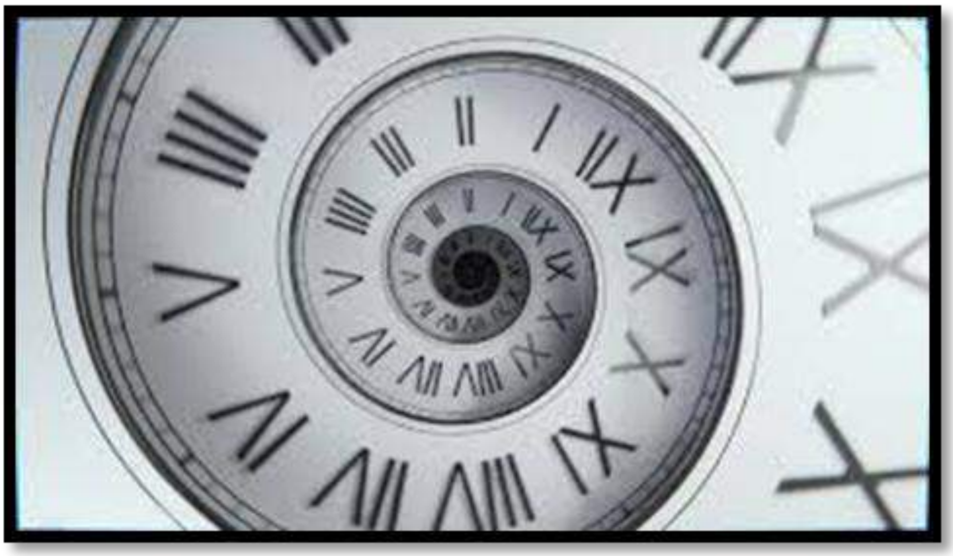

③ **النار الإغريقية** :

يقول الفيلسوف الألماني **فريدريك نيتشه** :

(ما لا يقتلني يجعلني أقوى)

الحياة سلسلة من الابتلاءات و خيبات الأمل و طعنات الغدر ، فإن أنت استكنت لهذا الواقع و أغرقك باليأس فلقد انتهيت و مت و أنت حي .. لذا اجعل فلسفتك في الحياة أن الحياة دورات من نهار و ليل .. يسر و عسر .. و أن عليك أن تستيقظ بعد كل ليل طويل كالفجر و تشرق من جديد .. تماماً كأسطورة طائر الفينيق الذي ينهض من أنقاض الرماد .. و مع كل خيبة أمل لا

تكسرك يشتد عودك أكثر و تصبح أكثر صلابة .. كم النار الإغريقية تتأجج كلما حاول الآخرون إطفاءها بالماء .. لذا أتم نورك مهما كثرت من حولك محاولات إطفائه ..

④ **الأفضل لك ألا تعرف** :

في العلوم توجد معضلة جميلة تدعى **معضلة المتاهة** ، و التي تقول بأن امتلاك الإنسان القابع في متاهة لخريطة للمتاهة يجعل الخروج منها أصعب .. و الحقيقة أن كل إنسان يعيش في متاهة كبيرة هي الحياة ، و التي يخرج منها بالنهاية عندما تنتهي حياته ، و لو تمكن الإنسان من معرفة هذه الحياة بدقة و كيف تسير أموره فيها لأصبحت حياته أصعب بكثير و لتوقف عند

كل لحظة أو موقف طويلاً و بالغ في ردة فعله تجاه كل مشكلة أو حتى كل نعمة .. أما سير الحياة وفق ما هو شائع فيجعل الخروج منها أسهل بكثير على تعقيده ..

⑤ **وجوه القيامة** :

جزيرة الفصح التابعة لدولة تشيلي أو ما يعرف **بجزيرة القيامة** تحتوي عشرات التماثيل لوجوه حجرية ..

و هذه الجزيرة تتقاطع على نحو جميل مع القرآن الكريم في **سورة القيامة** عندما يقول البارئ :

(وجوهٌ يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة * و وجوهٌ يومئذٍ باسرة تظنّ أن يفعل بها فاقرة)

فالقيامة و **الوجوه** متكررة في الجزيرة و السورة على نحو يثير الدهشة و الأسئلة .. فهل جسد الله على هذه الجزيرة مشهداً مبسطاً عن مسرح يوم القيامة عندما يحشر البشر بين أيدي الله .. ؟!

إن تسمية هذه الجزيرة يعود لأنها اكتشفت في عيد الفصح عند المسيحيين أو عيد كقيامة يسوع المسيح من الموت لتشرق شمسه من جديد بوجه ناضر ، منتصر و مفعم بالحياة ..

⑥ كون الأضداد :

لكل شيء في هذا الكون شيء مضاد له، أول من نادى بذلك هو الفيلسوف **أمبادوقليس** قبل الميلاد بحوالي خمسمئة عام، هذا الفيلسوف سبق سقراط وغيره من الحكماء الذين اعتدنا سماع أسمائهم يومياً.. و هذه النظرية أثبتها العلم الحديث اليوم من أصغر الجزيئات كالالكترون و مضاده البوزيترون انتهاءً بالمادة و المادة المظلمة .. و هذه النظرية العلمية تنسحب على الجانب المعنوي من الحياة .. فالخير يقابله الشر و النهار الليل و اليسر العسر و الوفاء الخيانة و هكذا .. و للأسف المجتمع لم يكن جاهزاً للإيمان بأفكار أمبادوقليس فظل

يحاربه و يضيق عليه الخناق حتى بلغ منه اليأس أشده فألقى أمبادوقليس بنفسه في فوهة بركان إتنا في إيطاليا، نفسه البركان المسمى بجبل النار.. وتقول الأساطير أن هذا البركان أضحى من أعتى وأنشط البراكين في العالم مذ لمّ جسد الفيلسوف .. و اليوم بعد قرون تنتصر أفكاره و تثور كالبركان و تفور كالتنور بنيران الحقيقة ليظهر الحق في وجه مضاده الباطل و ينتصر عليه ..

⑦ **الإرادة الفولاذية** :

هنالك في الطب متلازمة تدعى (**المحبوس**) ، حيث يصاب الإنسان بشلل تام في جسده عدا الحركة العامودية لعينيه ، و لعل أشهر مصاب بهذه المتلازمة هو الصحفي الأربعيني **جون دومينيك بوبي** والذي استيقظ بعد إصابته بجلطة دماغية، ليجد نفسه مصاباً بذات المتلازمة ، في حالة شلل رباعي وشلل شامل لكل عضلاته الإرادية عدا عضلات العين اليسرى.. لكن

كان للصحفي جون زوجة بجيش كامل، جلست إلى جانبه في المستشفى وساعدته على كتابة رواية، برفات عينه اليسرى، عشرة أشهر وآلاف رفات العين، فكانت الرواية الرائعة :

(جرس الغوص والفراشة)

مات جون دومينيك بوبي بعد ثلاث سنوات من تقليب زوجته المستمر لجسده، كي لا تأكله التقرحات .. مات بعد نجاح روايته المكتوبة برمش العين، فكلام الإرادة كما كلام القلوب لا يموت ، ليعلم البشرية جمعاء درساً بليغاً بأن الإنسان إن شاء لا يثنيه شيء في الكون عن تحقيق أحلامه ..

⑧ القرين روحك التي لا تراها :

يقال أن لكل إنسان قرين يرافقه في حياته ، و لعل هذه الفكرة ليست خرافة بالمطلق .. فعندما ينظر الإنسان في

المرآة يجد صورة له ، لكنه إن رفع يده اليمنى سترفع صورته فيها يدها اليسرى و كأن قرينه بالفعل لا يظهر إلا في المرآة .. و لعلنا عندما نفكر بيننا و بين أنفسنا فنسأل الأسئلة و نجيب عليها ، ما نحن نعيش إلا بمونولوج داخلي مع قريننا !!

⑨ في داخلك إله نائم :

في الطب توجد متلازمة أخرى تدعى **متلازمة سافانت** و فيها يتحول الإنسان عند تعرضه لرض على الرأس أو أي أذية دماغية أخرى من شخص عادي في مجال معين إلى نابغة في هذا المجال .. فكيف حدث ذلك ؟

إن هذه المتلازمة تثبت بالدليل القاطع أن الدماغ في حالته الطبيعية قادر على كل شيء ، لكنه بحاجة فقط

لضغطة زر كي يتفعل !! و هكذا أنت يا صديقي .. كائن جبار قادر على اجتراح المعجزات لكن طاقاتك الكامنة لن تظهر إلا عندما تتعرض لضغط شديد و ابتلاء من الحياة ..!!

******

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**مغالطة فلسفية**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= لا أريد أن يتفلسف أحد عليّ ، الفلسفة كلام فارغ لا يقدم و لا يؤخر ..

بل أن نقول :

= الفلسفة هي أمّ الحكمة و البلاغة و المنطق .. و ربّ عظة فلسفية وحيدة تسمعها تغير حياتك جذرياً نحو الأفضل ، فلا تغلق قلبك و عقلك عن سماعها ..

يقول الأديب الروسي الشهير **مكسيم غوركي** :

(لا تستطيع أن تفعل أي شيء بلا فلسفة، لأن كل شيء له معنى خفي علينا إدراكه)

و القراءة بين سطور الحياة فنّ راقٍ لا يتقنه إلا الفلاسفة ، و على البشر أن يستفيدوا من عصارة تجارب هؤلاء و محاكماتهم لعقود طويلة و التي وصلت إلى الناس بدون جهد أو ضريبة منهم ، فهل من المنطق أو العقل أن يتذمر الإنسان من ثروة يمنحها له الآخرون بدون مقابل فيرفضها أو يدوسها أو يرمي بها **!؟**

الجندي المجهول

(أبطال الظلّ)

في زاوية هادئة من مختبره المتواضع في فورتسبورغ بألمانيا، عام **1895**، جلس **فيلهلم كونراد رونتجن** يراقب أنبوبًا كهربائيًا ينبعث منه شرارات خفية، كأنها همسات من عالم غير مرئي. لم يكن يعلم أن يده على عتبة اكتشافٍ سيغيّر فهم البشر للنور والمادة والحياة نفسها؛ ضوء غامض قادر على اختراق الجسد، كاشفًا العظام وأسرار الروح المختبئة خلف الجلد.

التقط أول صورة ليد زوجته، وظهرت العظام متوهجة، كما لو أن الضوء نفسه قرر كشف الحياة الداخلية برفق ودهشة.

أدهشه هذا المشهد الغريب، فسمى هذه الأشعة **X-Rays** ، حرف **X** رمزًا للمجهول، للغموض الذي لم

يستطع أحد تفسيره بعد، وللحقيقة التي كانت تنتظر من يجرؤ على النظر إليها بعين غير مألوفة.. و لسخرية القدر أو ربما لعبقريته فرمز **X** المجهول سيغيب فيلهيم عن أضواء الشهرة لينساه العالم و يذكروا فقط اكتشافه (أشعة **X**) .. و يصبح بذلك هذا الرمز الغامض المجهول إشارة لكل مكتشف أو مخترع أو فنان أو قائد عظيم سقط اسمه من أرشيف التاريخ و بقي فعله المؤثر يخدم الناس عبر الأجيال المتلاحقة دون أن يعرفوه ..

و بالعودة إلى صديقنا رونتجن ، فرغم عظمة اكتشافه، واجه جدران التجاهل الصماء الباردة ، ورفضًا من أوساط علمية وسياسية مشبعة بالتحيز. فالعالم لم يكن دومًا مكانًا يعترف بالعبقرية إلا لمن تقرّب من السلطة أو انتمى لنفس الدين أو العقيدة أو العرق، أو كان وجهه مألوفًا في دوائر النفوذ. إلا أن نور اكتشافه لم يُسجن، وظل يتسلل إلى الطب والعلوم، يعانق كل جسد يُشخّص، وكل حياة تُنقذ دون جراحة.

اليوم، في كل صورة أشعة، وفي كل تشخيص ناجح، يحضر ظله بصمت، كأن الضوء نفسه يكرمه في كل مختبر وكل مستشفى و لو سقط اسمه . إنه نور ولد من رحم الظلام، رسالة خفية للبشرية أن المجهول في أغلب الحالات هو الذي يضيء الطريق ..

****

أبطال الظل ..

تسمية تليق بأشخاص كثر عبر التاريخ غيروا ملامحه و شكلت أفعالهم انعطافات مفصلية في مساره لكنهم سقطوا من شاشات الإعلام و الدعاية لأسباب متنوعة حتى باتوا مجهولين لأغلب البشر، في مغالطة جائرة بحقهم لا بد من تصويبها اليوم بقبضتي العدل ، فنمنح بعضهم حقه الضائع كمن يضع وردة على ضريح جندي مجهول و يقصد بها الجميع من أمثاله .. و سننجز ذلك عبر رحلة شيقة من ثلاث محطات :

① الجندي المجهول ..

② الإعلام و الدعاية كل الحكاية ..

③ أمثلة من أرشيف التاريخ ..

فهيا بنا عزيزي القارئ نقلب صفحات أرشيف التاريخ لنتعرف أكثر على أبطال الظل هؤلاء ، و نفهم لماذا انتهى بهم المآل في الظل رغم تأثيرهم الهام الذي لا يقل و ربما يتفوق على مشاهير كثر آخرين ..

أولاً ، الجندي المجهول :

ثمة وجوه لم تلمع على صفحات الجرائد، ولم تُرصَّع صورها على جدران القاعات الكبرى، لكنها كانت الشرارة الأولى التي أضاءت طرقاً جديدة للبشرية. إن

الجندي المجهول لا يقتصر على من ارتدى بذلة عسكرية وحمل سلاحاً، بل يمتد ليشمل كل إنسان كان صوته خافتاً لكن أثره عميقاً.

في مختبر صغير، ربما عثر باحث مغمور على فكرة ألهمت لاحقاً اكتشافاً عظيماً نُسب لغيره؛ في مرسم متواضع، قد رسم فنان لوحة لم تلقَ رواجاً في زمانه، لكنها زرعت في أجيال لاحقة بذرة تيار فني كامل؛ في ورشة ضيقة، طرقَ عامل بسيط الحديد ليصوغ أداة ساهمت – دون أن يدري – في تمهيد الطريق أمام ثورة صناعية غيرت ملامح الأرض. هؤلاء هم الجنود المجهولون للعلوم والفنون والاكتشافات.

إن العقل البشري الذي نُسِب إليه الاختراع لم يولد في فراغ، بل بُني على جهد آخرين لم تُسجّل أسماؤهم. كم من فكرة علمية انطلقت من ملاحظات طلاب لم يُذكروا، أو من ملاحظات هامشية في دفاتر باحثين لم يحظوا بالاعتراف ؟ كم من دواء أنقذ ملايين البشر وُلد من خطأ غير مقصود ارتكبه مساعد في المختبر، فاختفى اسمه خلف الأبواب؟

وفي الفنون، هناك ملحنون مجهولون كتبوا ألحاناً شاعت بين الناس، لكنها نُسبت إلى غيرهم. هناك شعراء عاشوا على أطراف المدن، لم يسمع بهم أحد، لكن كلماتهم تحولت بعد عقود إلى أمثال تتداولها الشعوب وكأنها بلا أب. حتى في المسرح، كم من ممثل بديل وقف مرة واحدة على الخشبة حين غاب البطل، فأدى دوراً سرى صداه في وجدان الجمهور، ثم عاد إلى الظل وكأنه لم يكن ؟

أما في الاكتشافات الجغرافية، فإن المستكشفين الذين عُلّقت صورهم على خرائط العالم لم يسيروا وحدهم، بل اعتمدوا على أدلاء محليين يعرفون الطرق والممرات، على صيادين بسطاء دلّوهم على منابع الأنهار، وعلى بحّارة مجهولين ثبّتوا الأشرعة في عواصف البحار. هؤلاء أيضاً جنود مجهولون فتحوا أبواب العالم دون أن تُحفر أسماؤهم في ذاكرة البشر.

حتى في أبسط تفاصيل الحياة اليومية، الجندي المجهول حاضر: في ذلك المعلم الذي غرس في عقل طفلٍ بذرة الفضول فصار عالماً، في ذلك المترجم الذي نقل نصاً غيّر فكر أمة، في ذلك المخترع الصغير الذي لم يحصل على براءة اختراع لكن فكرته استلهمها آخرون فبنوها قصراً من مجد.

الحقيقة أن التاريخ كما نقرؤه ليس إلا قمة جبل جليد ضخمة، أما الكتلة الأعظم فتظل غارقة في أعماق النسيان. فلو امتلكت البشرية مرآة تكشف لها الأسماء المغمورة خلف كل اختراع أو نظرية أو عمل فني أو اكتشاف، لارتجفت قلوبنا دهشة من حجم الدين الذي ندين به لأناس لا نعرف وجوههم.

الجندي المجهول إذن ليس رمز الحرب وحدها، بل هو

المعنى الخالد لكل إنسان أسهم في صياغة العالم دون أن يُنصفه الضوء. إنه الاعتراف الصامت بأن العظمة ليست دائماً في الواجهة، وأن الحقيقة الكبرى للتاريخ ليست في الأسماء التي حفرت على الرخام، بل في الأيدي الخفية التي شقت الطريق لتلك الأسماء كي تسير.

ثانياً ، الإعلام و الدعاية كل الحكاية :

هناك قوة خفية تسري في الهواء، قوة أقدر من أي سيف أو معادلة رياضية، فهي تصنع الأبطال قبل أن يرفعوا أيديهم، وتكتب المجد قبل أن يُحقّق. إنها **الدعاية، الإعلام و الإعلان...**

هذه الشبكة التي تُسطّر التاريخ كما تريد، فتختار من

يضيء ومن يبقى في الظل. في عالمها، لا يكون العظمة بالضرورة من صنع الفعل نفسه، بل بمن صوّره لنا الضوء، بمن ارتبط اسمه بصدى الإعلام، بمن اختارت له العدسات أن يكون وجه المجد.

كم من عالم أسس نظريات غيرت وجه الحضارة، وكم من مخترع أنقذ ملايين الأرواح، وكم من فنان رسم أو لحن روائع، كلهم يمضون في صمت، بينما يصبح شخص آخر رمزًا للعظمة ليس لأنه أقوى أو أكثر إبداعًا، بل لأنه امتلك وسيلة لتسليط الضوء عليه. الإعلان يصنع الأساطير من الفراغ، والدعاية تمنحها صدى دائمًا، والإعلام يثبّتها في الذاكرة الجمعية، بينما يدفن الأبطال الحقيقيون في ظلال النسيان.

إنها رقصة غريبة بين الحقيقة والصورة : فالحقيقة قد تكون في الشارع المظلم، في المختبر الخفي، في ورشة صغيرة، أو على الشاطئ حيث يلتقط الحفر آثار الماضي، لكن الصورة تُعرض على الشاشات، والوجوه تُعلق على الجدران، والأسماء تُكرّر في الصحف، فتغدو هي الحقيقة بالنسبة للجمهور. ولحظة واحدة من الضوء تكفي لأن يختفي ألف آخرون، رغم أنهم هم من حملوا العالم على أكتافهم بصمت كالإله الإغريقي أطلس بالضبط .

وهكذا يولد المجد كأضواء المسرح، **ليس بالضرورة**

لأنه يستحق، بل لأنه رُسم لنا ليستحق. بينما تظل آلاف الأرواح الخفية خلفه، تُكتب قصصها في الهامش، وتُهمل أسماءها في كتب التاريخ، لكنها تبقى موجودة في كل اكتشاف، في كل فكرة، في كل نغمة، في كل خطوة غير مرئية قادت الإنسانية إلى حيث نحن اليوم.

الإعلان والإعلام والدعاية إذن ليسوا مجرد أدوات، بل هم صانعو الواقع، وهم الذين يقررون من يُذكر ومن يُنسى، من يُحتفى به ومن يظل الجندي المجهول الذي يحمل العالم على كتفه دون أن يلمسه الضوء.

و لعل أهم المعايير المتبعة وراء الكواليس من قبل الإعلام و الدعاية في انتقاء المشاهير هي التالي :

❁ التحيز السياسي :

في عالم يسوده صراع السلطة، يصبح الضوء سلعة سياسية لا تمنح إلا لمن يخدم مصالح الحاكم أو النظام.

قد يُختزل المجد في أيدٍ محدودة، بينما تُدفن المساهمات الحقيقية خلف جدران التحيز، كأنها سرّ لم يُكتشف بعد.

❁ العنصرية والتمييز العرقي :

بعض النفوس ترفض أن يُسمع صوت إنسان لم يولد باللون أو النسب المقبول في زمنها.

هكذا تُسحب أسماء العلماء والمخترعين والفنانين من

ذاكرة الجماعة، بينما يظل تأثيرهم ممتداً في كل زاوية من حياتنا اليومية.

۞ الجنس والتحيز الجنسي :

النساء غالباً ما يحملن عبقرية مخفية ، لكن الزمن و المجتمع يرفض الاعتراف بها.

فالفنانة، العالمة، أو القائدة قد تُترك في الظل، بينما تُسجَّل الأوسمة لأقرانها من الرجال فقط.

۞ الفقر والطبقية الاجتماعية :

قد يولد عبقري في كوخ صغير أو حي فقير، فتُخفيه الظروف عن أعين العالم .

فالمال والشهرة هما عدسة الضوء التي تُركز على اسمٍ دون آخر، بينما يظل صاحب العبقرية الفقير مجهولاً

رغم قدرته على تغيير العالم.

❁ التقاليد الدينية والثقافية :

في بعض العصور، كان يُحظر على بعض الأفراد المشاركة في مجالات العلم أو الفن بسبب معتقدات دينية أو عادات ثقافية صارمة و إن نجحوا هُمّشوا ..

❁ الصراع مع النظام الأكاديمي أو المؤسساتي :

العالم أو المبدع الذي يتحدى الأفكار السائدة أو المؤسسات الكبرى يُهمش، وتُسحب منه فرصة نشر أعماله .. قد تكون أفكاره ثورية، لكنها تُدفن تحت جبال من البيروقراطية والرفض، بينما يُرفع غيره إلى المجد كما حدث مع صديقنا رونتجن .

❁ الزمن والصدفة :

أحياناً، يكون الشخص في زمن غير مستعد لقبول فكرته أو عمله. قد تُضيّع فرصة المجد بسبب لحظة تاريخية خاطئة، أو يُسرق الضوء من يد عبقري ليتوه إلى آخر جاء في الوقت المناسب ..

ثالثًا ، أمثلة من أرشيف التاريخ :

هنريتا لاكس :

لم تكن تدرك أن خلايا جسدها ستستمر بالحياة بعد موتها، كأنها شجرة سرية زرعت في مختبرات

الأرض.

من رحم آلامها وُلدت اللقاحات، ومن دمها نُسجت خرائط للسرطان.

جسدها صار أبديًا، بينما اسمها بقي غريبًا عن الأسماع.

إنها امرأة عادية تحولت دون علمها إلى حجر أساس لطب القرن العشرين.

كانت الحياة تأخذها بصمت، فيما خلاياها تهمس للعلماء بخلود لم تعرفه روحها.

وهكذا، دخلت التاريخ بلا ضوء، لكنها صنعت ضوءًا ساطعاً للآخرين.

روزاليند فرانكلين :

في ظلال مختبر بارد، التقطت عدستها سر اللولب المزدوج.

لم تكن تبحث عن مجد، بل عن حقيقة خبيئة في قلب المادة الحية.

صُودرت صورتها، وأُهملت هي، وكأنها لم تكن حجر الزاوية في أعظم كشف بيولوجي.

لكن الحقيقة تعرف أصحابها، وإن جحدهم التاريخ.

كل خلية في جسد بشري تحمل الآن توقيعًا منسوجًا بعدستها.

رحلت مبكرًا، لكن خيوط الـ DNA تنطق باسمها في صمت أبدي.

إغناز سيملفيس :

كان يغسل يديه كأنه يغسل روح العالم من جهل مميت.

رأى أن لمسة الطبيب قد تحمل رائحة الموت أكثر من الدواء.. لكن الناس سخروا منه، واعتبروه مجنونًا يطارد أوهامًا.

مات في عزلة، بينما النساء كنّ يمتن في صمت على أسرّة الولادة.

واليوم، يغسل الأطباء أيديهم قبل كل جراحة وكأنهم يؤدون صلاة باسم نبوءته.

إنه الرجل الذي لم ينقذ عصره، لكنه أنقذ كل العصور بعده.

هيلما أف كلينت :

كانت ترسم ما لم يُرَ بعد، كأن روحها تتجول في المستقبل ..

ألوانها لم تكن زخرفة، بل أبوابًا نحو عوالم باطنية خفية.

لكنها امرأة في زمن لا يسمح للمرأة أن تسبق الرجال في الحداثة.. احتفظت بلوحاتها لنفسها، كمن يخبئ كنزًا من الضوء. لم يُعرض فنها إلا بعد أن غابت عن الدنيا بعقود طويلة.

وهكذا، رسمت طريقًا جديدًا للفن (التجريدي) ، لكنها لم تمشِ فيه أبدًا.

إيريك ساتي :

رجل غريب الأطوار، يكتب موسيقى كأنها قطرات مطر على نوافذ الروح.

لم يفهمه معاصروه، فقد كان يسير بخطوة أسرع من زمنه.

ألحانه وُلدت متواضعة، لكنها صارت غذاءً للحداثة الموسيقية.

عاش فقيرًا، يرتدي معطفًا مهترئًا، بينما موسيقاه تحلق بعيدًا .. و ترك وراءه نغمات كالأحلام : بسيطة، نقية، أبدية.

كان وحيدًا بين الناس، لكنه رفيقًا مخلصًا للمستقبل.

ماري أنينغ :

طفلة فقيرة على شاطئ بارد، تبحث عن الأحافير لتبيعها بلقمة العيش .. لكن عينيها كانتا تبصران أسرار العصور السحيقة المدفونة في الصخر.

اكتشفت وحوش البحر القديمة، وأرست علم الحفريات الحديث.

لم يُكتب اسمها في الكتب، لأن الفقر والأنوثة كانا جدارًا عاليًا .. لكن العظام التي استخرجتها صارت لغة العلماء لفهم التاريخ العميق.

إنها شاهدة على أن العظمة قد تسكن أفقر الأكواخ.

آلفريد راسل والاس :

بين أدغال إندونيسيا، خطرت له الفكرة ذاتها التي خطرت لداروين ..

اكتشف أن الحياة تنتقي الأقوى ، وتترك الأضعف للزوال.

لكنه لم يكن يملك المكانة التي تفرض حضوره.

كتب رسالته إلى داروين، فأصبحت مفتاح مجد لغيره.

ومع ذلك، ظل رجلًا متواضعًا، عاشقًا للطبيعة لا للمجد.

كان يعرف أن الحقيقة لا يملكها أحد، بل تملكنا جميعًا.

كلود شانون :

في ذهنه البسيط وُلدت أعظم فكرة : أن العالم كله يمكن أن يُختصر في 0 و 1 ...

لم يكن ساحرًا، لكنه علّم الآلات لغة السحر.

من عبقريته خرجت الحواسيب، والاتصالات، وكل ما نعيشه في عصر الرقمنة.

لكنه لم يطلب ضوء الشهرة ، عاش حياته يلعب بالدراجات ويبتكر الألغاز.

إنه الأب المجهول للإنترنت، ولعالمنا الحديث بأسره.

وربما حين نفتح هواتفنا اليوم، فإننا نفتح قبرًا مليئًا بالنجوم اسمه شانون.

******

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**الجندي المجهول**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= الشهرة هي معيار تأثير الفرد على الحياة ..

بل أن نقول :

= تأثير الفرد على الحياة لا علاقة له بشهرته ، لأنه بالأساس لا يسأل مجداً على أفعاله من جهة ، و لأن ماكينة الإعلام و الدعاية تركز فقط على من يخدم أهواءها و مصالحها .. لذا هنالك أبطال كثر غيروا من ملامح التاريخ و لم يسمع بهم أغلب البشر ، لأنهم غيبوا عن المشهد الكبير لأسباب كثيرة دينية أو سياسية أو عنصرية أو غيرها ..

البطل الحقيقي لا يطلب مجداً ، بل يطلب الحقيقة .. لذا غالبا ما يغيب عن الصورة العامة لأنها لا تهمه .. أما البطل الوهمي فيطلب دائماً الأضواء و الشهرة و يسعى

جاهدا ليكون على الغلاف الأمامي للتاريخ باستمرار لذا يهتم بالإعلام و الدعاية و الإعلان القوي كي يتصدر المشهد فيشبع غروره .. و تذكر عزيزي القارئ أن أهم اكتشاف في التاريخ الذي صنع الحضارة على ما هي عليه اليوم هو اكتشاف النار .. فهل يعلم أي منا أي من رجال الكهف هو الذي اكتشفها .. بالطبع لا ، نحن فقط نستخدمها و نتنعم بها دون شكر رجل النار ذاك .. إننا نطفئ حقه بتجاهلنا ، لكن نوره لا يخبو بلامبالاتنا ..

وقوف على الأطلال

(عروش خاوية)

في أعالي جبال الأنديز، حيث يلتقي الغيم بالأفق وتنحني الأشعة الذهبية للشمس نحو أفئدة الأرض، تقبع مدينة غارقة في الغموض، منسوجة بين الصخور والسحاب، تُدعى ماتشو بيتشو. هي ليست مجرد مدينة مفقودة، بل أقرب إلى نبض الأرض وروحها الأبدية. لا يكاد يمر زائر بها إلا ويحمل معه حسًا غريبًا، كأن روحه قد خُطفت، ليس في الزمن الذي يعيشه، بل في زمان آخر بعيد يختبئ بين أرجاء هذه الحجارة العتيقة.

هذه المدينة المقدسة كانت في يومٍ من الأيام، مركزًا للحكمة، **مركزًا للتواصل بين الإنسان والعالم الآخر، بين الأرض والسماء، بين الروح والجسد.** **الإنكا،**

هؤلاء الذين عشقوا الشمس، كانوا يعلمون أن الحياة لا تُقاس بالزمن البشري فحسب، بل بالأرواح التي تسكن في المكان، وبالعلاقة الغامضة التي تنسجها النجوم والأجرام السماوية. كانوا يعتقدون أن كل جبل، كل حجر، وكل نهر يحمل روحًا، يرافقها سر عميق يشكل نسغ الحياة.

و بينما كان علماء الآثار والحُجاج يأتون إلى ماتشو بيتشو بحثًا عن آثار مفقودة، كان السكان الأصليون من شعوب الأنديز يظلون يرددون في صمت : *(عملكم هباء .. الذين لا يؤمنون بالأرواح لا يقدرون على رؤية ما وراء الجبال و الحجارة)* .. كان المكان، في أعينهم، حدودًا بين العوالم، ليس فقط جغرافيًا بل أيضًا روحانيًا. كانوا يرون في الجبال آلهة، وفي الرياح أصوات أسلافهم، وفي السماء نفسها روحًا حية، تتنفس و تظلل الأرض بقدرة غير قابلة للتفسير.

معبد الشمس في ماتشو بيتشو هو المركز الروحي للمدينة. جدرانه تنبض بالطاقة الغامضة التي تلخص مزيجًا من الفلسفة والأدب الروحي للإنكا .. عند شروق الشمس ، تمر أشعة الصباح عبر نافذة المعبد، كأنها رسالة جديدة من الآلهة، تنساب على أرضيته المرصوفة بالحجارة فتغسل الأرواح التي كانت تتجمع لتقديم القرابين. فالإنكا كانوا يعتقدون أن الشمس تجسد

الإله الأعلى للكون، وأنها تقيم صلة مباشرة بين البشر والأرواح التي تسكن في السماء.

لكن مع مرور الوقت، بدأ البشر ينسون هذا الرابط الروحي. جاء الغزاة الإسبان ، دمرت الحروب، وتبدلت العصور، لكن ماتشو بيتشو ظلت صامتة، محتفظة بأسرارها، لا تكشفها إلا للقلوب النقية التي تفتح أبوابها للروحانيات. فكل حجر هناك يروي قصة، وكل زاوية تعكس رمزية أعماق الكون. و المكان ككل أشبه بمسرح للأرواح التي ترتحل بين السماء والأرض، وكان الصمت

الذي يعم المكان يعبر عن حالة من الانتظار الأبدى، انتظارًا لعودة المخلص أو الفهم الكامل للمعنى الحقيقي للحياة والموت.

طريق الإنكا، ذلك الممر المقدس الذي كان يقود الحجاج إلى المدينة المفقودة الغامضة ماتشو بيتشو ، هو بمثابة رحلة روحانية قبل أن تكون رحلة بشرية. فالخطوات التي يخطوها الزوار على الأرض المقدسة ليست مجرد خطوات مادية بل أقرب إلى أدوات تواصل مع العوالم الأخرى، هي بمثابة خطوة نحو الحقيقة الأعمق التي لا يمكن اكتشافها إلا من خلال فهم الروحانيات التي تحيط بهذا المكان. فالطريق لا يمر فقط عبر الجبال، بل يعبر من خلال الطبقات اللامرئية التي تربط بين الإنسان

والآلهة .. السياح أو الحجاج يأتون ليبحثوا عن شيء في الماضي، لكنهم في الحقيقة دون أن يدركوا ، يبحثون عن شيء في أعماقهم، شيءٍ يربطهم بعالم الروح و يمنح لحياتهم على الأرض معنى أبعد من تراب منثور و فناء أبدي ..

إذن ، ماتشو بيتشو أكثر من مجرد مدينة آثار. هي قلب حيّ ينبض على قمم الجبال انتزع من باطن الأرض و قدم كقربان للسماء على تقاليد الإنكا، يظل مشرقًا بحضور الأرواح، ويرتبط بالكون في حركة غير مرئية. و حتى يومنا هذا ، يظل هذا المكان خزينة للأسرار الروحية التي لا تقدر الأيدي على لمسها أو العقول على فهمها بالكامل .. **إنها ليست مجرد حجارة وأبنية، بل هي الروح التي اختبأت هناك، تنتظر أن يفهمها العالم.**

في مكانٍ آخر من البيرو ، في قلب صحراء جافة لا تعرف المطر إلا لمامًا، تمتد **خطوط نازكا** العملاقة كأنها وشم على جسد الأرض، رسائل من أرواح مجهولة حفرتها أيادٍ لم تطلب مجدًا أرضيًا، بل أرادت أن ترفع البصر إلى السماء. هناك، بين الطائر الطنان والكندور والعنكبوت تتجلى الروح وهي تتقن لغة الرمز، كأنها تقول :

(الوجود ليس ما تراه العيون، بل ما يُقرأ في صمت

ت الأفق حين تتحول الأرض إلى كتاب)

خطوط نازكا لم تُرسم كي يراها الإنسان من الأرض، بل لتُشاهد من علو، من عين الروح، من منظور الطائر الذي يراقب من السماوات. إنها حوار بين الأرض وأبناء الشمس، بوابة غير مرئية بين الجسد الثقيل والروح الخفيفة، حيث تتحرر الكائنات من حدودها وتعود إلى جوهرها الطليق.

ثم... بعد أن تترك الروح أثرها على الأرض، تبدأ رحلتها إلى الأعلى. هنا يظهر الرابط الخفي بين خطوط نازكا و ماتشو بيتشو. فالمدينة المعلّقة بين الجبال ليست مجرد حجارة مرصوفة، بل تجسيد لارتقاء الروح نفسها. و إذا كانت نازكا هي الروح وهي تكتب رسائلها

على الأرض، فإن ماتشو بيتشو هي الروح وقد وجدت طريقها إلى الأعالي لتقطن السماء في قمم الجبال، حيث تتحول تلالها إلى معابد، و دروبها إلى صلاة، والغيوم إلى ستائر تفصل بين عالمين.

هكذا، يصبح المسار واضحًا ، في صحراء **نازكا** ، الروح تُرسم على الأرض، تتعلّم اللغة الأولى للكون. أما في **ماتشو بيتشو** ، فالروح تتسلق الجبال، وتجلس على عرش الغيوم، شاهدةً على خلودها.

كأن حضارة الأنديز أرادت أن تقول *:(الروح لا تنتمي لمكان واحد. إنها تسافر بين الأرض والسماء، بين الخطوط المنبسطة والقمم العالية، بين الصحراء الجرداء والجبال المزهرة. الروح تكتب، ثم ترتقي. تترك أثرها على الرمل، ثم تبني هيكلها في السحاب.. تودع الجسد الأرضي لتستقر في جسد سماوي)*

****

سأسافر في إجازتي لأرى آثار الأمم الخالية ..

كلام يتكرر كثيراً على ألسنة البشر الذين يعشقون السياحة و التعرف على الحضارات القديمة فيتنقلون بين البلدان و يملؤون عيونهم بمشاهد أثرية عظيمة و عقولهم بأخبار الأزمنة الغابرة .. لكن هل نحن بحاجة حقاً لكل هذا الجهد الجسدي و التكاليف الباهظة و

الساعات الثمينة لتحقيق هذا الحلم .. ؟!

بالطبع لا .. تعال معي عزيزي القارئ كي نزور سوياً أشهر الأماكن الأثرية حول العالم و نحن جالسان في مكانينا و بجوارنا كأس متة أو فنجان قهوة أو قدح شاي ، حيث سأجعل من هذه المغالطة فرصة للسفر بالزمن إلى الوراء كي نشهد ما شهده الأسلاف بعيوننا - و لو للحظات - و ذلك بالتنقل عبر المحطات الثلاثة التالية :

① هنا عاشوا ..

② الآثار و آلة السفر بالزمن ..

③ أشهر المعالم الأثرية حول العالم ..

لذا ضع قبعتك ، ارتدِ حقيبتك و أمسك عصاك و هيا بنا في مغامرة مثيرة بين أزقة التاريخ ..

أولاً ، هنا عاشوا :

في حضرة الأماكن الأثرية، يشعر الإنسان أنه لا ينظر بعينيه فقط، بل ينظر بعيني الزمن ذاته. يقف وسط الأعمدة المتآكلة والجدران التي لامستها أيدي آلاف البشر، فيدرك أن ما يراه اليوم هو المشهد نفسه الذي ارتسم أمام عيون أولئك الذين عاشوا قبل قرون طويلة. هنا ينهض الحاضر ليلتحم بالماضي، وتتحول النظرة العابرة إلى نافذة على أزمنة غابرة، كأن الجدران تحوي

سرّ القدرة على حفظ البصر والذاكرة معًا.

يتلفت الزائر بين الزوايا والحجرات، فتتسرب إلى خياله صور أناس عاشوا حياتهم هنا : امرأة تحمل جرّة ماء وتعبر الممر، جندي يتكئ على رمحه في ظل عمود شاهق، طفل يركض بضحكة تتردد بين الجدران، وكاهن يرفع صلاته نحو السماء. كل زاوية تنبض بأحداث وقعت بالفعل، كأنها لا تزال مستمرة في فضاء خفي، تنتظر من يفتح قلبه ليراها. إن الأثر لا يصمت أبدًا، بل يروي عبر الصدى والظل قصصًا عن العشق والحروب والولادات والأفراح والجنائز.

ثم يزداد اندهاش العقل : كيف استطاع هؤلاء أن يبنوا بهذه الدقة والجلال دون الآلات الحديثة ؟ كيف رفعوا الحجارة الضخمة، وكيف رسموا الزخارف بخطوط لا تزال متألقة بعد مئات السنين ؟ الأسئلة لا تأتي لإيجاد أجوبة، بل لتغرس فينا تواضعًا أمام عبقرية الإنسان القديم، وإدراكًا أن حضارتنا اليوم ليست إلا امتدادًا لما بدأه أولئك البناؤون والشعراء والحكماء.

في تلك اللحظة، يدرك المرء أن الجمال الحقيقي للأماكن الأثرية ليس في حجارتها الباردة فحسب، بل في كونها مرآة للروح الإنسانية، تُمكّننا من أن نرى بأعيننا ما رآه أسلافنا، ونشعر بما شعروا به، ونقف على العتبة الرقيقة التي تفصل الحاضر عن الماضي. إنها ليست أماكن، بل **جسور سرمدية** ، **تبقي الإنسان متصلًا بما كان، ليعرف معنى ما هو كائن، وما قد يكون.**

ثانيًا ، الآثار و آلة السفر بالزمن :

زيارة الأماكن الأثرية تشبه امتطاء آلة زمن لا تصدر ضجيجًا، بل تهبك صمتًا مهيبًا يفتح أمامك أبواب الماضي. ما إن تخطو بين الأعمدة المتداعية أو تسير فوق أحجار صقلتها أقدام الأجيال، حتى تشعر بأنك تُنتزع من لحظتك الحاضرة لتُلقى في حضن قرون غابرة. إنك لا تسافر بجسدك وحده، بل بروحك التي تتشرب من هواء المكان أنفاس أولئك الذين كانوا هنا: العمّال الذين رفعوا الجدران، والملوك الذين حكموا القصور، والتجار الذين تبادلوا السلع والابتسامات، والعشاق الذين مرّوا خلسة في الأزقة المطمورة بالحنين.

كأنك تعيش زمنًا لم يعد موجودًا، تلمسه في ملمس الحجر البارد وتسمعه في صدى الريح بين الشقوق.

حضارات اندثرت، لكنها لم تمت؛ بل تحولت إلى آثار تشهد أنهم كانوا يومًا ما أحياء يضجون بالحلم والطموح. البشر الذين صنعوا هذه العجائب رحلوا منذ أمد بعيد، لكن إرادتهم باقية، منقوشة في كل جدار، مزروعة في كل حجر، شاهدة أن الإنسان مهما انطفأ جسده، يترك خلفه أصداء تحاكي الخلود.

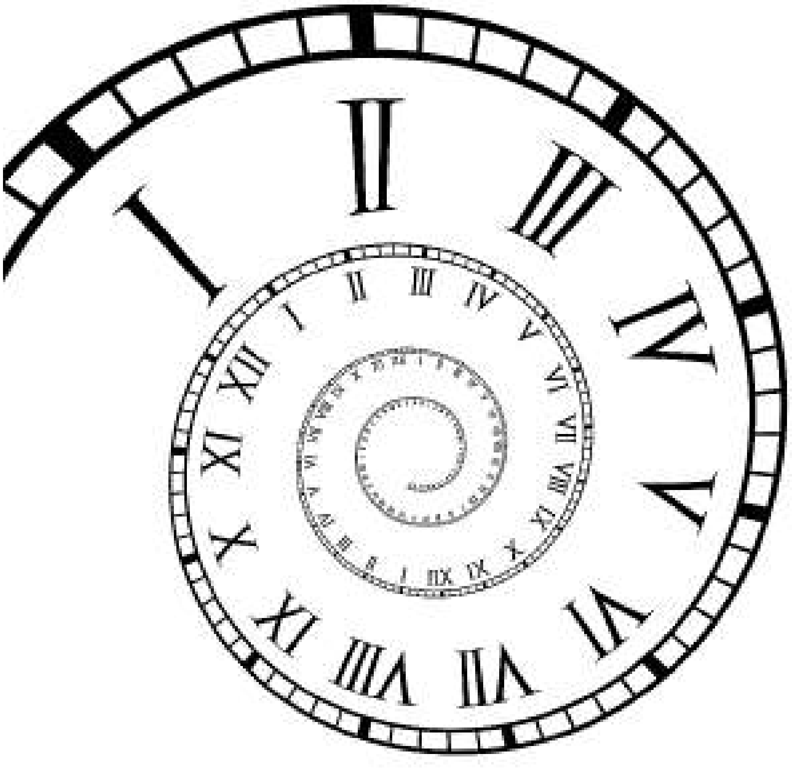

إنها رحلة عابرة للأزمنة، حيث يسقط الفارق بين الأمس واليوم. ترى نفسك تمشي في ممر قديم، فتشعر وكأن خطواتك تلتقي بخطوات مجهولة عبرت المكان منذ ألف عام، وكأن الزمن ليس خطًا مستقيمًا بل دائرة، يعيدك دائمًا إلى حيث بدأ الحلم الإنساني. وفي تلك اللحظة، تدرك أن زيارة الأماكن الأثرية ليست ترفًا سياحيًا، بل تجربة فلسفية عميقة؛ إنها مواجهة مباشرة

مع سؤال الوجود نفسه : من نحن في هذا الموكب الطويل ؟ وكيف سنُترك نحن أيضًا خلف أثر ما، يزورنا به القادمون بعد رحيلنا ؟

ثالثًا ، **أشهر المعالم الاثرية حول العالم** :

في كل حجر مكسو بغبار القرون، وفي كل جدار متداعٍ يتحدى الريح، هناك قلبٌ يخفق بصوت الماضي.
الأماكن الأثرية ليست بقايا جامدة، بل أبواب سرية، إذا عبرها الزائر، وجد نفسه مسافرًا عبر الزمن، يلمس وجوه الذين عاشوا ورحلوا، ويسمع أنفاس حضارات لم تعد بيننا إلا كأصداء. إنها مرايا كبرى، حين ننظر إليها، لا نرى التاريخ فقط، بل نرى أنفسنا، نتأمل ما كنّاه، وما قد نصير إليه.. فحين يقف الإنسان أمام أثرٍ قديم، لا ينظر إلى مجرد حجر أو جدار متداعٍ، بل يواجه انعكاسًا لذاته في مرآة الزمن. إنّ الأماكن الأثرية هي تجلّيات الروح البشرية وقد تكلست في حجارة وصروح، شاهدة على أن الإنسان ليس كائنًا عابرًا، بل صانع معنى، يترك بصمته حتى بعد أن يغيب. في كل أثر، تختبئ قصة عن حُلمٍ سعى أصحابه للاقتراب من الخلود، أو عن حضارة آمنت أنها جديرة بأن يذكرها المستقبل.

انظر إلى **أهرامات الجيزة**، هذه الأوتاد العملاقة المغروسة في قلب الصحراء المصرية منذ أكثر من

أربعة آلاف عام. إنها ليست مقابر ملوك فحسب، بل إعلان صريح عن تحدي الإنسان للفناء. ملايين الحجارة صُفّت بدقة رياضية، حتى غدت الأهرامات كتابًا صامتًا يعلّم كل زائر أن الحضارة تبدأ من الإيمان بأن اليد البشرية قادرة على مقارعة الزمن. الشمس تشرق عليها كل يوم لتكتب بالحزم الضوئية التي تتعامد مع الأهرامات بطريقة معينة تخبئ كثيراً من الأسرار أن الإنسان أكبر من موته.

وفي أقصى الشرق، يمتد **سور الصين العظيم**، كأفعى حجرية تزحف على الجبال، يربط الأرض بالسماء. بناه الأباطرة لحماية ممالكهم من الغزاة، لكنه أصبح فيما بعد رمزًا لصبر الإنسان حين يجتمع على مشروع

يتجاوز الأجيال. فوق أبراجه، حيث تعصف الرياح، يسمع الزائر صدى الجنود الذين رابطوا هناك قبل قرون. الجدار لم يعد حصنًا عسكريًا فحسب، بل صار جدارًا بين النسيان والذاكرة، يذكّر كل عابر بأن الحضارات لا تقوم إلا إذا تجرأت أن ترسم وجودها على وجه الأرض.

من الصحراء والجبال ننتقل إلى وادٍ مخبأ في قلب الأردن، حيث تنهض **مدينة البتراء الوردية**. هنا شقّ الإنسان الجبل ليحفر داخله مدينة كاملة، كأنما أراد الأنباط أن يجعلوا من الحجر كائنًا حيًا. الألوان الوردية تتبدل مع الشمس، فتعكس جمالًا لا يُشبه إلا القصائد. في الممر الضيق **"السيق"**، يشعر الزائر أنه يخطو بين

صفحات كتاب أسطوري مفتوح، حتى إذا وصل إلى **"الخزنة"**، انبهر بوجه معبد محفور بيدين آمنت أن الجمال يمكن أن يُخلّد في الصخر. البتراء ليست مدينة حجرية فقط، بل مسرح صامت لقصص التجارة والصلوات والطقوس التي كانت تعجّ بها الأزقة قبل ألفي عام.

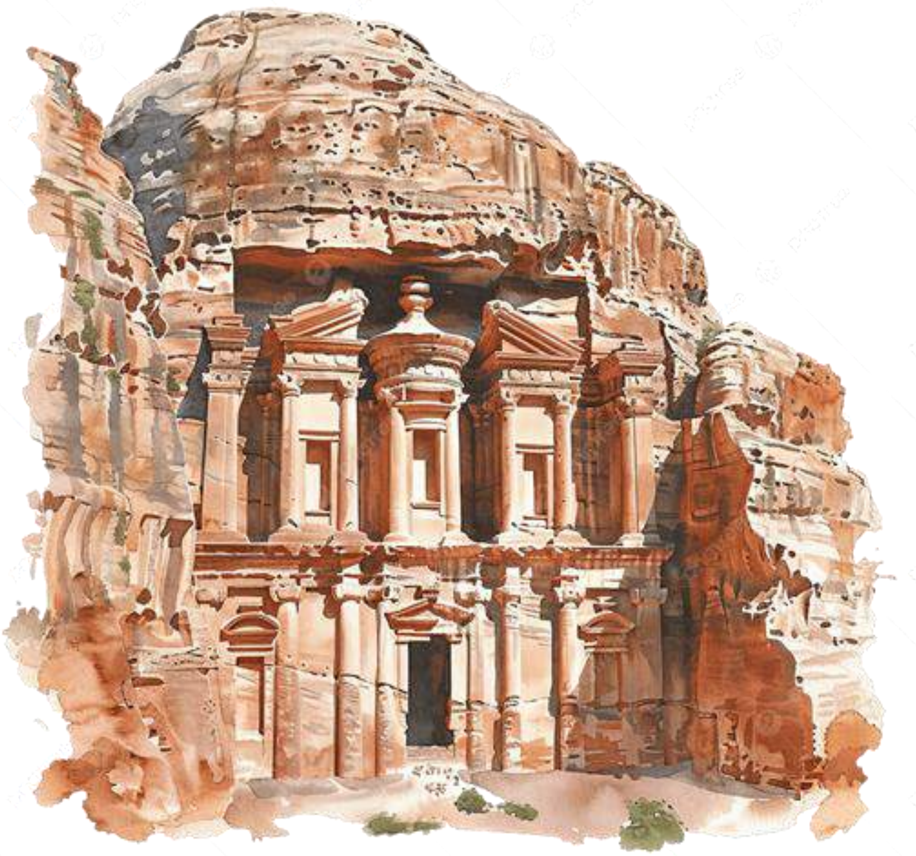

وفي قلب روما، ينهض **الكولوسيوم** كجسدٍ حجري شاهق، مدرج احتضن بين جدرانه أهازيج الجماهير وصليل السيوف. هنا كانت تقام ألعاب المصارعين والاحتفالات الإمبراطورية، وكان الموت نفسه يتحول إلى عرض مسرحي يُصفق له الناس. عبقرية هندسية جعلت بناءه يقاوم الزلازل والحروب لقرون طويلة،

لكنه في الوقت ذاته يكشف عن الوجه المزدوج للحضارة : حيث يلتقي الفن والدم، الجمال والقسوة. الكولوسيوم اليوم لا يروي تاريخ الرومان فقط، بل يذكّرنا جميعًا أن الإنسان قد يبني مجده أحيانًا على أنقاض حياة الآخرين.

وعلى السهول البريطانية، تقف **أحجار ستونهنج** كأيتام في مواجهة الريح. حلقات حجرية ضخمة عمرها خمسة آلاف عام، ما زال سرها لغزًا : أكانت مرصدًا فلكيًا ؟ معبدًا للشمس ؟ أم بوابة للآلهة ؟ الحجارة مصطفة بدقة مذهلة مع مواقع الشروق والغروب في الانقلابات

الشمسية، وكأنها تعلن أن الإنسان منذ أقدم عصوره لم يكن يسعى إلى البقاء فقط، بل كان يحاول فهم إيقاع الكون نفسه. في صمتها، يشعر الزائر أنه أمام تقويم سماوي من حجر، رسالة من أسلافنا بأن الإنسان لطالما سعى لتأويل لغز الوجود.

في قلب آسيا الاستوائية، ينهض **أنغكور وات** كمحراب حجري عملاق، محاط بالغابات الكثيفة والأنهار. بناه الملك سوريَفارمان الثاني في القرن الثاني عشر كأكبر معبد ديني على وجه الأرض. جدرانه المكسوة بالنقوش تروي أساطير معارك الآلهة الهندوسية بدقة فنية تُدهش العقول. لكن أنغكور وات ليس مجرد معبد، بل هو انعكاس لفلسفة كاملة : الكون تجسّد في حجر، والجبال

والبحار صيغت على شكل صروح وجدران. حين يشرق الصبح، يشتعل المعبد بالضوء، فيشعر الزائر أن الشمس نفسها انحنت احترامًا لهذا الإبداع الخالد.

أما في أقصى المحيط الهادئ، على جزيرة معزولة، تنتصب **تماثيل المواي في جزيرة الفصح**. وجوه حجرية هائلة تتجاوز الثمانية أمتار، صامتة لكنها مشبعة بالهيبة. يقال إنها صُنعت تكريمًا للأجداد لتمنحهم الخلود وتحرس الجزيرة. كيف نُقلت هذه الأحجار الضخمة عبر التلال؟ لا أحد يعرف على وجه اليقين. لكن ما نعرفه أن هذه الوجوه تواجه الأفق وكأنها تنتظر شيئًا لن يأتي. هي صمت حضارة بَنَت ثم اختفت، تاركة

للعالم أكثر الأسئلة غموضًا من الإجابات.

وإذا عدنا إلى وادي الرافدين، نجد **بوابة عشتار**، جوهرة بابل الزرقاء. كانت جزءًا من الطريق الموكبي الذي يقود إلى قلب العاصمة، حيث يمر الملوك في احتفالات تعلن قوة الإمبراطورية. طوبها المزجج يلمع بلون أزرق عميق، محفور عليه الأسود والتنانين والثيران كرموز للهيبة والسيادة. لم تكن البوابة مجرد مدخل لمدينة، بل كانت لوحة سماوية مرسومة على الأرض، تقول للعالم إن بابل ليست قوة عسكرية فقط، بل أيضًا موطن فن وجمال.

لنسافر الآن إلى بلاد الإغريق، فهناك على تلة صخرية في أثينا، ينهض **الأكروبوليس** كعرش للحكمة والفن. معبد البارثينون بأعمدته المهيبة يشهد على ولادة الفلسفة والديمقراطية في قلب اليونان القديمة. هندسة دقيقة تجعل الأعمدة تنحني قليلًا للداخل، فيوهمك أنها أكثر استقامة مما هي عليه. هذا الذكاء الهندسي لم يكن غاية جمالية فحسب، بل رمزًا لفلسفة الإغريق التي رأت في الجمال طريقًا إلى الحقيقة. من فوق الأكروبوليس، يرى الزائر المدينة كلها، كما لو أن الحجر نفسه يطلّ على المستقبل.

لنغص الآن في مغامرة شيقة في قلب الغابات المكسيكية

، حيث تتعانق الطيور الاستوائية مع صدى الطبول القديمة، تقف **تشيتشن إيتزا** كأنها مرصد سماوي من حجر. معبد كوكولكان المدرّج يعلو كسلّمٍ إلى السماء، بُني بدقة تجعل الشمس ترسم على درجاته ظلال أفعى مقدسة في أيام الاعتدالين، كأنما الأرض تتحدث بلغة الضوء. هنا، لم تكن العمارة مجرد حجارة، بل كانت تقويمًا فلكيًا، يقيس إيقاع النجوم ويربط حياة البشر بالكون كله. زيارته أشبه بالوقوف في ملتقى الزمن، حيث تلتقي المعرفة بالأسطورة.

وإلى الشمال قليلًا، تفتح **تيوتيهواكان** أبوابها كمدينة صامتة تراقب المدى. تُسمى مدينة الآلهة، وفيها ترتفع أهرام الشمس والقمر ككتفين عملاقين يحملان السماء. لم يبق أحد من ساكنيها ليحكي القصة، لكن الشوارع العريضة والجداريات الملوّنة تروي عن شعبٍ بنى حضارة عظيمة ثم تلاشى في غموض. هناك، حين تصعد درجات هرم الشمس، يغمرك شعور بأنك تعيد

طقسًا مقدسًا مارسه إنسان قديم، وأنك في تلك اللحظة لست زائرًا فحسب، بل مشاركًا في عبادة كونية عمرها آلاف السنين.

المكسيك لا تقدم مجرد أطلال، بل مسارح مفتوحة لأسرار الزمن. كل حجر فيها يهمس أن الحضارات قد تنهار، لكن شغف الإنسان بفهم موقعه بين السماء والأرض هو ما يمنح وجوده معنى لا يزول.

وهكذا، حين نسافر بين هذه المعالم، ندرك أن الحضارات على اختلاف لغاتها وطقوسها تقاطعت في هدف واحد: ترك أثر يتحدى الفناء. من مصر إلى الصين، من الأردن إلى اليونان، من كمبوديا إلى جزيرة الفصح، تتكرر الحكاية نفسها: الإنسان يصنع، يرحل، وتبقى آثاره تروي قصته. الأماكن الأثرية ليست حجارة ميتة، بل ذاكرة حية للعالم، وشهادة على أن الإنسان كان دومًا أكبر من عمره الفردي.

وحين تُغلق الرحلة أبوابها، ندرك أن هذه المعالم ليست

أطلالًا صامتة، بل رسائل بعثتها إلينا القرون. إنها تذكّرنا أن الإنسان كائن عابر لكنه مُصِرّ على أن يُخلّد نفسه بالرمز والحجر والفكرة. كل أثر هو شهادة أننا لم نعش بلا معنى، وأننا حاولنا دائمًا أن نترك خلفنا نورًا يقاوم ظلمة النسيان. ربما، في المستقبل البعيد، سيقف آخرون أمام آثارنا نحن، فيرون في حجارتنا ما نراه اليوم في آثار الأجداد : أن الإنسان يزول، لكن أثره يبقى، شاهدًا أن الحلم أعمق من العمر، وأطول من الزمن.

******

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**الوقوف على الأطلال**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= الآثار مجرد خردة حجرية لا معنى لها .. فلنهدمها و نبني مكانها سكناً للأجيال الجديدة ..

بل أن نقول :

= الآثار هي وصية و ميراث أسلافنا لنا .. هي الخيط الرفيع الذي يربطنا بمن رحلوا ، فإن نحن قطعناه بقينا بلا جذر ، بلا أصل ، بلا معنى ..

يقول **مارك توين** :

(لا تكتمل رحلتك في الحياة إلا إذا جلست أمام آثار الماضي لتستمع إلى صدى العصور الغابرة)

و أرجو أن أكون قد وفقت في هذه المغالطة في إكمال جزء من رحلتك هذه عزيزي القارئ بما زرناه من أشهر الأماكن الأثرية على الكوكب ..

الفنّ الخلّاق

(أثبت للعالم أنك موجود)

تايلاند / بانكوك ...

في ربوع بانكوك الساحرة و مع أولى أنفاس النهار ، استيقظ أوليفر متجدّدًا من نومه العميق الذي طال حوالي **13** ساعة في الطائرة ، كما خطط مسبقا بالضبط ، ليصل إلى المدينة في أوج نشاطها. خرج من فندقٍهِ الهادئ الذي يحتضن روح الشرق وغموضه، تنفس عبق المدينة التي تلاحقها أسرار الزمن، وتخطو بأقدام لا تعرف الكلل في شوارعها الحافلة بالحياة والصخب.

توجه بخطى واثقة نحو قلب المدينة، حيث قاده فضوله إلى **حديقة لومبيني**، تلك الجوهرة الخضراء التي تلوح كواحة غناء في صحراء من الإسمنت والخرسانة.
هناك، احتضنته الطبيعة بنفحاتها الاستوائية، وأشجارها الكثيفة التي تتلوى كأغصان الزمن العتيق، تحرس بحيرة صافية تشبه مرآة السماء، تتراقص على سطحها طيور البط بلحن سلامٍ هادئ، وكأنها تهمس للحياة أن تستمر رغم كل ما يعتريها من ضجيج وعناء.

جلس على مقعد خشبي عتيق، وغاص في تأمل هذه اللوحة الحية التي تلملم بين ألوانها بهجة الطبيعة وهدوء الأرواح. تذكر **بحيرة إبسي** في **غارميش بارتن كيرشن**، مسقط رأسه، وكيف كانت ملاذه في أيام الشتاء القارس و الصيف الملتهب و ما بينهما . شعوره هناك

كان وكأنه يحمل بين يديه قصص آلاف القلوب التي تنبض بصمت بعيدًا عن صخب المدن الكبرى.

نهض، وألقى نظرة على ساعته، شعر بشغف متجدد يحثه على الاستمرار رغم رهبة ما ينتظره. توجه بخطى متسارعة إلى ميدان المدينة الواسع حيث يقف **تمثال بوذا الكبير**، ذلك العملاق الرزين الذي بدت هيبته تُغيّر مقاييس الزمان والمكان. وقف و عيناه مشدوهة أمام جلال التمثال الذي يعلو فوق الميدان بوقار يفوق الوصف حتى بدا أوليفر أمامه ككوكب صغير في فضاء الكون الشاسع، و شعر بأن صمود التمثال هو رسالة سلام للعالم كله.

يد التمثال الضخمة، كانت ممدودة بإصبع السبابة، و تشير بهدوء نحو مبنى بعيد، كأنها تهمس لأوليفر بسر

مدفون في عمق ذلك الأفق. ضربات قلبه تزايدت، وأحسّ بنبض المغامرة يدعوه للمضي قدمًا في ذلك الاتجاه، كأنما كل خطوة تقترب منه، تكشف له صفحة جديدة من سر الكون الذي يبحث عنه.

عندما وصل إلى المبنى، اكتشف أن الطابق الأرضي منه عبارة عن مركز فني، كما كان مكتوبًا على واجهته. يحتضن في رحابه أعمالاً فنية متنوعة من هواة وشباب صاعدين، إلى محترفين على حد سواء، خاصة اللوحات. تذكر فورًا السيد عزيز وعشقه الشديد للرسم، وشعر بأنه على الطريق الصحيح، وأن أحاجيه لا زالت تقوده نحو هدفه بدقة متناهية كالعادة ..

لم يتردد لحظة، ودخل إلى المركز، ليجد نفسه في قاعة واسعة، منظمة بشكل مثير للإعجاب، ومكتظة بالزوار المنتشرين في زواياها المختلفة، حيث يقفون أمام اللوحات والمنحوتات، يحاولون تفسير معانيها، يقيمون جودتها، أو يمرون عليها بسرعة دون تعليق إن لم تشبع ميولهم الفنية أو تصبغ سقف توقعاتهم.

تجوّل أوليفر بين اللوحات واحدة تلو الأخرى، باحثًا عن أي علامة أو دليل مرتبط بالأحجية التي أرسلها له السيد عزيز، دون أن يلفت انتباهه شيء مميز حتى وصل إلى زاوية هادئة في المركز.

هناك، وقفت أمامه لوحة استحوذت على اهتمامه بشدة، لم يشك للحظة أنها المقصودة، وأنها من رسم السيد عزيز. كانت تمثل خروج الفراشة من شرنقتها، كما ورد في الأحجية تمامًا. نظر فورًا إلى التوقيع في أسفل اللوحة، ووجد اسم عزيز مكتوبًا بخط واضح وأنيق.

كانت اللوحة نموذجية لأسلوب السيد عزيز : بسيطة، دقيقة، معبرة، متناظرة في نصفين، أحدهما يمثل أزهارًا هي معشوقة الفراشات، والآخر أحد جناحي الفراشة. أما في المنتصف، فتم تصوير الشرنقة نفسها، التي تخرج منها الفراشة رويدًا رويدًا، في حركة دلالية تعبّر عن التحول والولادة.

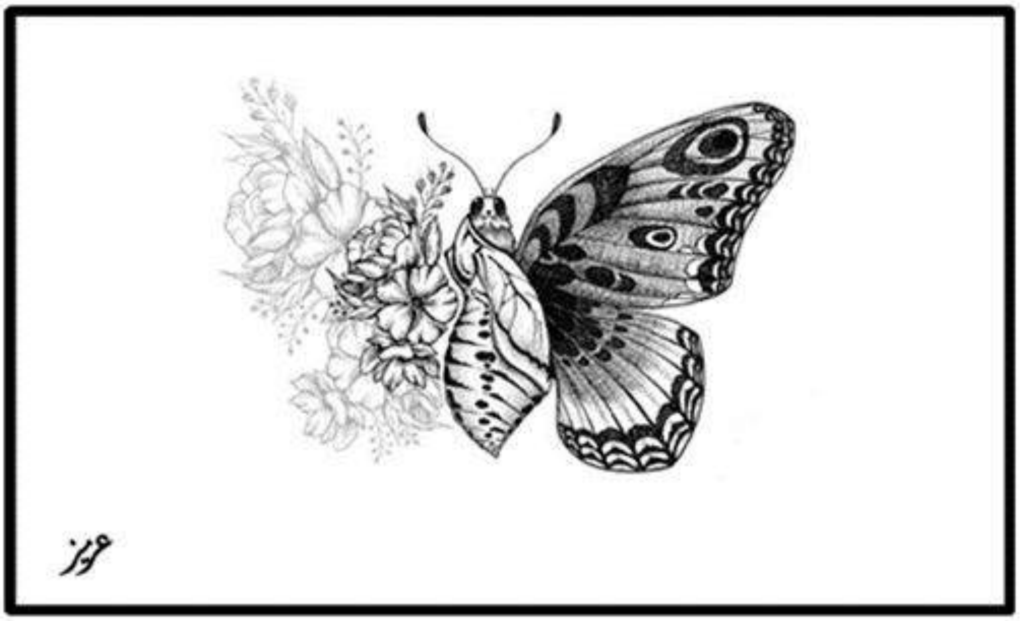

أخرج هاتفه الذكي وقام بتصوير اللوحة بدقة، متأكدًا أنه أمام مفتاح جديد لفهم أحاجي السيد عزيز.

تلفت من حوله، متفحّصًا وجوه الحاضرين في الصالة،

بحثًا عن الشخص الذي يفترض أن السيد عزيز يريده أن يلتقي به، كما حدث في رحلاته السابقة.

لاحظ رجلاً بين الخمسين والستين من العمر، من السكان المحليين بملامحه المتجعدة و عينيه الضيقتين ، كان يتحدث مع الزوار بنبرة ودودة و يشرح لهم ماهية الأعمال الفنية المعروضة، فبدا كأنه مالك المركز أو مديره. اقترب منه أوليفر مباشرة وألقى عليه التحية، وكأنه يبدأ فصلاً جديدًا في رحلة معرفية و فنية.

● مرحباً سيدي.. أنا أوليفر، هل حضرتك مسؤول عن المركز؟

○ أهلاً سيد أوليفر، أجل أنا المسؤول وأدعى **سوم ساك**..

● أهنئك على التنظيم الفريد والانتقاء المميز للوحات

○ شكراً، أصبح لدي بعض الخبرة في هذا المجال فأنا أقيم المعرض سنوياً، و أصبح ذي شهرة واسعة في البلاد ، يشارك فيه العديد من الفنانين الهواة والمحترفين.. أختار له عنواناً كل عام بحسب اللوحة الأجمل و هو هذا العام بعنوان (**الشرنقة**) نسبة إلى لوحة الشرنقة و الفراشة...

● لوحة السيد عزيز اليقين ؟

○ بالفعل !! .. هل تعرفه ؟

● أجل، إنه صديق لي، وهو من اقترح عليّ زيارة المعرض والتعرف عليك فقد أشاد بك بشدّة .. لكن كيف تعرفت أنت على السيد عزيز؟

○ إنها حكاية طويلة لا مجال لأن أقصها الآن، إذ يتوجب عليّ كما ترى أن أناقش الزوار و أشرح لهم عن اللوحات، لكن إذا أحببت يمكننا أن نلتقي مساءً لمتابعة الحديث .. فالسيد عزيز.. عزيز عليّ للغاية ..و هذا يشمل أصدقاءه بالطبع ..

● يبدو ذلك مناسباً، هل يناسبك اللقاء على الساعة السابعة عند القصر الكبير؟

○ مناسب تماماً ، ألقاك هناك إذاً ...

ودعه أوليفر و قفل عائداً إلى الفندق مع ابتسامة انتصار و رضا منقوشة على وجهه تنافس ابتسامة **وينستون تشرشل** عقب انتصاره بالحرب العالمية الثانية ، فقد كانت تحليلاته كلها بخصوص الأحجية صائبة و قادته بنجاح إلى لوحة جديدة و شخص آخر يحمل لديه في المساء حكاية شيقة بدورها كعادة السيد عزيز...

*****

موعد عند القصر الكبير ..

على تمام الساعة السادسة و النصف وصل أوليفر إلى

بوابة القصر الكبير، وقد بدا في عينيه مزيج غريب من النشوة والتوق، كمن يقترب شيئًا فشيئًا من لبّ نبوءة لم يفهمها بعد، لكنه يشعر بقوتها تتسلل إليه من تحت جلده. كانت الشمس تتهيأ للغياب، ترشُّ على القباب المزينة بورق الذهب وأطراف الأسطح المزخرفة نورًا أخيرًا بلون العنبر، فيخلق الظلالَ طويلةً هادئة، كما لو أن الزمن نفسه يهمس له بالتريّث... القصر الكبير بناءً على المعلومات التي جمعها من الشبكة العنكبوتية يتألف من مجموعة مباني متلاصقة ، و يعتبر **قصر ملوك تايلاند التاريخي** من القرن **17** .. لقد تعمد المجيء مبكراً كي يتسنى له بعض الوقت لزيارة معالم هذا القصر المذهل كحال معبده الشهير و تمثال بوذا المقدس ذي اللون الزمرّدي فيه و الذي يعود إلى القرن **14** .

على تمام السابعة تماماً وصل السيد سوم ساك إلى القصر و كان أوليفر بانتظاره عند بوابته فألقى عليه

التحية مبتسماً ..

- ما رأيك سيد أوليفر أن نتمشى و نتكلم .. ؟
- ○ هذا يبدو جيداً، تفضل...

مع السير بين مباني القصر مختلفة الاشكال و الأحجام و الألوان كجواهر نفيسة متلألئة في طوق، أخذ السيد سوم ساك يقص على أوليفر حكايته الغريبة و المفعمة بالإنسانية و العبر ..

- تعرفت على السيد عزيز وللمصادفة في هذا القصر بالضبط منذ **7** سنوات، كنت بصحبة زوجتي **أرانيا** التي كانت حزينةً ويائسةً في تلك الآونة لدرجة فطرت قلبي ، فقد تعافت للتو من **مرض نفسي مزمن** عانت منه لسنوات.. أدخلت بسببه إلى مصحة للأمراض النفسية، و عندما خرجت منها لم تكن سعيدةً على الإطلاق، فهي لا تعرف ماذا تفعل في حياتها التي عطلها المرض لسنوات ثمينة من شبابها .. لذا كانت تشعر **بفراغ نفسي هائل**...

رآها السيد عزيز وهي تصلي عند تمثال بوذا الزمردي و ترجو السماء باكيةً أن تنتشلها من حياتها العبثية الراهنة .. فدخل في حديث معنا لمعرفة سبب بكائها بمنتهى النبل و الإنسانية ، فهم قصتها و تعاطف معها

للغاية ، ثم نصحها **بممارسة الفن و الرسم خصوصاً فهو يعدل نفسية الإنسان، يرممها ويجعل للحياة معنى و غاية ...**

فحسب فلسفة السيد عزيز **الرسم شكل من أشكال الخلق، كالإنجاب تماماً حيث أنك تصنع من العدم شيئاً مع كل لوحة جديدة، وذلك يمنح الإنسان شعوراً بالوجود و التأثير و الفاعلية..**

و بالفعل أصغت أرانيا لنصيحته كأمل أخير ينقذها من واقعها المؤلم و فراغ وقتها القاتل .. فبدأت بالرسم، و خلال أشهر قليلة أصبحت متقنةً له ، إذا تبين أنها تملك موهبة دفينة منقطعة النظير أحياها السيد عزيز فيها..

فتغيرت نفسيتها **180** درجة بعدها ! و عادت من جديد تشعر بالسعادة و الرضا و الإنجاز بعد سنوات من العيش كئيبة في المصح فعوضها الله عن حرماننا من الأطفال بعشرات الأبناء من لوحاتها المتقنة و المذهلة ..

و إيماناً منها بأهمية الفن و تأثيره الهائل على نفسية الإنسان ونظرته لنفسه وللحياة إضافةً إلى انتشاله لها من قاع ذلك المستنقع الذي غرقت فيه لسنوات ، فقد قررت مشاركة تجربتها مع الآخرين وإفساح المجال للمواهب الجديدة في الفن أن تعرض أعمالها أمام الآخرين لتحظى بفرصة تبني موهبتهم و الشهرة ، فأنشأت هذا المركز ليقام سنوياً ، و لا تصدق سيد أوليفر عدد الفانين الموهوبين الذين خرجوا من باب هذا المركز إلى عالم الشهرة فتغيرت حياتهم جذرياً ..

○ قصة مذهلة مفعمة بالمشاعر الإنسانية و العبر .. لكن لماذا لم تتواجد زوجتك في المركز رغم كونها صاحبة الفكرة بتأسيسه ؟

● لأنها حالياً في جولة بين **سنغافورة**، **روسيا و الهند**، تشارك في معارض دوليةً للرسم ...

○ رائع .. ما هذه النقلة النوعية في حياتها .. من التقوقع على ذاتها دون تأثير فيمن حولها إلى زيارة أشهر بلدان العالم و عرض موهبتها الجديدة الفذة على

الجميع !!

● بالفعل .. و الفضل في ذلك بعد الله هو للسيد عزيز بالطبع .. لقد تواصل معنا هذا العام و سرَّ أيما سرور بتجاورها محنتها، فأطلق عليها اسم الفراشة، لكونها **خرجت من أيام المصح الكئيبة و المظلمة كالشرنقة إلى الحياة الواسعة ونشرت البهجة كالفراشة بين الناس من حولها**، ثم شارك بلوحته (**الشرنقة**) في هذه السنة كما رأيتها بنفسك في المعرض ..

واصل أوليفر وسوم ساك نزهتهما الليلية بين جدران القصر، يتجاذبان أطراف الحديث كما يتبادل البحّارة خرائط النجوم. كان الوقت يمرّ بخفة النسيم فوق النهر، لكن محتوى الحوار يثقل الروح برصانة التجارب، بعمق الحكمة، وبلمحات من الإنسانية المتعبة. وحين اقتربت عقارب الساعة من نهايتها الخفية، صافحه أوليفر بحرارة، وابتسم قائلاً بلغة الامتنان :

○ لقد كنتَ مرآة صادقة في ممرات هذا القصر سيد سوم ساك... أرسل تحياتي لأرانيا و تهاني بخروجها من شرنقتها و وقوفها مجددا على قدميها ، وأخبرها أن زوجها رجل عظيم يعرف كيف يُنصت و كيف يكون السند عندما تنهار جدران الحياة .

ثم انفصلا كما تنفصل أوراق الشجر في نهاية الصيف،

بهدوء، دون ضجيج.

عاد أوليفر إلى الفندق وفي داخله طمأنينة تشبه ما بعد العاصفة... شعورٌ بالنضج، بالتقدّم نحو شيء لا يرى بعد، لكنه يشعر به يقترب. تناول عشاءه بشهية الطفل، وأعدّ كأسًا من المتّة كما يفعل كلّما أراد أن يستدعي أطياف التأمل. ثم خرج إلى شرفة غرفته العليا، حيث بانكوك لا تنام، بل تبرق وتنبض كأنها قلبُ العالم نفسه.

بدت له الأضواء تحت قدميه كأنها نجوم سقطت من المجرة، فراحت تتلألأ بين الشوارع والمعابد والناس، تشبه صندوق كنزٍ تكسّر فوق المدينة، فنثرت جواهره بلا ترتيب.

جلس وأخرج هاتفه ببطء، كأنما يفتح ممرًا سريًا بين الحاضر والماضي، وفتح ملف الزيتونة بإجلال. أضاف إليه العنصر الجديد :

الشرنقة والفراشة

إنها الأنثى مجددًا، تفرض وجودها في كل رمز : الشمس و القمر ، المحارة، الملكة، البيضة، اللؤلؤة... والآن جناحٌ ملوّن يخرج من شرنقته ليعيد تعريف معنى الحياة.

****

الفنّ ..

ذلك العالم الساحر بأطيافه المتنوعة كذيل الديك .. رسم ، نحت ، موسيقا ، تمثيل .. و غيرها .. التي تبهرنا بأعمالها المتفردة و تذهب بخيالنا إلى عوالم بعيدة لا يمكن لنا أن نبلغها في دنيا الواقع .. فتمنح الحياة لمسة لا تخلو من الروحانية ..

لكن ما يغيب عن انتباه الناس عادةً أن الفن بشموليته لا يقتصر على ذلك فحسب بل إن هنالك جانباً آخر منه لا يقل أهمية و إبهاراً .. إنه **الفن الخلّاق** .. عندما تمنح الوجود تحفة جديدة من العدم .. كانت غير موجودة حرفياً ، ثم أبصرت النور بعد أن تكاملت الأفكار في خيالك ..

لذا سأجعل من هذه المغالطة مساحة لتوضيح هذا الجانب أكثر فألقي الضوء عليه من ثلاثة زوايا هامة و شيقة :

① الفن الخلّاق ..

② الفن كعلاج نفسي ..

③ الفن كبوابة لفهم الكون ..

فهيا أمسك فرشاتك عزيزي القارئ و لنرسم معاً ملامح لوحة مغالطتنا الجديدة رويداً رويداً ..

أولاً ، الفن الخلّاق :

في صمت الغرفة المضيئة بضوء خافت، يقف الفنان أمام لوحٍ فارغ أو كتلة رخامية لم تتشكل بعد، وكأن الكون بأسره قد انحسر ليتركه وحيدًا مع لحظة الخلق. هناك، في هذا الفراغ، يكمن السر الأول للفن الخلاق: القدرة على أن يحول العدم إلى وجود، على أن يصوغ من صمتٍ أبدي همسًا نابضًا بالحياة. إن الفنان، في لحظة انصهار مع ذاته، يصبح كيانًا مزدوجًا، نصفه جسدٌ واقعي ينخرط في المادة، ونصفه الآخر روحٌ عائمة في فضاءات لا تحدها حدود. هو يولد العالم من رحم خياله قبل أن يضعه أمام أعين الآخرين، فيصبح كل لونٍ مدهون، كل نقشٍ محفور، كل نغمةٍ أو كلمةٍ منبثقة، بمثابة حياة جديدة بدأت من العدم، حياة لم توجد إلا لأنه قرر أن يجعلها توجد.

الفن الخلاق ليس مجرد تقليد للطبيعة أو إعادة إنتاج للعالم الذي نعرفه، بل هو ابتكار لعوالم لم تُرَ بعد، لعوالمٍ تتأرجح بين الحقيقة والخيال، بين ما يمكن رؤيته وما يستحيل إدراكه إلا بالروح. في كل ضرب فرشاة على اللوح، كل نغمة تهبط على أوتار آلة موسيقية، كل حركةٍ دقيقة للجسد المسرحي، هناك ولادة سرية، تولد شخصية، شعورًا، أو حلمًا كاملاً. إنها ولادةٌ من العدم، لكنها تحمل كينونتها الخاصة، قانونها الداخلي، وتنفسها

الخاص، كما لو أن الفنان لم يكن إلا وسيطًا بين هذه الحياة الجديدة والكون الكبير الذي ينتظر أن يُحكى.

الغريب والمثير في الفن الخلاق هو أنه يتيح للإنسان أن يختبر تجربة الخلق الإلهي بشكل مصغر. فالخيال الإنساني، حين يتحرر من قيود الواقع، ينساب كالنهر في أودية لا يعرفها العقل البشري مسبقًا، ويعيد تشكيل المادة وفق قوانينه الخاصة. كل لوحة، كل منحوتة، كل سيمفونية، كل أداء مسرحي، يحمل في طياته ذلك الشعور الغامض بأننا أمام حياة مستقلة، حياة لم تخلقها الطبيعة ولا الصدفة، بل صاغها فنانٌ من رحم رؤيته، لتصبح شاهدةً على قدرته الخارقة على التحول، على منح الوجود معنى جديدًا.. تماماً كجنين تشكل في رحم خيال الفنان حتى اكتمل ثم أبصر النور ..

وفي هذا الفضاء الغامض الذي يتشكل فيه الفن، يتأرجح الزمن والمكان، فالماضي يصبح حاضرًا، والحاضر يتحول إلى خيال، والمستقبل ينبثق من عملٍ لم يُنجز بعد. الفنان هنا ليس مجرد صانع أشياء، بل هو كيان يصوغ الحياة نفسها من داخل رماد العدم، يمنحها هوية، يحركها، ويجعلها تتنفس. وكل متلقيٍ للفن، مهما كان بعيدًا عن عقل الفنان، يلمس هذه الحياة الجديدة، ويشعر بها كما لو أنها كانت موجودة منذ الأزل، رغم أنها لم تكن سوى فكرة ولدت في مخيلة فنانٍ شغوف.

إن الفن الخلاق إذًا، ليس مجرد إنتاج للمظاهر، بل هو رحلة استكشاف للذات والكون معًا، بحث عن القدرة على إضاءة ظلمات العدم، تحويلها إلى وجود نابض بالحياة، ومنح المشاهد تجربةً لا تشبه تجربة الحياة العادية، تجربة تتعدى حدود المادة لتلامس الروح، حيث يصبح كل عمل فني ليس مجرد كائن، بل كائن حي، يتنفس، يحلم، ويحيى في أفق الخيال الإنساني، خالدًا في لحظة تتجاوز الزمن والمكان.

ثانيًا ، **الفن كعلاج نفسي** :

في عتمة النفس وتشنجاتها الخفية، وفي زوايا الروح المكدسة بالهموم والأوجاع، يطل الفن كضوء خافت، لا يزاحم الظلام لكنه ينساب فيه، يفتح نافذة صغيرة على أفق من الصفاء والسكينة. كل من يلمس ألوان اللوحات،

أو يغمر أذنه في نغم موسيقي، أو يتابع حركة ممثل على خشبة المسرح، يجد في هذا الانغماس فراغًا آمنًا، حيث يمكن للألم أن يتبدد، وللشجن أن يتحول إلى طاقة خلاقه. الفن هنا ليس مجرد رفاهية، بل علاج روحي، ينقّي المشاعر، ويرتب الفوضى الداخلية، ويعيد للذات انسجامها المفقود.. و يجعلك تفهم نفسك الخفية أكثر..

عندما يمسك الفنان فرشاته أو يلامس الطين بيديه، فإنه لا يصنع فقط أشكالًا على سطح، بل يفرغ عبء ذاته، يصرخ بما لا يمكن أن يقوله بالكلمات، ويكتب على لوح الفن ما في داخله من ألم وخوف وشوق. هذه العملية، مهما بدت بسيطة، هي في جوهرها رحلة علاجية، رحلة يختبر فيها الفنان حريته المطلقة، فيُعيد ترتيب مشاعره وفهم نفسه بطرق لم يكن عقلٌ أو قلب يستطيع التعبير عنها. وكل ضربة فرشاة، وكل نغمة موسيقية، وكل حركة على المسرح، تصبح فعلًا طقسيًا للتطهير، طقسًا سحريًا يعيد للجسد والعقل انسجامهما..

كما حدث مع صديقتنا أرانيا في مطلع مغالطتنا ..

أما المتلقي، فهو لا يقل تأثيرًا عن المبدع. عندما يقف أمام لوحة، ويستوعب ألوانها، أو يستمع لمقطوعة موسيقية، أو يعيش مع شخصية درامية على خشبة المسرح، فإنه يدخل حوارًا داخليًا مع ذاته، حوارًا لا يتطلب كلمات. يلتقط من العمل الفني ما يتناغم مع مشاعره، فيغوص في تجربة علاجية صامتة، حيث تتحول الأحزان إلى فهم، و الهموم إلى تأمل ، و الاضطراب إلى سكون. الفن هنا كالمرآة، لكنه مرآة رحيمة، لا ترفض انعكاس ما في الداخل، بل تستقبله، تحلل أشجانه، وتمنحه شكلًا جديدًا، وتجعله أقرب إلى السلام.

الغريب والمذهل في قوة الفن العلاجية، هو أنه يتجاوز حدود العقل الواعي، ويدخل أعماق اللاوعي، يلتقط أحاسيسًا قد ظنها الإنسان ضائعة، ويعيدها إلى السطح،

مصحوبة بالوعي الجديد. لوحة، أو سيمفونية، أو مشهد مسرحي، يمكن أن تفتح أبواب الذكريات المكبوتة، تحررها، وتحوّلها إلى طاقة، فيصبح الألم ليس عبئًا، بل مادة خام للتجربة الإنسانية، للتأمل، وربما للإبداع أيضًا. هنا يظهر الفن كطبيب صامت، لا يصف الأدوية، ولا يفرض القوانين، لكنه يشفي عبر التفاعل، عبر التنفس المشترك مع المادة، مع اللون، مع الصوت، مع الحركة، ومع الخيال.

وهكذا يصبح الفن ملاذًا للمضطربين، وملجأ للعاجزين عن التعبير، وميدانًا للتجربة الإنسانية الكاملة : **تجربة الشعور، والتفاعل، والفهم، والتحول.** إنه العلاج الذي لا يضع قيودًا، ولا يطلب من المريض أن يبرر شعوره، بل يمنحه الحرية الكاملة ليكون على طبيعته. وفي هذا الانغماس، يعود الإنسان إلى ذاته، مكتشفًا أن الألم جزء من الحياة، وأن الفن قادر على تحويله إلى جمال، وأن المشاعر المرهقة يمكن أن تتحول إلى سيمفونية متناغمة، أو لوحة نابضة، أو رقصة صامتة، أو نص مسرحي يلتقطه القلب قبل العقل.

الفن إذن، ليس ترفًا أو تسلية، بل هو مدرسة للتوازن النفسي، علاج للقلوب المرهقة، ولغة يفهمها اللاوعي قبل الوعي. كل من يمارس الفن أو يتفاعل معه، يغوص في مياه هادئة داخل روحه، يجد فيها مرسى للأحلام،

متنفسًا للأوجاع، وطريقًا للسلام الداخلي. وفي النهاية، يكتشف الإنسان أن الفن ليس فقط ما يراه أو يسمعه، بل ما يشعر به ويعيشه: حياة جديدة تُخلق من الألم والفراغ، من الخيال والواقع، لتصبح كل تجربة فنية تجربة علاجية، ولتظل الروح متجددة، متألقة، وحرة.

ثالثًا ، الفن كبوابة لفهم الكون :

الفن، منذ اللحظة التي امتدت فيها اليد الأولى نحو اللون أو الصوت أو الحركة، كان بوابة سرية نحو الكون، لغة غير مرئية تكشف أسرار الحياة والوجود. إنه ليس مجرد نسج للخيال أو محاكاة للطبيعة، بل مرآة تعكس ما هو كامن خلف المادة، وراء الظاهر، في عوالم تتجاوز حدود الرؤية المباشرة. عندما ينغمس الفنان في عمله، فإن كل ضربة فرشاة أو نغمة موسيقية أو نقشٍ

على الحجر يصبح وسيلة لفهم القوانين الخفية التي تحكم الكون، لفك طلاسم الطبيعة، ولرصد الإيقاعات الداخلية التي تتدفق في كل ذرة من الوجود.

في اللوحة، قد يرى الإنسان الكواكب تتحرك بلا صوت، والرياح تتنفس بين الأشجار بصمت، والضوء يتراقص كما لو أنه لغز، كل هذا من خلال تركيبة ألوان وشكلها وتدرجاتها. الفن هنا لا يكرر الطبيعة، بل يقرأها، يحللها، ويكشف عن حقيقتها الداخلية، عن الموسيقى الخفية للنجوم وعن النبض الدقيق للزمن. إنه لغة الكون السرية، التي لا يفهمها إلا من يجرؤ على النظر بعين الروح قبل العين، ومن يستمع إلى الصمت بين النغمات قبل الصوت نفسه.

أما الموسيقى، فهي أكثر من مجرد ألحان متناغمة، فهي إيقاع الكون ذاته، صدى النجوم والكواكب، ترددات

الزمن والمكان، النبض الذي يربط الإنسان بكل ما حوله. عندما ينصت الإنسان إلى سيمفونية أو عزف منفرد، فإنه في حقيقة الأمر يغوص في حوار مع الكون، يفهم قوانينه من خلال الصمت والموسيقى، يرى الانسجام في الفوضى، ويتذوق النظام الكامن في العشوائية. هنا يصبح الفن جسراً بين العالم المادي والروحاني، بين المحسوس وما وراءه، بين الواقع وما يتصوره الخيال.

وفي النحت، يتحول الحجر أو الطين أو المعدن إلى لغة صامتة تحكي قصص الكون من خلال الانحناءات والخطوط والأحجام. كل منحوتة هي استعارة للجبال والأنهار، للفضاء الواسع ولتآلف القوى الطبيعية، إن الفنان هنا يشكل الكون من جديد، يعيد ترتيبه على سطح محدود، ليتيح للعين أن ترى ما لا تستطيع الطبيعة وحدها أن تكشفه. إنه تدريب الروح على فهم الكل من خلال الجزء، على إدراك النظم الداخلية التي تربط

الظواهر بعضها ببعض، وعلى التحديق في اللامحدود من خلال محدود.

الفن المسرحي والتمثيل أيضاً، في سياق هذا الفهم الكوني، هو محاولة لالتقاط حركة الحياة، صراع القوى، توازن الظل والنور، الظلم والعدالة، الحب والفقد، بطريقة تجعل المتلقي يعي القوانين الخفية التي تحرك البشر والكون معًا. كل مشهد، كل حركة، كل كلمة، ليست مجرد تمثيل لواقع محدود، بل انعكاس لقوى كونية تتجسد في الزمان والمكان، في النفوس والعالم الخارجي، وكأن المسرح كله أصبح مختبراً لفهم الحياة والوجود.

هكذا يصبح الفن بوابة، ليس مجرد بوابة جمالية أو ترفيهية، بل بوابة للفهم العميق للكون، لفك رموزه، لرصد الترددات الداخلية للوجود، وللتواصل مع الحقيقة التي تتجاوز العين المادية. كل عمل فني، مهما كان بسيطًا، هو تجربة كونية، تجربة يقودها الفنان والمشاهد معًا، يختبران فيها وحدتهما مع الكون، يشعران بإيقاعه الداخلي، ويستشفان قوانينه الخفية، لتصبح لحظة التأمل أمام العمل الفني لحظة لقاء بين الروح والكون، بين الإنسان وما يتجاوز حدود الإدراك المباشر، بين الخيال والحقيقة، حيث يصبح الفن جسراً سحريًا نحو فهم كل ما هو أعمق وأوسع من عالمنا الظاهر.

وفي النهاية، يدرك من ينغمس في الفن أن الكون ليس مجرد مادة وأحداث عشوائية، بل شبكة متقنة من الألحان والألوان والأشكال، وفن الإنسان هو المفتاح السحري لفهمها، واللغة التي تتيح له أن يسمع صدى النجوم، أن يرى خطوط الزمن، وأن يلمس انسجام الحياة في كل تفاصيلها، ليصبح الفن حقًا بوابة نحو معرفة الوجود بأسره.

******

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**الفن الخلّاق**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= الفن مجرد ترفيه و إبهار بالألوان و الأشكال و الحركة ..

بل أن نقول :

= الفن أكبر من ذلك بكثير .. إنه فعل خلاق يمنح الوجود تحفاً فنية من العدم .. و هو علاج نفسي بحد ذاته يعيد للنفس توازنها و رونقها ، كما أنه بوابتنا لفهم الكون من حولنا بشكل أعمق و أن نرى ما هو كائن خلف ستار المادة الصماء من معانٍ و كنايات و فلسفة.

يقول الفنان العظيم فنسنت فان جوخ :

(الفنان الحقيقي يرى ما لا يراه الآخرون ، و يخلق ما لا يُتصوّر)

و هذا بالضبط ما توصلنا إليها بختام مغالطتنا الفنية السابقة ..

سمّ + سمّ = سمسم

(الحلقة المفرغة)

الولايات المتحدة الأمريكية

كاليفورنيا / لوس أنجلوس

2029م ..

وصل سبيروزار من جديد إلى يخت ميلافا الراسي في ميناء لوس أنجلوس، بعد رحلة طويلة ومرهقة بالقطار، قطع خلالها آلاف الأميال من نيو أورليانز في لويزيانا. كان الفجر قد بدأ يبزغ، والضوء الخجول يتسلل إلى السماء الرمادية بهدوء.

كان متعبًا إلى حد الإنهاك، جسده مرهق وذهنه مثقل بالأفكار والتفاصيل التي لا تهدأ. صعد إلى ظهر اليخت

بخطى متثاقلة، كما لو أن الأرض ترفض أن تحمله أكثر.

لم يلتفت يمينًا أو يسارًا. توجه مباشرة نحو لوحة التحكم، حيث الزر الغريب الذي كُتب عليه : **اسألني** .. ضغطه بلا تردد.

وفي لحظة، ظهر القبطان باروناج من جديد.. كان كما هو دائمًا ، جامد الوجه، ثابت النظرة، صوته هادئ لكنه يحمل وقعًا غريبًا، كأن الزمن يتباطأ عند سماعه.

= أهلا بعودتك أيها الطبيب مورفين، و مبارك لك

نجاحك الباهر في مساعدتك للشرطي ديف ..

= إذا فقد وصلتك الأخبار حضرة القبطان **..!؟**

= وصلتني **!** لقد انتشر خبر إحيائك ليانا ابنة الشرطي كالنار في الهشيم في كامل الولايات المتحدة الأمريكية، بل بدأ بالانتشار إلى خارجها ..

= هذا ليس جيداً حضرة القبطان، إذ يجب علي أن أعمل في الظل كما تعلم..

= بالطبع ، لكنك لا تستطيع منع الناس من الحديث عن المعجزات التي تتحقق، فهذا أمر بديهي للغاية .. على كل حال، لا أحد يعرف هوية الطبيب مورفين حتى الآن ، باستثناء صديقك الطبيب جيسون بالطبع ..

= هذا خبر جيد، بجميع الأحوال لم يعد هنالك ما نفعله

في الولايات المتحدة الأمريكية، و علينا المغادرة على الفور ..

= و ما هي وجهتنا القادمة ؟

= مدينة برايا عاصمة جزر الرأس الأخضر كما اتفقنا من قبل ، فكم سنستغرق حتى نصل إلى هناك..؟

= أقصر طريق للوصول إلى هنالك حضرة الطبيب هو عبر **قناة بنما** حيث تبلغ المسافة عبر هذا الطريق **12** ألف كم أي ستستغرق **40** ساعة، و باعتبار أن الوقود غير متوفر و دارة الشحن لا تكفي للإبحار بل لإنارة اليخت و تشغيل جهاز التكييف و البوصلة المكانية فحسب، سنعتمد على الطاقة الشمسية بمعدل سير **10** ساعات نهارية يوميا أي سنصل برايا في جزيرة سانتياغو بعد أربعة أيام ..

= حسنا، هيا بنا، فلنبحر ..

= حرك الأذرع كما وجهتك من قبل ..

حرك سبيروزار الأذرع الثلاثة مجددا بنفس الآلية ، فبدأ اليخت ميلافا بالعمل تدريجيا..

= حضرة القبطان، القيادة لك ..

= بالطبع، استرح أيها الطبيب، لقد مررت بأسفار و ظروف صعبة للغاية و أنت بحاجة لتهدئة أعصابك بعد

كل ذلك ..

= معك حق، سأحاول النوم قليلا ..

كان سبيروزار مرهقًا إلى حدٍّ لم يعد يحتمل معه التفكير أو المقاومة، فبمجرد أن لامس جسده فراش المقصورة، غرق في نومٍ عميق كأن جسده قد انهار تحت ثقل أيام من التعب والتوتر.

مرت الساعات في صمت، حتى أيقظه نور برتقالي ناعم يتسلّل عبر النافذة. كان الغروب قد حل، والشمس تلامس أطراف المحيط، كأنها تغوص ببطء في حضنه المائي الكبير.

جلس بهدوء، شعر كأن النشاط قد عاد إلى أوصاله، وكأن الحماسة التي خفتت عادت لتشتعل مجددًا في أعماقه. نهض وسار نحو سطح اليخت بخطى هادئة.

وقف هناك، والنسيم يلامس وجهه برفق، يتأمل المشهد المذهل : الغروب يسكب ألوانه الذهبية والوردية على صفحة الماء، والسماء تذوب في البحر بلا فاصل.

في تلك اللحظة، تذكّر كوكب كوليتوس ... وتلك الحلقة العجيبة من الصخور التي تحيطه، تلمع ليلاً كما لو كانت نجومًا تدور حوله في رقصة سماوية. كم كان المنظر خلابًا، وكأن الكون نفسه يستعرض جزءًا من سحره له وحده.

تنهّد بصوت خافت، وأخذ يفكر:

ما أخبار غارينوس و نونيس الآن؟

كيف استقبلا فكرة عودته المفاجئة إلى الأرض؟

هزّ رأسه، لا أحد يملك هذه الأجوبة. حتى القبطان باروناج، رغم كل ما يعرفه ويخفيه، لن يستطيع مساعدته هذه المرة. الاتصال بكوليتوس قُطع منذ مغادرتهما، ولم يعُد هناك ما يصلهم بالعالم الآخر.

عاد إلى الداخل بهدوء، كأن روحه تبحث عن باب خلفي للهروب من الأسئلة. وقف أمام زر اسألني مرة أخرى و ضغطه.

= أهلا بك مجدداً أيها الطبيب مورفين، هل نمت جيدا؟

= أجل، نوم هادئ و عميق كنت أحتاجه بشدة، لقد استعدت نشاطي و تركيزي بالكامل، الآن حدثني أكثر عن وجهتنا القادمة دولة الرأس الأخضر حضرة القبطان بينما أجهز طبقي الجديد و المفضل(لاتوناغ)، فأنا جائع للغاية ..

= الرأس الأخضر أرخبيل مكون من **10** جزر هي سانتياغو أكبر جزيرة فيها و التي تحوي العاصمة برايا و جزر ماي، فوغو، برافا و هي الجزر الجنوبية الأربعة، أما الجزر الشمالية الستة فهي بوا فياتا، سال،

ساو نيكولاو، سانتا لوزيا، ساو فيسينتي، سانتو أنتاو..

و يقع هذا الأرخبيل غرب القارة الإفريقية مقابل سواحل **السنغال** تماماً، و اللغة الرسمية هنالك هي اللغة البرتغالية فقد كانت البلاد مستعمرة برتغالية قبل أن تستقل عام **1975** م..

= إذن علي تعلم اللغة البرتغالية لكي أتفاهم مع سكان البلاد ؟

= بالطبع، لكن لا تخش شيئاً فالقبطان باروناج موجود إلى جانبك، سأساعدك على تعلمها خلال فترة قياسية بأفضل الطرق التي تم اختراعها حتى الآن لتعلم اللغات، و مع وصولنا إلى برايا بعد ثلاثة أيام ستتمكن من التوجه و تدبير حاجياتك الأساسية هنالك، و بعد شهر ستتمكن من الكلام بطلاقة..

ابتسم سبيروزار بحماسة ..

= ممتاز، هل يمكنك تقديم معلومات عن القس فونسيكا في كنيسة برايا ..؟

= بالطبع، الكنيسة تدعى (**سيدة النعمة**) و القس هو **ريكاردو فونسيكا** (**68**) سنة، و هو المسؤول الأول عن إدارة شؤون الكنيسة ، و من الجيد أن تعلم أنه متقن تماماً للغة الإنجليزية ..

و تحول الهولوغرام إلى مجسم لرجل ذي لحية بيضاء، خفيف شعر الرأس، يلبس نظارات دائرية تعطيه لاحة الفلاسفة و تبدو عليه سمات الوقار و الطيبة ..

= أي معلومات أخرى عنه..؟

= هنالك فقط معلومة هامة أخرى..

= وهي ؟

= لقد انتشرت خلال العامين المنصرمين في البلاد تجارة المخدرات و الترويج لها خاصة **مخدر الفلاكا** الخطير، لاسيما في جزيرة سانتياغو و سببت مشاكل إدمان و اضطرابات نفسية و سلوكية كبيرة بين الشباب دون أن تتمكن السلطات من كشف المسؤول عن ذلك أو الحد من انتشار المخدرات، و القس فونسيكا من أكثر رموز البلاد نشاطاً في مواجهة هذه الظاهرة، و يقوم

بنشاطات كثيرة للتوعية بخطورة تلك المخدرات و عواقب إدمانها الكارثية و التشجيع على التعافي من ذلك الإدمان ..

توقف سبيروزار عن مضغ الطعام و قال بجدية ..

= أجل أنا على دراية بهذا المخدر، إنه كارثة حقيقية و قد غزا الولايات المتحدة الأمريكية منذ عقود خاصة عبر مدينتي الأم ميامي و ولاية فلوريدا بشكل عام ..

= بالضبط..

= و ما هي التأثيرات التي يسببها هذا المخدر ؟

= إنه يرفع تركيز **الدوبامين** في الدماغ بشكل هائل و يمنع استقلابه لاحقاً، مما يؤدي إلى مشاعر من النشوة و الهلوسات و الطاقة الكبيرة الزائفة، لذا أطلق عليه لقب (**السيدة الحسناء**) و يؤدي بعد زمن قصير من إدمانه إلى الجنون التام لمدمنه ..

= هذا خطير للغاية حضرة القبطان، و القس فونسيكا على حق في نشاطه المكثف ضده، إنه شخص يستحق الاحترام بالفعل ..

بعد يومين من الإبحار المتواصل، بلغ يخت ميلافا قناة بنما، ذلك الشق العظيم الذي يبلغ طوله **82** كيلومترًا، والذي، كما أخبره القبطان بارونـاج، تم حفره بشق

الأنفس عبر أراضي دولة بنما ليربط بين المحيطين الأطلسي والهادي. لم يكن مجرد مشروع هندسي، بل معجزة بشرية غيرت وجه التجارة العالمية منذ افتتاحه عام **1914** ...

كان عبور القناة تجربة فريدة، تداخل فيها صوت محركات اليخت مع هدير المياه المتدفقة من بوابة إلى أخرى، وكأن السفينة تصعد سلمًا مائيًا نحو عالم جديد. الممرات الضيقة، والتلال المغطاة بالأشجار الاستوائية، والسكون المهيب المحيط بالمكان ، كلها رسمت لوحة لا تُنسى في ذاكرة سبيروزار.

خلال وقت قصير، اجتاز اليخت القناة، وانفتح أمامه البحر الكاريبي برونقه الأزرق العميق، ليكمل طريقه نحو المحيط الأطلسي، متجهًا بثبات نحو جزر الرأس الأخضر، تلك النقاط الصغيرة التي تطفو في المحيط كأنها شذرات من عالمٍ بعيد.

في اليومين التاليين، وبين أوقات التأمل والدراسة، أحرز سبيروزار تقدمًا مذهلًا في تعلم اللغة البرتغالية. لم تكن الطرق التقليدية تجدي معه، لكن القبطان باروناج كان يملك أساليب فريدة في التعليم ، مزيج من التكرار الذكي، والمواقف اليومية، وربط الكلمات بموسيقى وألوان، مما جعل التعلم يبدو كرحلة ممتعة لا عبئًا.

بات سبيروزار قادرًا على خوض محادثات قصيرة مع باروناج باللغة الجديدة، وكانت ابتسامة القبطان، رغم ثبات ملامحه، توحي بالرضا والتشجيع.

ربما كانت هذه الرحلة لا تعبر الجغرافيا فقط، بل تعبر أيضًا داخله، نحو لغة جديدة، وفهم أعمق، وربما نحو شيء لم يدركه بعد.

****

المخدرات ..

واحدة من أكبر آفات المجتمع البشري اليوم إن لم تكن أسوأها على الإطلاق .. و التي تحمل في أحشائها جنين مغالطة صارخة و محيرة .. فكيف يمكن لمادة تدمر **الصحة و الجيب و العقل و النفس و النجاح و الحياة الاجتماعية و العائلية** أن تكون بهذا الانتشار الرهيب ، كيف يفرط الإنسان بكل ذلك من أجل مادة تستعبده حتى آخر رمق من حياته .. موضوع مربك و غامض بلا شك .. و أنا هنا كي أجيبك عزيزي القارئ على هذا الأسئلة و ذلك بالتحليل العلمي و النفسي للمخدرات عبر ثلاثة زوايا هامة و حساسة :

① لماذا المخدرات ؟! ..

② علاج الإدمان ..

③ أشهر أنواع المخدرات ..

فهيا بنا عزيزي القارئ نرفع الستار كي نشاهد سوياً مسرحية تراجيدية ، بطلها إنسان تائه و بطلتها مادة سامة و نهايتها مأساوية بكل المقاييس ..

أولاً ، **لماذا المخدرات** :

الإدمان ليس مجرد سلوك عابر يلوذ به الإنسان في غفلة من وعيه، بل هو جرح عميق ينفتح في الروح، يفضح هشاشتها ويكشف عجزها عن مواجهة مرآة الواقع. هو رحلة تبدأ بخطوة صغيرة نحو الوهم، وتنتهي بانحدار طويل في متاهات العبودية التي لا تنفك تشدّ الإنسان إلى قاع مظلم. فما هي الأسباب التي تدفع الكائن البشري، الموهوب بملكة العقل والإرادة، إلى أن يبيع حريته في سوق السموم، وأن يسلم زمام جسده وروحه لمادة صامتة لا تملك روحًا ولا رحمة ؟

أول الأسباب يكمن في **الهروب من واقع سقيم**، واقع يثقل على الإنسان بأنفاسه، ينهشه بظلمٍ أو حرمانٍ أو فراغٍ وجودي. المدمن يجد في أول جرعة نافذة سحرية، تهشّم جدران السجن الداخلي، وتمنحه فسحة قصيرة من **النسيان**. هناك، في لحظات الانفصال عن الوعي المؤلم، يتذوق طعم الحرية المزيفة، معتقدًا أنّه تحرّر من قيوده، بينما لم يفعل سوى أن وضع قيدًا جديدًا في عنقه، أشد وطأة وأقسى.

ثم يأتي السبب الثاني، وهو **السعي نحو السعادة السريعة بلا جهد أو ثمن**. الإنسان بطبيعته يطلب الفرح ، لكن درب الفرح طويل ومليء بالكفاح والمعاناة والصبر، في حين أن المخدرات تعرض على المرء سلعة زائفة : **نشوة فورية، متاحة بلا عرق ولا تضحية**. المدمن يختصر طريق الألف ميل في لحظة نشوة، لكنه لا يدرك أن كل لحظة قصيرة يدفع ثمنها من عمره، من صحته، من كرامته. السعادة التي لا تأتي بالكدّ ولا بالتجربة ولا بالمعنى، تنقلب سريعًا إلى لعنة؛ إذ لا تعطي سوى ظلّ سعادة، صورة مشوهة لشيء كان يجب أن يُبنى ببطء ، إنها مجرد قناع ضاحك يقبع خلفه إنسان مكتئب و تائه ..

و ثالثًا ، يكمن السبب في إغراء **القوة الزائفة**.
فالمخدرات تهمس للمدمن أنها تمنحه جناحين، قوةً

خارقة، أو جرأة لم يكن يملكها، أو عزاءً ضد ألم داخلي. يصبح للحظة سيدًا على نفسه وعلى العالم، يصدّق أنه أقوى من قلقه، من حزنه، من خوفه، من الآخرين. لكنه لا يدرك أن هذه القوة كالمرآة المكسورة: تعكس صورة بريق، لكنها في الحقيقة لا تزيده إلا انكسارًا. وما أن ينقضي مفعول الوهم حتى يعود أضعف مما كان، يطلب جرعة أخرى ليستر عري ضعفه المتفاقم.

ثم لدينا **الفراغ الروحي** ، حين يفتقد المرء لمعنى أكبر من ذاته، لرسالة أو إيمان أو حب حقيقي يملأ قلبه، فإنه يبحث عما يسكّن جوع الروح. وما لم يجد غذاءً نقيًا، فإنه يتشبث بسراب المخدرات ليملأ الفراغ.

و هناك أيضاً **الضغط الاجتماعي والبيئة الفاسدة** : في صحبة السوء أو المجتمعات المأزومة، تصبح المخدرات لغة مشتركة للهروب الجماعي من الألم، فيسقط المرء بدافع التقليد أو الحاجة إلى الانتماء، غير مدرك أنه ينتمي إلى قافلة موت بطيء.

و لا ننسَ بالطبع **الاضطرابات النفسية المكبوتة** : الاكتئاب، القلق، الصدمات الطفولية... كلها جراح غير مرئية قد تدفع الإنسان لطلب البلسم السريع، ولو كان سامًا. فالمدمن في جوهره ليس شريرًا، بل جريح يطلب

الدواء، غير أن يده المرتجفة اختارت الدواء الخطأ.

ومع تكرار المحاولة، يدخل المدمن في **الحلقة المفرغة**: دوامة تتسع حتى تبتلع إرادته. يبدأ الجسد بالمطالبة العنيفة، يصير كوحشٍ ينهش الداخل، يصرخ في كل خلية من خلايا الجسد : (أعطني المزيد). لم يعد الأمر رغبة يمكن كبحها أو مقاومة بسيطة يمكن التغلب عليها؛ بل استعباد كامل، حيث يغدو الإنسان خادمًا للمادة، لا يعرف الراحة إلا حين يطيعها، ولا يذوق السكون إلا حين يرضخ لها. وهنا تنكشف قسوة الخديعة : **أن ما بدأ بقرارٍ إرادي صار الآن قيدًا جبريًا لا فكاك منه إلا بالمعاناة الطويلة.**

الإدمان إذن ليس مجرد انحراف، بل هو صرخة مكتومة من أعماق الكائن البشري، صرخة تقول : (لا أحتمل لوحدي) .. لكن بدل أن يمد يده نحو نور المعنى والحب والعمل، يمدها نحو زجاجة أو إبرة أو حبوب.

وهو إذ يفعل ذلك، يبيع روحه في صفقة خاسرة، لا يجني منها إلا انكسارًا متصاعدًا.

إن مأساة الإدمان ليست فقط في المرض الذي يصيب الجسد أو الخراب الذي ينهش العلاقات، بل في فقدان الذات : **أن ينظر المرء في المرآة فلا يجد إلا شبحًا تلاشى منه وجهه الحقيقي. والإنسان حين يضيع ذاته ، يضيع كل شيء.**

ثانيًا ، علاج الإدمان :

علاج الإدمان ليس ببساطة وصفة دوائية تُعطى فتنتهي العلة، ولا هو باب سحري يعبره المدمن فيخرج حرًّا كما لو لم يذق طعم السم قط. إنّه **رحلة عسيرة في تضاريس النفس والروح،** رحلة استعادة الذات التي ضاعت في متاهات الوهم، وبحث عن الحرية التي كانت في الأصل هبة الإنسان قبل أن يقيّدها بخيوط المخدرات. هذه الرحلة تبدأ من لحظة إدراك صادق : **أن يعترف المدمن لأول مرة بأنه عبدٌ، وأنه لم يعد سيدًا لجسده ولا لوعيه.** هذه اللحظة، وإن بدت مهينة، هي في الحقيقة أول بذرة للخلاص؛ فالاعتراف بالهزيمة أمام الوهم هو إعلان الحرب على ذلك الوهم.

والمواجهة الفعلية تبدأ من **كسر دائرة الهروب**. فالمدمن كان يلوذ بالمخدر لينجو من واقع قاسٍ أو فراغ قاتم،

وعلاجه يستدعي أن يجرؤ على مواجهة ذلك الواقع نفسه، أن يتعلم **أن يضع عينه في عين الألم دون أن يرتعد**. في مساحات العلاج النفسي والجلسات الصادقة، يُدفع الإنسان إلى أن يواجه طفولته الممزقة، خساراته القديمة، همومه المكبوتة، لا لكي تغلبه، بل لكي يتصالح معها. حين ينجح في تسمية جراحه، تتضاءل حاجته إلى السموم التي كانت تخدّره عن الإحساس بها.. كب الحكاية أن ينظر المدمن في المرآة و يبتسم لجراحه و يتصالح مع نفسه و ألا يهرب من هذه المواجهة ..

ثم تأتي **إعادة تعريف السعادة**. فالمخدر كان يعده بسعادة فورية، رخيصة لا تكلف جهدًا ولا انتظارًا، لكن العلاج يعلّمه أن السعادة الحقيقية ليست وهجًا لحظة، بل دفء مسار ممتد. يُدرَّب المدمن على أن يذوق نشوة

أبسط الأشياء : أن يركض في الصباح ويشعر بدمه يضج بالحياة، أن يجلس مع إنسان يحبه ويتبادل معه كلمة صادقة، أن يخلق من عمله قيمة، أن يبني حجرًا في صرح حلمه. السعادة هنا لم تعد هروبًا من الألم، بل صيرورة من الجهد والمعنى، ولأنها أُخذت بشرف العرق والصبر، فإنها تبقى ولا تتبخر.

وأما عن **القوة الزائفة التي كانت تغويه**، فإن العلاج يكشف زيفها ببطء. يُدرك المدمن أن القوة ليست في أن يبتلع مادة تجعله يجرؤ للحظة ثم ينهار بعدها، بل أن **يملك الصبر على خوفه، أن يقف في مواجهة ضعفه ولا يهرب**. القوة الحقيقية ليست في أن يصنع لنفسه جناحين من دخان، بل في أن يثبت قدميه على الأرض مهما عصفت الريح. ومع كل يوم يرفض فيه إغراء السم، يكتشف أن في داخله بئرًا من الصلابة لم يكن يعرفها.

لكن أعقد مراحل العلاج هي **كسر الحلقة المفرغة** ، حيث الجسد يصرخ مطالبًا بالسم كما لو كان حقًا من حقوقه. هنا تتدخل العلوم الطبية لتعين الروح على حربها، **أدوية تسكن العاصفة، ورعاية تحيط بالجسد الهائج حتى يهدأ**. غير أن المساندة الطبية وحدها لا تكفي، إذ لا بد من أن تُزرع في القلب بذور معنى أكبر، بديل روحي ينير الطريق **و البديل هو كل الحكاية و**

أساس العلاج. بعضهم يجد هذا المعنى في الإيمان، في استعادة صلة بالسماء كانت منقطعة، وبعضهم يجده في الفن أو في الحب أو في عمل يتجاوز ذاته. المهم أن يمتلك المدمن نورًا داخليًا يذكّره كلما تزلزل : **أن الحياة أثمن من أن تُباع مقابل لحظة زائفة.**

والعلاج أيضًا يواجه الفراغ الروحي بزرع الانتماء من جديد. لذلك يُشجَّع المدمن على **الانخراط في جماعات دعم**، حيث يلتقي بأناس ذاقوا ألمه ذاته، فيتبدد شعوره بالعزلة، ويعرف أنه ليس وحيدًا في معركته. هناك، في دفء الاعترافات المشتركة، يكتشف أن القوة ليست فردية دائمًا، بل قد تكون ثمرة يد تُمدّ من قلب يعرف الوجع نفسه.

وحين يُشفى، لا يخرج الإنسان كما دخل؛ بل يخرج كائنًا جديدًا، أكثر معرفة بضعفه، وأكثر تصالحًا مع جراحه، وأشد وعيًا بأن السعادة لا تُشترى ولا تُحقن ولا تبتلع. يخرج وهو يدرك أن الحياة، بكل ما فيها من تعب، أثمن من أي وهم، وأن الحرية التي كان يظنها في جرعة، كانت كامنة منذ البداية في قدرته على أن يقول : "**لا**".

ثالثًا ، أشهر أنواع المخدرات :

من بين هذه الوجوه يطل **الأفيون**، العجوز الذي حملته

حضارات قديمة كدواء ثم تحوّل إلى لعنة. عصارة **زهرة الخشخاش** تلك، التي بدت في أول الأمر بلسما للألم، تحولت في يد الإنسان إلى باب واسع للتيه. فمنه تفرعت مشتقات لا تقل خطورة، مثل **الهيروين** الذي صار سيدًا قاسيًا على ملايين البشر، يربطهم بسلسلة ذهبية زائفة من النشوة، ثم يسحبهم إلى القاع بلا رحمة.

ويقف إلى جواره **الكوكايين**، مسحوق أبيض لامع كأنّه يدّعي الطهارة وهو في الحقيقة سمّ بطيء. يعد متعاطيه بلحظات من القوة واليقظة والنشوة الفائقة، لكنه لا يلبث أن ينهب الجسد والأعصاب حتى يترك صاحبه حطامًا يرتجف.

وعلى خطاه يمشي **الكراك**، الابن الأرعن للكوكايين، أسرع وأكثر عنفًا، يلتهم العقل والروح في دقائق معدودة.

ثم يطل علينا **الحشيش والماريجوانا**، أوراق **القنب** اليابسة التي يتعامل معها البعض باستخفاف، كأنها تسلية بريئة. لكنها في جوهرها فخ بطيء، إذ تغلّف وعي الإنسان بضباب كثيف، تجعله يظن أنه يرى الحياة بعيون أوسع، بينما هو في الحقيقة يغرق في غيبوبة إدراكية تسلبه حدة العقل وصلابة الإرادة.

أما **الميثامفيتامين**، أو ما يُعرف **بالكريستال** ، فهو جحيم متجسد في هيئة بلورات زجاجية لامعة، تمنح

متعاطيها اندفاعًا وجنون قوة، ثم تحرق أعصابه وتلتهم ملامحه حتى يبدو وكأن الزمن تعمّد الانتقام منه.

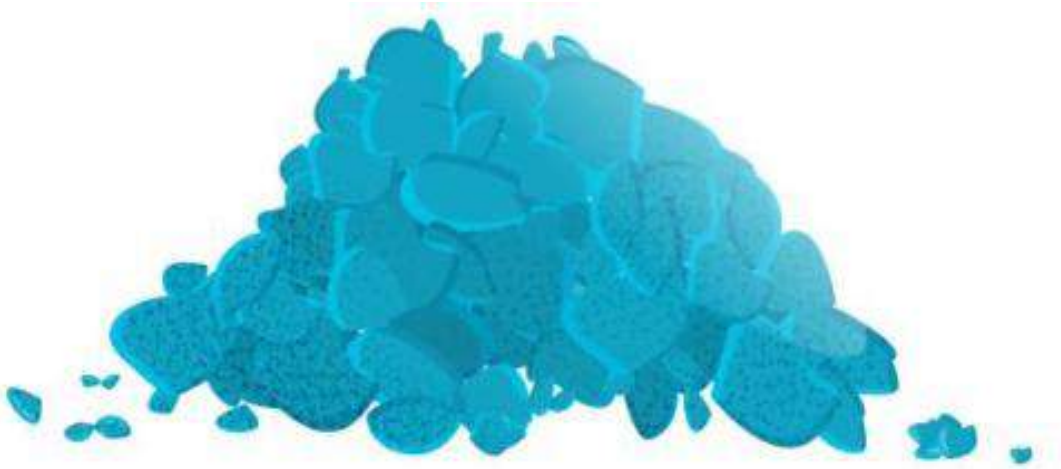

ولا يقل عنه شراسة **الإكستاسي** أو **حبوب النشوة** ، التي توهم صاحبها بأنه يذوب في بحر من الحب والسلام، فيما هي تمزّق قلبه ومخه ببطء قاتل.

وتظل **الكحوليات**، رغم شيوعها واعتياد المجتمعات عليها، أخطر ما عرف الإنسان من مخدرات مقنّعة.
فهي تمشي في دمائه كصديق قديم، لكنّها تسرق وعيه بالتدريج، وتحوّل لحظات الفرح إلى سلاسل من التبعية

والخراب. الكأس التي يرفعها المرء ابتهاجًا كثيرًا ما تكون ذاتها التي تدفنه في قاع الإدمان و تقتل كبده ببطء

كل هذه الأنواع، مهما اختلفت في الشكل والطعم والرائحة، تشترك في كونها أبوابًا نحو العدم. قد يدخل منها المرء بحثًا عن دواء للألم أو عن نشوة سريعة أو عن هروب من واقع يثقل صدره، لكنه لا يخرج منها كما دخل. فالمخدرات لا تعطي مجانًا؛ هي تاج يلمع لحظة ثم يتحول إلى أغلال، وهي وعد بالسعادة لا يفي إلا بالشقاء.

إنها باختصار مرآة مظلمة : يرى فيها الإنسان صورة مشوهة لذاته، يظنها أجمل مما هي عليه، ثم يفاجأ بعد

حين أنه كان ينظر طوال الوقت إلى وجهه وهو يتآكل. والمأساة الكبرى ليست في تنوع هذه المواد، بل في استعداد الإنسان الدائم لأن يخدع نفسه بها، وأن يقدّم روحه قربانًا على مذبح وهم لا يعيش إلا بقدر ما يقتل.

******

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**سم + سم = سمسم**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= الظروف الصعبة التي أمر بها عبارة عن سم يأتيني من الشرق و الوحدة التي تقتلني سم آخر من الغرب لذا أرى في المخدرات سمسم يهون علي مشكلتي ..

بل أن نقول :

= إن علاج السمين السابقين لا يكون بسم مضاعف جديد يفاقمهما و يدخلك في حلقة مفرغة .. بل الحل بتشريح كل مشكلة منهما و علاجها بمفردها .. أن تجزء مشكلتك و تبحث عن حل لكل جزء منها حتى تحلها كلها ، و أن تخرج من قوقعتك بالانفتاح على المجتمع و انتقاء أصدقاء جيدين يمدون لك يد العون كي تغادر عالم الإدمان ، هذان السلوكان هما السمسم الحقيقي لمشكلتك .. أما المخدرات فلا تأتي بحلول و لك فيما يحدث لكل مدمن عليها عبرة .. هل سبق لك أن رأيت مدمناً بحالة جيدة ؟!

يقول الروائي الأمريكي **فرانسيس سكوت فيتزجيرالد** :

(**أولًا تأخذ الشراب، ثم الشراب يأخذ الشراب،**

ثم الشراب يأخذك)

و هذه هي دائرة المخدرات المفرغة تبدأ كمارد فانوس يحقق رغباتك و تنتهي باحتجازك في القمقم كمارد تائه يحقق رغباتها .. لذا اكسر هذه الحلقة في أسرع وقت بأساليب العلاج التي تحدثنا عنها و تحررك من عبودية المخدرات ..

كازانوفا المعادن

(الانجذاب الكوني العظيم)

= بالله عليك أن تقول لي سرك يا صديقي .. كيف تأتيك كل هذه الفرص .. كمغناطيس يجذب الأشياء أو كازانوفا يجذب الفتيات ..

= سر بسيط للغاية ..

= و هو ؟

= أن تكون بالفعل كالمغناطيس ..

= لم أفهم !!

= أن تخلق من حولك حقلاً من السعادة و الراحة النفسية .. أن تتعلم أن الحياة قطبان يمر بينهما تيارها و أن أي منهما بمفرده لا يولد إلا الركود و الصمت .. لذا عليك أن تملتك قطب العمل و قطب الراحة .. قطب المادة و قطب الروحانيات .. قطب الجدية و قطب

المزاح و هكذا .. فإن ثبت على قطب واحد من كل ما سبق توقف تيار حياتك عن المضي و ساد الكسل النفسي و كساد الفرص .. هكذا ببساطة ..

****

المغناطيس ..

ذاك الحجر السحري الذي يحلق وحيداً خارج سرب المعادن قاطبة بخاصية لا يمتلكها سواه .. خاصية **الجاذبية القوية** التي لا يهرب منها شيء و التي حيرت البشر منذ لحظة اكتشافه حتى اليوم ..

و قد يعتقد كثير من البشر أن المغناطيس بلا فائدة ، فقط معدن جذاب لا أكثر ، لكن هذه في الحقيقة مغالطة جائرة بحقه ، فالمغناطيس يتغلغل بتفاصيل حياتنا اليومية أكثر مما يعتقدون .. كيف ذلك ؟! تعال عزيزي القارئ لنتعرف أكثر على هذا المعدن الساحر من أربعة أقطاب :

① ما هو المغناطيس ؟ ..

② كيف يتغلغل المغناطيس في حياتنا ؟ ..

③ المغناطيس فلسفياً ..

④ قصص مغناطيسية من أرشيف التاريخ ..

لذا أمسك بوصلتك عزيزي القارئ و هيا بنى نتقفى أثر المغناطيس من حولنا ..

أولاً ، ما هو المغناطيس ؟!

في تاريخ الوجود، ثمة ظواهر ولدت من رحم الغموض، بدت في بداياتها ضرباً من السحر قبل أن يضعها العقل تحت مجهر العلم. ومن بين تلك الظواهر المتفردة يطل برأسه علينا صديقنا : **المغناطيس**، تلك القوة الصامتة التي تُخضع الحديد والطبيعة لحركتها كما يُخضع العاشق قلب معشوقته لنداءٍ لا يُقاوم.

لقد كان البشر في العصور الأولى يواجهون هذا المعدن المثير بدهشة طفل يرى قوس قزح لأول مرة. فقد اكتُشف المغناطيس، لا في مختبرات جامدة ولا بين دفاتر العلماء، بل في أحضان الأرض نفسها، حين كان الرعاة والتجار في آسيا الصغرى يلاحظون أن بعض الحجارة السوداء الغامضة تجذب قطع الحديد إليها كما لو أنها تملك روحاً غير مرئية. كانت هذه الحجارة تدعى لاحقاً **حجر المغناطيس** ، ومنذ ذلك الحين بدأ الإنسان رحلته الطويلة في محاولة فهم ما يختبئ وراء هذه الجاذبية الغامضة.

لقد بدت الظاهرة في بدايتها أقرب إلى الأساطير، حتى نُسجت حولها الحكايات : قيل إن للأرض قلباً ينبض بالقوة، وإن هذه القوة تمتد عبر صخورها لتشد الحديد

كما تشد العاطفة قلب إنسان إلى إنسان. ومع مرور القرون، تحوّل السحر إلى علم، وبات المغناطيس مفتاحاً لعلوم الكهرباء والفيزياء الحديثة، بعد أن كان مجرد حجر صامت في قاع الجبال ..

أما علمياً فالمغناطيس حجر يمتلك في تكوينه قطبين معاً إيجابي و سلبي و يتولد بينهما حقل جاذب مغلق تقع في شراكه كل المعادن التي تمر بجواره ..

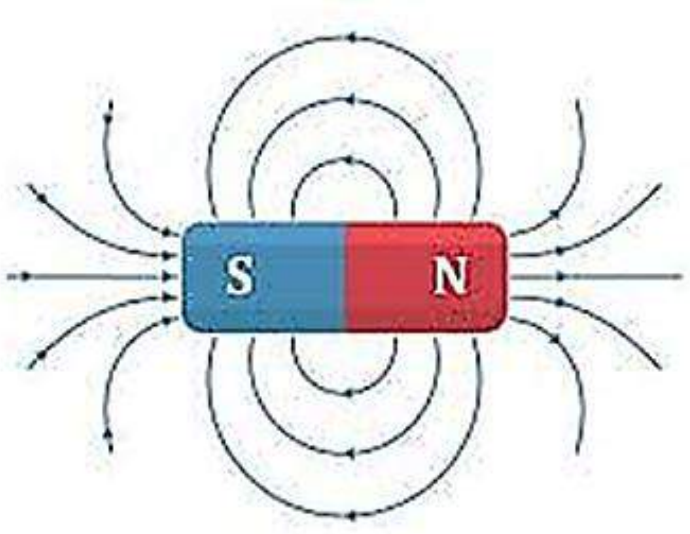

ثانياً ، كيف يتغلغل المغناطيس في حياتنا ؟!

إن المغناطيس ليس مجرد معدن جذاب فحسب، بل هو سرّ متغلغل في عروق الكون. **فالأرض** نفسها، هذا الكوكب الذي نحيا فوقه، ليس سوى مغناطيس عملاق يحيط بنا بحزامه الواقي من الرياح الشمسية المدمّرة، وكأنه أب يحمي أبناءه من الهلاك بجدار غير مرئي.

ومن غير هذا الحقل المغناطيسي الكوني، لما بقيت حياة على سطح الأرض، ولما تفتحت زهرة واحدة ولا

رفرف جناح طائر.

ومن الطبيعة انتقل المغناطيس إلى حياة الإنسان اليومية، ليمتزج بلحمه وأعصابه وأحلامه. فها هو في **البوصلة**، رفيق الرحالة والبحّارة، يفتح لهم دروب البحار ويهديهم إلى اليابسة حين يضيعون في عماء الموج.

وها هو العلم الحديث يضع المغناطيس في صميم الأجهزة التي تحكم عالمنا : من **مولدات الكهرباء** التي تنير المدن إلى **الأجهزة الطبية** التي تكشف أسرار

الجسد وتقرأ صمته الداخلي. حتى أصغر **شريحة إلكترونية** تحمل في أحشائها صدى المغناطيس. إن المغناطيس لم يعد حجراً غامضاً في جبل، بل صار صانعاً للحضارة، شريكاً في كل ضوء يشع، وكل نبض يُرصد، وكل قطار يندفع في سكك حديدية تحتضنها الأرض.

ثالثًا ، المغناطيس فلسفياً :

ليس المغناطيس حجراً صامتاً في باطن الأرض فحسب، بل هو استعارة كونية تكشف سرّاً من أسرار الإنسان والحياة. فكما أن للمغناطيس قطبين متنافرين متجاذبين، كذلك للإنسان وجهان : **عقلٌ** يطلب الحكمة و **قلبٌ** يطلب العاطفة. وبين هذين القطبين يتذبذب كيانه كله، لا يستقر إلا حين يبلغ توازناً خفيّاً يشبه ما يبلغه الحديد حين ينصاع لقوة المغناطيس. إننا نعيش جميعاً تحت جاذبية خفية، بعضها ظاهر في قوانين الطبيعة، وبعضها أعمق في قوانين الروح، حيث يجذب الحنين القلوب كما يجذب المغناطيس الحديد، وحيث تتنافر النفوس أحياناً كما تتنافر الأقطاب.

الحياة نفسها، حين نتأملها، ليست سوى حقل مغناطيسي واسع : أقدارٌ تشدّنا إلى دروب بعينها، وأشخاصٌ يقتربون منا بقوة لا ندري سرها، ثم هناك آخرون ننفر منهم كما تنفر قطبان متشابهتان مهما حاولنا الجمع

بينهما. المغناطيس يعلّمنا أن التجاذب ليس خياراً، بل ضرورة كونية، وأن التنافر ليس عيباً، بل حكمة تحفظ التوازن. فلو لم تتنافر بعض الأشياء، لابتلعتنا الفوضى، ولو لم تتجاذب أخرى، لتفتت العالم إلى غبار.

وللإنسان في أعماقه **مغناطيس روحي** ، قد لا يراه لكنه يشعر بفعله في صمته و تأمله : حين يجد قلبه منجذباً إلى فكرة، أو إنسان، أو حتى طريق مجهول. ذلك المغناطيس الداخلي هو ما نسميه أحياناً **القدر** ، وأحياناً **الحدس** ، وأحياناً **العشق** .. هو القوة التي تجعل شخصين يلتقيان في بحر من مليارات الوجوه، وتجعل فكرة تسيطر على عقل فيبني بها حضارة، وتجعل فناناً ينجذب إلى لوحته كما ينجذب المعدن إلى حجر المغناطيس.

لكن المغناطيس يهمس لنا أيضاً بحقيقة أخرى : أن الجاذبية وحدها لا تكفي. فكما لا يعمل المغناطيس إلا إذا كان للحديد قابلية للانجذاب، كذلك لا يُثمر الحبّ إن لم يكن في القلب استعداد، ولا تنجح الحكمة إن لم يكن في العقل أرض خصبة. الجاذبية ليست سحراً من طرف واحد، بل هي رقصة أزلية بين قوتين، كلاهما يمنح الآخر معنى.

هكذا يصبح المغناطيس رمزاً للحياة نفسها : سرّها في

التجاذب والتنافر، في الاختيار والرفض، في الانجذاب والابتعاد. كل علاقة بشرية، كل طريق نسلكه، كل حلم نؤمن به، إنما هو استجابة لمغناطيس خفيّ يقودنا عبر دروب الوجود. ومن لا يسمع نداء هذا المغناطيس الداخلي، يظل تائهاً في عرض المحيط بلا بوصلة ..

رابعًا ، قصص مغناطيسية من أرشيف التاريخ :

❁ حجر الراعي في مغنيزيا :

يُقال إن أول اكتشاف للمغناطيس كان محض صدفة في **مدينة مغنيزيا** بآسيا الصغرى قبل أكثر من ألفي عام.
كان راعٍ يوناني يُدعى **ماغنيس** يتجول مع قطيعه ، وحين جلَس ليستريح، شعر أن حذوته الحديدية وعصاه ذات الرأس المعدني تلتصق بالصخر الذي يجلس فوقه.
اندهش من الظاهرة، وصار يحكي عنها حتى وصلت قصته إلى الفلاسفة، فأطلقوا على الحجر الغامض اسم **حجر مغنيزيا** أو **ماغنيتيت** ، ومن هنا وُلدت كلمة مغناطيس .. إن راعياً بسيطاً إذن، لا فيلسوفاً ولا ملكاً ، هو الذي فتح الباب أمام سرّ من أسرار الطبيعة.

❁ البوصلة الصينية التي غيرت وجه العالم :

في القرن الثاني قبل الميلاد، اكتشف الصينيون أن قطعة من حجر المغناطيس إذا وُضعت على خشبة عائمة في

الماء، فإنها تشير دائماً نحو الشمال والجنوب. صنعوا منها أداة أسموها **المركبة التي تشير للجنوب** ، واستخدموها أولاً في طقوسهم الروحية لقراءة الطالع. لكن مع مرور الزمن، تحوّلت إلى بوصلة فعلية استخدمها البحّارة لتوجيه السفن. هذه البوصلة المغناطيسية غيرت مصير التجارة والرحلات والاكتشافات الجغرافية، حتى أن التاريخ البحري قبلها يختلف جذرياً عما جاء بعدها. فالمغناطيس هنا لم يكن مجرد حجر، بل كان دليلاً قاد حضارات إلى ضفاف جديدة.

❁ حيلة فلاسفة الإسكندرية :

في زمن الإغريق، كان بعض فلاسفة الإسكندرية

يستعرضون قوة المغناطيس لإبهار الناس. يذكر المؤرخ **بلينيوس الأكبر** أن الكهنة في المعابد كانوا يعلّقون تماثيل صغيرة من الحديد في الهواء بين حجري مغناطيس كبيرين، فتظل التماثيل معلقة وكأنها بلا سند، فيظن العامة أنهم أمام معجزة إلهية. لكن الحقيقة أن المغناطيس كان هو الكاهن الصامت، يخدع العيون بجاذبيته الخفية. وهكذا دخل المغناطيس مبكراً في لعبة الجمع بين العلم والسحر، بين الخداع والدهشة.

۞ البوصلة التي أنقذت كولومبوس :

في رحلته الشهيرة عبر الأطلسي عام **1492**، واجه **كريستوفر كولومبوس** و مساعدوه الثلاثة مأزقاً خطيراً : فقد لاحظ البحّارة أن إبرة البوصلة لا تشير إلى الشمال كما اعتادوا، بل تنحرف ببطء. دبّ الرعب في نفوسهم، إذ ظنوا أن المحيط يبتلع حتى قوانين الطبيعة. لكن كولومبوس، بدهاء القائد، هدّأهم قائلاً إن النجوم نفسها تتحرك، وإن البوصلة تظل صادقة. كان في

الواقع يكتشف ظاهرة جديدة هي **الانحراف المغناطيسي** ، الفارق بين الشمال المغناطيسي والجغرافي. لقد ساعده ذكاءه على تهدئة بحّارته، وساعده المغناطيس على أن يواصل رحلته التي غيّرت وجه التاريخ.

❁ مغناطيس نابليون في مصر :

عندما جاء نابليون بونابرت إلى مصر عام **1798** ، اصطحب معه نخبة من العلماء لدراسة أسرار وكنوز الشرق. وفي إحدى حملاتهم العلمية، أُرسلت بعثة إلى الصحراء الغربية فاكتشفت هناك صخوراً غريبة تجذب أدوات الجنود الحديدية. انبهر الجنود ودوّن العلماء أن في صحراء مصر **جبالاً تتنفس مغناطيساً** . لم يكن الأمر أسطورة، فقد كانت تلك الصخور غنية بالماغنيتيت الطبيعي .. وهكذا دخل المغناطيس من جديد صفحات التاريخ، لا كسحر غامض، بل كظاهرة جيولوجية تسجلها بعثة عسكرية كأنها ترسم سطراً في كتاب الكون.

****

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**كازانوفا المعادن**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= المغناطيس مجرد حجر جذاب تقع المعادن في شراكه ..

بل أن نقول :

= المغناطيس صنع التاريخ و يتغلغل في مختلف نواحي حياتنا اليوم ..

افترض العلماء أن الكون بدأ وفق النظرية المشهورة : (**الانفجار العظيم**) أي أن الكون يتوسع بقوة طاردة إلى الخارج ، و هذه النظرية فيها خلل بسيط يفترض سؤالاً ملحّاً : (**ما الذي سبب الانفجار أو بشكل أدق التمدد بالأساس في حين كان الكون خامل فيزيائياً منذ زمن طويل ؟! لا تفسير فيزيائي مقنع يوضح ما حدث !!**) ، لكن ماذا لو أن الكون بدأ بفرضية أخرى : (**الانجذاب العظيم**) ، أي أن هنالك مصدر جاذب خارج الكون هو من جذبه و يستمر بدفعه إلى التوسع السريع للغاية و حرك سكونه الأزلي عندما شاءت الإرادة الإلهية ..
مجرد سؤال عابر !!

وخلف ظهرك رومٌ

(المناعة الذاتية)

في زوايا التاريخ المعتمة، تتوارى الحكايات التي لا تُروى كثيراً، لأنها تكشف وجهاً آخر للإنسان، ذاك الوجه الذي يتقاطع فيه الطمع بالخوف، والمصلحة بالخيانة، والانتماء بالاغتراب. من بين هذه الحكايات، يلوح مشهد غريب كظلٍ على جدار : تعاون (**حركة السمر و السود**) الأيرلندية مع بريطانيا ضد أبناء وطنهم ، الثوار الأيرلنديين الذين حملوا على أكتافهم حلم الحرية و الكرامة و الاستقلال ..

إنها مفارقة قاسية، إذ كيف لمن وُلد في أرض تتوضأ بأمطار الثورة ويخصبها الحزن الأيرلندي أن يمد يده لقوة خارجية جعلت من الإنسان غريباً و هو الوطن ؟ لكن ، حين نمعن النظر، ندرك أن التاريخ غزير بتلك النفوس الضعيفة التي خانت وطنها و شوهت ملامحه، حين ينزلق الضعفاء إلى خدمة الأقوياء، وحيث قد يتحول بعض أبناء الوطن إلى أدوات تُستعمل ضد الوطن ذاته ..

كانت بريطانيا تدرك أن قوتها العسكرية، مهما بلغت، لن تكفي وحدها لإخماد جذوة الثورة الأيرلندية. لذلك التفتت إلى استغلال الداخل ضد الداخل، فاستدعت (**حركة السمر والسود**) ، تلك الفئة التي جمعت بين المرتزقة والمتطوعين المضللين، وبعض الذين دفعتهم الحاجة أو الوهم أو الإغراءات المادية ليكونوا عيونها وسيوفها داخل المجتمع الأيرلندي. بهذا التواطؤ، لم يعد الصراع بين قوة خارجية وشعب ثائر فقط، بل صار أيضاً صراعاً داخلياً، حيث يسيل الدم الأيرلندي بيد متطفلين على الوطن ..

وهنا، يطرح التاريخ سؤالاً موجعاً : **ما الذي يجعل الإنسان يختار أن يقف ضد وطنه ، وأن يخدم اليد التي تطعنه** ؟ ربما هو الخوف من بطش السلطة، وربما هو الطمع الذي يجعل الإنسان أحياناً أشرس من أي وحش، وربما هو ضباب الأيديولوجيا حين يُعمِي العيون عن شمس الحقيقة. وربما هو ذلك الضعف الأزلي في النفس البشرية، حين تختار النجاة الفردية على حساب النجاة الجماعية.

غير أن ما هو أعمق من كل ذلك، أن هذه الحكاية ليست حكراً على أيرلندا وحدها، بل هي مرآة تعكس سلوكيات البشر في كل زمان ومكان : إذ ما أكثر الذين يبيعون أوطانهم مقابل أمن مؤقت أو مكاسب صغيرة، وما أكثر

الذين يحتمون بالخارج ضد وطنهم ، غافلين أن الخارج سيستعملهم ثم يرميهم كأدوات بالية.

لقد سجل التاريخ أن (**السمر و السود**) كانوا عصاً غليظة في يد بريطانيا، يقتحمون البيوت، ويرهبون القرى، ويكسرون شوكة الثوار حيثما استطاعوا. لكن التاريخ نفسه سجل أن كل خيانة، مهما بدت قوية في لحظتها، هي جرح في جسد الوطن، قد يؤخر لحظة الحرية، لكنه لا يوقف مسار الثورة فهي مثل النار الاغريقية، تزداد اشتعالاً كلما صُب عليها الماء.

وهكذا، حين ننظر اليوم إلى تلك المرحلة، ندرك أن (**السمر و السود**) كانوا مجرد فصل عابر في ملحمة أطول : **ملحمة الشعب الإيرلندي التي ظل يحلم، ثم يقاتل، ثم يحيا من جديد بعد كل محاولة قتل و موت.**

وكأن تعاونهم مع بريطانيا لم يكن سوى امتحان آخر، امتحان كشف أن طريق الانتصار ليس مجرد مواجهة للتهديد الواضح، بل صراع مع الخيانة الكامنة في الداخل، مع الإنسان حين يضل، مع النفس حين تستسلم.

فالتاريخ يعلمنا أن الأوطان لا تنهزم إلا حين ينهزم أبناؤها من الداخل، وأن العدو لا ينتصر إلا إذا وجد من يفتح له الباب من الداخل. أما الشعوب، فمصيرها أن تنهض من رمادها مهما طال زمن الخيانة، لأن الوطن لا ينسى من ضحى من أجله، ولا يغفر لمن باعه بثمن بخس.

****

احذر من طعنة القريب فقد تكون قاتلة ..

في الأحوال الطبيعية يقوم الجسم بالدفاع عن نفسه في مواجهة التهديدات الداخلية و الخارجية و هذا منطقي و بديهي .. لكن يحدث أحياناً أن يهاجم جزء من الجسد نفسه ، فتكون الصدمة هائلة و الطعنة أشد إيلاماً و ربما قاتلة ، لأن من يطعنك يعرف جيداً كيف يؤذيك .. فقد منحته الأمان و سهلت إليه الوصول إلى ذاتك ..

فلماذا و كيف يحدث هذا الأمر الشائن و المذموم ؟!

هذا ما سنحاول الإجابة عليه خلال الصفحات التالية ،

بمقاربة مغالطتنا من ثلاث زوايا غاية في الأهمية :

① المناعة الذاتية ..

② الطابور الخامس ..

③ و خلف ظهرك رومٌ ..

لذا امنحني عزيزي القارئ انتباهك الكافي كي تتجنب الوقوع في شراك يحيكها لك أقرب المقربين منك ، و أنت توجه انتباهك إلى مشاكلك الخاصة التي أثقلت كاهليك متوهماً أنه كالسيف في ظهرك ، لتكتشف أنه بالفعل كالسيف في ظهرك لكن كي يطعنك و يريدك قتيلاً ..

أولاً . المناعة الذاتية :

ذلك اللغز الطبي الذي لم ينكشف إلا ليقودنا إلى سؤال أعمق عن جوهر الوجود الإنساني. ففي جسد الإنسان، حيث **الجيوش البيضاء** من الخلايا مرابطة على الحدود لتذود عنه وتصد غزوات **جيوش الظلام** من ميكروبات و طفيليات و غيرها ، يحدث أحياناً خلل مرعب : تنقلب الحامية على المحمية، ويتحول الحارس إلى قاتل. بدلاً من أن تدافع المناعة عن الجسد، تبدأ في مهاجمته، كأنها لا تميّز بين النافع و الضارّ ، بين التهديد و الوطن .. فينهار الجسد تحت ضربات جيشه الداخلي، في معركة عبثية يكون المنتصر فيها هو الخراب.

وهنا، يتجلى وجه الشبه الموجع مع الحياة نفسها. فما أشدّ قسوة أن يتحوّل المقربون – من ظنناهم سندنا و امننا – إلى مصدر الأذى والخذلان. إن خيانة القريب لا تُشبه طعنة البعيد ، فالبعيد يُهاجم من الخارج ونتوقع شرّه، أما القريب فيأتيك من حيث تأمن، من حيث تُسلم قلبك مطمئناً، فيغدو طعنه مضاعف الألم. تماماً كما يحدث في المناعة الذاتية : المرض لا ينشأ من عامل خارجي متسلل ، بل من الخلايا التي وُجدت لتحميك و تآزرك و تنصرك في معركتك ..

في كل خيانة من قريب، يتكرر مشهد المناعة المضللة. كأن النفس البشرية، مثل الجسد، تحمل في طياتها احتمال أن يختلط الحق بالباطل، وأن يُقلب السلاح على أهله. فكما أن المناعة تنسى وظيفتها فتضرب الجسد، ينسى المقربون عهد الوفاء و المحبة ، و الواجب السماوي المكلفين به فيغدرون بمن كان يظنهم الحصن المنيع و ينتظر نصرهم كي ينصرهم ..

ولهذا، **فإن مناعة الجسد ومنعة القلب يتشابهان في مصيرهما : كلاهما قد يسقط حين يتحول السند إلى سيف في الخاصرة ..**

لكن، كما يتعلم الطب من أمراض المناعة الذاتية كيف يعيد التوازن ويُهدّئ خيانة الخلايا، كذلك يتعلم القلب

المجروح كيف يرمم نفسه : أن لا يثق ثقة عمياء إلا بما هو أسمى من البشر ، بالسماء ، أن يدرك أن بعض الخيانات ليست إلا صدى لخلل في أرواح أصحابها عندما حركها الطمع و أعماها الحقد .. فالجسد، برغم ما يعيشه من هجوم ذاتي، قد يشفى إذا عُرف الداء وطُرِق علاجه، والروح، مهما نالها الغدر، قادرة على أن تتجاوز إذا فهمت أن الخيانة لا تُلغي وجود الوفاء، كما أن المرض لا يُلغي إمكانية الصحة.

هكذا، يصبح مرض المناعة الذاتية استعارة كبرى للحياة : حين ينقلب أقرب الناس علينا ، نتألم، لكننا نتعلم أن نعيد بناء حصوننا على أساس أعمق من مجرد القرب الجسدي أو العاطفي، أن نبحث عن سند يتجاوز حدود المصادفة والدم، سندٍ من قيم وأفكار وإيمان لا يخون. فكما يواصل الجسد نضاله من أجل التوازن، يواصل الإنسان رحلته بحثاً عن ثقة لا تنكسر، عن حب لا ينقلب عداءً، وعن حصن داخلي لا يُهزم حتى لو انهارت كل الحصون من حوله .. و هذا الحصن ما هو إلا أنت عندما تضع ثقتك كلها بالسماء و بنفسك و فقط.

ثانياً ، الطابور الخامس :

ذلك المصطلح خرج من رحم **الحرب الأهلية الإسبانية** في ثلاثينيات القرن العشرين، حين أعلن أحد قادة

الجنرالات الفاشيين أن لديه أربعة طوابير تزحف لاحتلال **مدريد**، أما **الطابور الخامس** فهو أولئك المتخفّون في الداخل، بين الأزقة والبيوت، ممن سيفتحون الأبواب من الداخل حين يحين الوقت. ومنذ تلك اللحظة، لم يعد الطابور الخامس مجرد مصطلح عسكري، بل صار رمزاً للخيانة الكامنة في الأحشاء، للعدو المستتر الذي يتسلل بثوب الصديق.

إنه المفهوم الذي يذكّرنا أن الأخطر ليس دائماً الجيوش الزاحفة عبر الحدود، بل تلك العيون المأجورة التي تراقب من الداخل، والألسنة التي تهمس بالأسرار للطامعين ، والأيادي التي تُصافح في العلن بينما تُخفي خنجراً في الظل. فالخارج يُعرَف بتهديده ، لكن القريب المندس يوجع أكثر، لأنه يلبس قناع الانتماء و الأمان. الطابور الخامس هو نسخة تاريخية مكثفة من مأساة البشر مع بعضهم : **إن الأذى الأعظم يجيء غالباً من حيث نطمئن، لا من حيث نتحسب.**

لقد أظهر التاريخ أن كل أمة، حين تواجه خطراً خارجياً، إنما تواجه في الوقت نفسه امتحاناً داخلياً : هل سيتماسك الداخل كالبنيان، أم ستتسلل فيه التشققات، فيدخل منها الخارج بسهولة ؟ إن الطابور الخامس هو تلك التشققات : النفوس التي تبيع انتماءها بثمن بخس، أو التي يُضللها الوهم حتى تظن أن خدمة الخارج نجاة

فردية، غافلة عن أن غرق السفينة سيبتلع الجميع .. إن هؤلاء ببساطة هم حصان طروادة الذي يدسه الخارج في الداخل ..

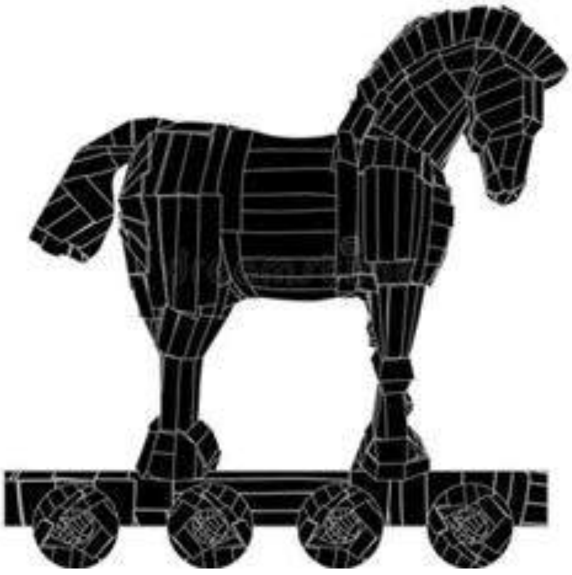

وهنا يتجلى الشبه العميق بين مفهوم الطابور الخامس وجرح الخيانة الإنسانية. كما في المرض الذي ينهش الجسد من داخله لا من خارجه، وكما في خيانة المقربين التي تهوي بالروح أكثر مما يفعل تهديد صريح، كذلك الطابور الخامس يفتك بالوطن أكثر مما تفعل جيوش الخارج. فالتهديد الواضح يجعل الصفوف تشد بعضها بعضاً، أما الخطر الخفي فيزرع الشك، ويحوّل الثقة إلى ركام، والبيت الواحد إلى جدران متناحرة.

قد يقول قائل : إن التهديد الخارجي بقوته وسلاحه هو الخطر الأكبر. لكن التاريخ يبتسم بمرارة ويجيبه : كلا، فما من إمبراطورية ولا مملكة ولا ثورة هُزمت إلا حين

وجدت في داخلها طابوراً خامساً يمهّد للانهيار.
فالخارج مهما اشتد بأسه يظل طارئاً، أما الخيانة الداخلية فهي كالصدأ سرعان ما ينتشر في كل مكان.

من هنا، فإن درس الطابور الخامس ليس درساً عسكرياً وحسب، بل هو حكمة حياتية : أن نُدرك أن الوطن الشامل للجميع لا يحميه فقط سلاحنا ضد الخارج ، بل يقظتنا ضد خيانة الداخل. أن الأذى الأعظم لا يأتي من البعيد الذي نراه بوضوح، بل من القريب الذي نتوهم أنه سند. وهكذا، فإن الطابور الخامس ليس مجرد قصة من ماضٍ دموي، بل مرآة تُحذّرنا أن الخيانة قد ترتدي وجهاً مألوفاً، وأن أشد الحصون متانة ليست تلك التي تُبنى من حجارة، بل التي تُبنى من وفاء لا يُباع ولا يُشترى و في هذا الزمن الرديء يكون الوفاء لذاتك ..

ثالثًا ، و خلف ظهرك رومٌ :

إنّ بيت الشعر الأيقوني : (**و سوى الروم خلف ظهرك روم**) ، ليس مجرد شطر في قصيدة، بل مرآة عميقة لحالة إنسانية تتكرر منذ فجر التاريخ : أن تُحاصَر بين جانب يهاجمك في وضح النهار من الغرب جانب آخر يتربص بك من وراء ظهرك متدثراً بثوب الصداقة تحت جنح الظلام في الشرق. هو وصف دقيق لمأساة مزدوجة، حين يضطر الإنسان أن يواجه في آنٍ واحد

سيفاً مُشهرًا أمام عينيه وخنجراً خفياً يتهيأ ليغرسه في خاصرته.

إن التهديد الصريح في وضح النهار، مهما كان شرساً، أهون على النفس من الخائن المتخفي في الظلال ؛ لأنك على الأقل ترى وجهه وتعرف حدوده وتتهيأ لصدّه. أما ذاك الذي ادعى الرفقة وتسلّل إلى حصنك الداخلي، فإنه يغدر بك حيث تأمن، في لحظة تغمض فيها عينيك مطمئناً لوجوده. وهنا يكمن الألم الأشد : أن الطعنة القريبة لا تُصيب الجسد فحسب، بل تهشم القلب، وتترك في الروح ندبةً لا تندمل.

بيت الشعر هذا يذكّرنا أن الصراع في الحياة ليس خطياً دائماً، ليس مواجهة واحدة مع جانب واحد، بل هو شبكة متداخلة من المخاطر، بعضها ظاهر وبعضها كامن، بعضها يعلن الحرب وبعضها يتظاهر بالمحبة. وهنا يظهر الوجه الفلسفي العميق : **أن الإنسان لا يُهزم فقط**

بقدر ما يحيط به من تهديدات خارجية ، بل بقدر ما يسمح للمقنّعين أن يقتربوا من قلبه أكثر مما يجب.

في صورة (**الغرب إلى يسارك و الشرق إلى يمينك فإلى أي جانبيك تميل**) يتجلى أيضاً ذلك التوتر الأزلي بين الثقة والخيانة، بين الجرأة في مواجهة الخطر وبين الحذر من الأقنعة. وكأن البيت يقول لنا : لا يكفي أن تتأهب لجانب يرفع سيفه بوجهك، بل عليك أن تتعلم كيف تميّز بين من يضع يده على كتفك ليشد أزرك ومن يضعها استعداداً لدفعك إلى الهاوية.

هذه الحالة ليست حكراً على المعارك القديمة، بل هي استعارة للحياة نفسها. كم من إنسان يواجه خصوماً في عمله أو في مجتمعه أو في معركته الشخصية، بينما يظن أن صديقه يسانده، فإذا بالصديق يطعنه من الخلف في اللحظة التي كان يُنتظر منه الدعم. عندها يدرك المرء أن الخطر الأكبر ليس في عدد الخصوم ، بل في انكشاف الظهر لمن لا يستحق الثقة.

لكن رغم قسوة هذا المشهد، فإنه يحمل درساً جوهرياً : أن القوة الحقيقية لا تأتي من كثرة الحلفاء، بل من صلابة الداخل، من يقظة البصيرة التي تميز بين المخلص والمتربص. **فالمعركة مع التهديد الواضح تنتهي بانتصار أو هزيمة، أما المعركة مع القريب**

الخائن فهي امتحان للروح، اختبار لقدرة الإنسان على النهوض من تحت أنقاض الثقة المهدورة.

وهكذا، يبقى بيت الشعر ذاك صدى أزلياً لكل إنسان وجد نفسه محاصراً من اليمين و اليسار، ليعلّمه أن الحياة لا تُخاض بسيف الشجاعة وحده، بل بدرع الحكمة أيضاً، وأن الطعنة التي تأتي من حيث نأمن، هي التي تجعلنا ندرك أن **أعظم حصوننا ليست الجدران ولا الأصدقاء الكثيرون، بل ثقتنا بذاتنا بالمقام الأول و التي تحرس ظهورنا حين ينكشف كل شيء.**

******

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**و خلف ظهرك رومٌ**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= أنا أثق بفلان ثقة عمياء و سأسلمه مفاتيح مصيري ..

بل أن نقول :

= الثقة العمياء خطيئة بالأساس لأنها عمياء ، و الضربة المميتة تأتيك غالباً من هؤلاء ، آخر من تتوقع أن يخونوك أو يظلموك ، لأن موتك باختصار انتصار لأنفسهم ، لذا قدّموا فوزهم على خسارتك و ظلامهم على نورك و مصلحتهم على كرامتك .. فلا تقل فلان سيف في ظهري ، لأنه سيطعنك في خاصرتك إن

تطلبت مصلحته الشخصية ذلك، **بل اجعل من ذاتك سيفاً يجسد الكوكب برمته و يحارب روم الشرق من يساره و روم الغرب من يمينه في معركة يحاول كل منهما أن يلغي الآخر فيها لكنها تجمعهما على هدف واحد و هو قتلك لإسكات محاولاتك في إثبات أن الاعتدال و التوازن هما سيد الكون فقط ، حيث لا غالب و لا مغلوب ..**

في أرشيف الشعر بيت أيقوني يقول :

أعلمه الرماية كل يومٍ

فلما اشتدّ ساعده رماني

و هذا الشعر يختصر كل شيء ببساطة .. الخيانة لا تأتي أبداً من عدو ، فهي ليست خيانة عندها .. إنها تأتي من آخر شخص تتوقعه ، الشخص الذي نصرته و

سندته و علمته ما لا يعلم ، لكن لا تكن عندها يائساً مستسلماً كما كان حال يوليوس قيصر فتقول : (**الطعنة لم تقتلني بل قتلني وجه من طعنني**) ، بل انبذ الخائن خارج حياتك و اعتمد على نفسك ، فطعنات الغدر تشفى مع الزمن ، و عندها ستستعيد بريقك و تقوم قيامة يسوع كالشمس من براثن الموت ، ففيك من روح الله نفحات ، و **الله حيّ لا يموت** ..

الغمرة الإلهية

(جرح النور)

ما أجمل **الراقصين المولويين**... أولئك الذين يدورون في صمتٍ عميق ككواكبٍ حول شمسٍ الإله ، لا يرقصون كما يرقص الجسد، بل كما تصلي الروح. إن حركتهم ليست لهواً ولا استعراضاً، بل هي طقس من طقوس العروج، رحلة تبدأ من الأرض لكنها لا تقف عندها، إذ ما إن يشرع الراقص بالدوران حتى يغدو كأنه خرج من حدود الزمان والمكان، مستسلماً لنداء خفيّ يتجاوز اللغة ويعبر إلى ما وراءها.

في المولوية، لا يكون الجسد إلا أداةً لتجسيد الفناء، والفناء هنا ليس موتاً بل ولادة ثانية : تبدد الأنا الضيقة و توسع الروح المتصلة بالكل. حين يمد الراقص ذراعه اليمنى إلى السماء ويخفض اليسرى نحو الأرض، كأنه يقول للعالم : أنا جسر بين العلو و السفل، بين النور الذي يسكب من الأعلى والطين الذي يستقبله في الأسفل. وفي تلك الحركة المكررة، يصبح الراقص وسيلةً للفيض الإلهي على الحياة ..

الدوار الذي يراه المتفرج مجرد دوران، هو في الحقيقة انمحاء تدريجي للذات، كما يذوب الملح في الماء. فكل التفافة هي تجريد آخر من ثقل الجسد، وكل دورة هي انسلاخ من وهمٍ بشري نحو يقينٍ سماوي. حتى تتلاشى الحدود بين الداخل والخارج، بين الدائر والدائرة، فيصبح الراقص هو الرقصة، وتصبح الرقصة هي الصلاة، وتصبح الصلاة هي العبور إلى حضرةٍ لا تُرى.

ومن يتأمل وجوه المولويين أثناء دورانهم، يلمح تلك السكينة الغامرة التي تُناقض عنف الحركة. عيون نصف مغمضة، كأنها تطل إلى داخل لا إلى خارج، وابتسامة باهتة كأنها انعكاس سرّ لا يُقال. هم في الظاهر يدورون على مسرح، لكنهم في الباطن يدورون في فلك لا نهاية له، حول شمسٍ من محبة الله التي لا تُدرك بالعقل بل تُعاش بالذوق.

إنها حالة صوفية تتجاوز الفهم العادي : الجسد يتحرك، لكن الروح هي التي ترقص. الأصوات الموسيقية والأنغام لا تُسمع بالأذن وحدها، بل بالكيان كله. حتى الصمت الذي يسبق الطقس أو يعقبه ليس فراغاً، بل امتلاء من نوع آخر، امتلاء بنشوة خفية لا يعرفها إلا من ذاقها.

وهكذا، يصبح رقص المولوية درساً رمزياً للبشر أجمع: أن الحياة، مهما بدت معقدة ومليئة بالصراع، إنما هي

دوران دائم حول مركز لا يتغير. وأن التلاشي في الحب الإلهي ليس خسارة بل خلاص، وأن أجمل الحركات ليست تلك التي تسعى إلى إظهار الذات، بل تلك التي تنمحي فيها الذات كي تفسح المجال للنور.

فالمولوية ليست فناً جمالياً فحسب، بل هي فلسفة عميقة تختزل سرّ الإنسان بين الأرض والسماء، بين الجسد الذي يخطو على التراب والروح التي تحوم في عوالم الغيب. هي تذكير لنا أن الرقص الحقيقي ليس ما تفعله الأقدام، بل ما يفعله القلب حين يستسلم لنداء الأعلى.

****

الصوفية ..

ذروة العبادة و منتهى الإيمان .. عندما يذوب الأرضي في السماوي و يتماهيان في كيان واحد أحد .. توجه ديني مفعم بالتأمل و ملهم للبشرية بمئات الأقوال الذهبية ، تبلسم الجراح و تداوي الأرواح بالعسل المصفّى .. و إن كنا قد قاربنا في مغالطات دينية من قبل الأديان السماوية و الأرضية و الحديثة العجيبة و الميثولوجيات الشهيرة ، فالصوفية هي قمة الهرم ، القطعة الأخيرة من الأحجية التي يتكامل معها كل شيء ..

لذا هيا بنا عزيزي القارئ نحتسي الخمرة الإلهية معاً و

نسكر بها من قبل أن يخلق الكرم بتدوير ثلاثة كؤوس بيننا :

① تاريخ الصوفية ..

② الصوفية فلسفياً ..

③ أشهر أقوال المتصوفين ..

لذا ارفع النخب و هيا بنا نمنح الصوفية جزءاً يسيراً من حقها الضائع ..

أولاً ، تاريخ الصوفية :

الصوفية ... ذلك النهر الخفي الذي شق طريقه في أرواح البشر كما تشق الجداول مجراها في الصخور، بصبرٍ هادئ وعمقٍ لا ينضب. ليست الصوفية مذهبا سياسيا ولا تيارا عابرا، بل هي حنين قديم للإنسان نحو المطلق، توق دفين في قلب كل كائن أن يخرج من حدود التراب ويستظل بأفق النور. وحين نتتبع تاريخها في العالم، لا نجدها وليدة زمن أو مكان بعينه، بل نلمح جذورها في كل حضارة وديانة، إذ ما من إنسان رفع بصره إلى السماء بحثاً عن معنى إلا وكان فيه مسّ من الصوفية ..

في العالم الإسلامي، ظهرت الصوفية أول الأمر كبذرةٍ من خشية الله وزهدٍ في الدنيا. كان الصحابة الأوائل

يسلكون طريق الصفاء الداخلي، ثم جاء التابعون والزهاد الذين فرّوا من زخرف الحياة، ليقيموا في الصحراء أو في الزوايا، مكتفين باليسير، حاملين قلوبهم كأواني نقية لا تطيق امتلاءً بغير الله. ومع مرور القرون، تشكّلت الطرق، وتبلورت التعاليم، فبرزت أسماء عظيمة أضاءت سماء الروح : **الجنيد، الحلاج، السهروردي، جلال الدين الرومي، ابن عربي**... كانوا شعراء ومفكرين ومجذوبين في آن واحد، حملوا سرّ الله في كلماتهم، وجعلوا من تجربتهم الروحية جسراً بين الأرض والسماء.

لكن الصوفية لم تبقَ حكراً على المسلمين، بل وجدت لها أشباهاً في ديانات وثقافات أخرى. في المسيحية، كان الرهبان والمتصوفة الكبار – من **يوحنا الصليب** إلى **تيريزا الأفيلية** – يعيشون تجارب شبيهة، يغرقون في صلوات طويلة حتى تغدو قلوبهم معراجاً للرحمة. في الهند، أزهرت **مدارس اليوغا والبهكتي**، حيث الانصهار في المحبوب الإلهي يشبه الفناء الصوفي في حضرة الله. حتى في الشرق الأقصى، في **الزن البوذي والطاوية الصينية**، نجد ذات البحث عن الصمت العميق الذي يتجاوز الكلمات، عن فراغ يكتنز بالامتلاء. وكأن الصوفية خيط ذهبي ممتد عبر الأديان كلها، يوحّد الإنسان في عطشه للمعنى.

أما جوهر الصوفية السامي، فلا يُختصر في طقوس ولا

أزياء، بل في سعيها إلى تحرير الإنسان من أوهام الأنا. الصوفي يعلم أن النفس أخطر أعداء الإنسان، فهي التي تشتهي وتخدع وتنتفخ بالغرور. لذلك جعلوا شعارهم : (**من عرف نفسه فقد عرف ربه**) .. فالطريق الصوفي يبدأ بالزهد والتقشف، ثم بالذكر الدائم حتى تنطفئ ظلمات الغفلة، ثم بالمحبة التي تتسع لتشمل كل الوجود. عندها يتحقق (الفناء في الله) ، لا فناء الجسد، بل فناء الكبرياء والأنانية، ليفيض الإنسان بنورٍ لا يخصه وحده بل يغمر العالم من حوله.

الصوفي لا يرى اختلافاً بين الناس في ألوانهم ومذاهبهم، لأنه غاص أعمق من السطحيات حتى بلغ النبع الواحد الذي يشرب منه الجميع. **لذلك كان الصوفيون في التاريخ دعاة سلام وتسامح**، يميلون إلى العفو لا الانتقام، إلى الإصلاح لا الصراع. لم يكن هدفهم السلطة ولا الجاه، بل كانوا يهربون منها كما يهرب العطشان من السراب. كانوا يرون أن قيمة

الإنسان لا تُقاس بما يملك، بل بما ينفق من محبة، وبما يضيء من قلوب الآخرين.

ومن أسرار السمو الصوفي، أنه يجمع بين الفلسفة والشعر، بين العبادة والفن. فقصائد الرومي وابن الفارض، وأشعار الحلاج، لم تكن مجرد كلمات، بل أنغاماً من نارٍ وندى، تعبر القرون لتوقظ فينا ذات الظمأ. حتى الموسيقى والرقص، كما في المولوية، لم تكن عندهم لهواً، بل وسيلة لتجسيد الانسجام الكوني، حيث تدور الأرواح كما تدور الكواكب حول مركزها الأزلي .. الشمس الإلهية التي تنير الكون ..

إن تاريخ الصوفية هو تاريخ بحث الإنسان عن الحرية الداخلية، عن النجاة من قفص الشهوة والزمان .. و جوهرها السامي هو أن يذوب الفرد في بحر المحبة حتى يغدو (**لا شيء**) ، ليكتشف أنه في اللا شيء هذا قد صار (**كل شيء**) .. ومن هنا، فهي ليست مجرد صفحة في كتاب الدين، بل صفحة في كتاب الإنسان، ستظل تقرأها الأرواح في كل عصر، لأنها تجيب عن سؤال لا يموت : **كيف نكون بشراً، ومع ذلك لا نتوقف عن العروج نحو ما يتجاوز البشر؟**

ثانياً ، **الصوفية فلسفياً** :

الصوفية، حين ننظر إليها من زاوية فلسفية، ليست

مجرد طريق للزهد أو التعبد، بل هي محاولة جريئة لفهم الوجود من الداخل، لا من الخارج. إنها فلسفة القلب مقابل فلسفة العقل، إذ بينما ينشغل الفيلسوف العقلي بتفكيك العالم عبر المنطق والتحليل، ينشغل الصوفي بالانغماس في جوهره عبر التجربة المباشرة، عبر الذوق والشهود. **فالفيلسوف يسأل : ما الحقيقة ؟ أما الصوفي فيغدو هو الحقيقة حين يفنى في المطلق، فيصبح السؤال والجواب شيئاً واحداً.**

الفلسفة التقليدية كثيراً ما سارت على خط العقل الجدلي، تبحث عن برهان، عن تعليل، عن بناء منطقي يربط المقدمات بالنتائج. أما الصوفية، فهي فلسفة لا تخاطب العقل وحده، بل الوجدان والكيان بأسره، لأنها ترى أن المعرفة الحقة لا تُنال بالاستدلال وحده، بل بالتذوق، بما يسمونه (**المعرفة الحضورية**) .. والمعرفة الحضورية تعني أن يدرك الإنسان الحقيقة لا كشيء خارجي عنه، بل كحضورٍ في داخله. وهذا ما يجعل الصوفي فيلسوفاً من نوع آخر : فيلسوفاً لا يكتب بالمنطق، بل يعيش بالمعاناة الروحية.

من الناحية الفلسفية، يمكن القول إن الصوفية محاولة لتجاوز الثنائية التي يعاني منها الفكر الإنساني : ثنائية العقل والجسد، الروح والمادة، الشرق و الغرب ، الإنسان والله. فبينما عجزت الفلسفات الوضعية عن حل

هذه الانقسامات إلا بميلٍ نحو طرف دون الآخر، جاءت الصوفية لتقول : **لا انفصال في الحقيقة، بل وحدة في العمق**. كل كثافة في المادة ليست إلا ظلّاً للنور، وكل روح ليست إلا امتداداً للكلّ الأسمى. ومن هنا يتجلّى مفهوم (وحدة الوجود) عند ابن عربي، أو مفهوم (الحق والحقيقة) عند الرومي، باعتبار أن كل ما في الوجود إشارات ورموز تدل على المطلق و تبصم على أن الله هو كل شيء معاً .. الليل و النهار .. المادة و الروح .. الشرق و الغرب .. الأول و الآخر .. الظاهر و الباطن و كل الثنائيات الأخرى في كيان واحد أحد ..

ومن اللافت أن الصوفية فلسفة ليست نظرية فقط، بل عملية أيضاً. فبينما قد تبقى كثير من النظريات الفلسفية في فضاء التجريد، تترجم الصوفية رؤيتها في طقوسها وممارساتها : في الذكر الذي يكرّس الحضور، في الخلوة التي تتيح مواجهة النفس، في السماع والرقص الذي يجسد الانسجام الكوني. وكأنها تقول إن الفلسفة لا تكون فلسفة حقاً ما لم تصبح أسلوب حياة.

وجوهر هذه الفلسفة أن **الحقيقة واحدة، لكن طرق الوصول إليها متعددة. لذلك انفتح الصوفي على كل الأديان وكل الثقافات**، ورأى فيها مرايا تعكس ذات النور. في هذا المعنى، يمكن أن نعتبر الصوفية أفقاً فلسفياً كونيّاً، يتجاوز الانقسامات العقائدية الضيقة، **ليبحث عن النبع الذي يسقي الجميع**. إنها فلسفة **الكلّ في مقابل الجزء، الوحدة في مقابل التعدد، الحب في مقابل الصراع.**

وبذلك، تبدو الصوفية كأنها الوجه الآخر للفلسفة، الوجه الذي يعيد إليها بعدها الشعوري والوجودي، فلا تعود مجرد لعبة عقلية، بل بحثاً صادقاً عن معنى الإنسان في الكون. **إنها فلسفة لا تُكتَب بالحروف فقط، بل بالدموع والصلوات والرقصات**، فلسفة ترى أن المعرفة الحقيقية ليست ما نملكها في كتبنا، بل ما يسري فينا كتيار سرّي لا ينضب.

ثالثاً ، أشهر أقوال المتصوفين :

لقد ترك المتصوفون من بعدهم إرثاً حياً لا يموت ، يرسم لنا ملامح الطريق الذي قادهم إلى الله و الصورة التي رسموها له في تصوفهم ثم آلية التماهي مع هذه الصورة في حياتنا .. و في أرشيف التاريخ كنوز حقيقية من هذا النوع كأشعار و أقوال و قصائد ، فنجد شيخ المتصوفين **جلال الدين الرومي** مثلاً يقول :

(مَن عرف نفسه فقد عرف ربه.)

و أيضاً :

(المهمة ليست أن تبحث عن الحب، بل أن تزيل الحواجز التي بنَيتَها في داخلك ضده) ..

ثم انظر إلى هذه المقولة ما أروعها من فلسفة :

(جُرحك هو المكان الذي يدخل منه نور الله إليك.)

ثم تسيل جوهرة أخرى من شفتيه :

(أنت لست قطرة في المحيط. أنت المحيط كله في قطرة.)

يطل علينا من خلفه المتصوف الجميل **شمس الدين التبريزي** فيقول :

(العقل قد يوصلُكَ إلى الباب، لكنّه لا يدخلك إلى البيت.)

ثم يتابع :

(إذا حاولت أن تعرف إلى أين يقود الطريق، لا فائدة؛ فكّر فقط في خطوتك الأولى، فالبقية ستتكوّن.)

و ما أجمل مقولته الفلسفية :

(من يعيش ليُرضي الناس يعيش في دوّامة الخداع.)

و من تحفه الصوفية أيضاً :

(العالم كامل فريد؛ الجميع مُربوط بخيوط غير مرئية.)

ثم يظهر ظل **الحلاج** الغامض ليقول :

(أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا)

و يتابع العزف على نفس الوتر فيقول :

(مزجت روحك في روحي كما تمزج الخمرة بالماء الزلال.)

ثن يتابع غموضه الشفاف فيقول :

(عجبت لك يا سرّي كيف ظهرت، وعجبت لك يا علني كيف استترت.)

و نجد إلى جانبه رفيق درب الصوفية **ابن الفارض** يتمتم :

(قلبي يحدثني بأنك متلفي .. روحي فداك عرفتَ أم لم تعرفِ.)

و نختم بشعره الأيقوني الذي يسكر كل من يتلوه :

(شربنا على ذكر الحبيب مدامةً ... سكرنا بها من قبل أن يُخلق الكرمُ.)

و قائمة المتصوفين و دررهم لا تنتهي .. فالتصوف عقيدة روادها عبر صفحات التاريخ كثر ، و المتصوف متى امتلأ قلبه بالله فاض حكمةً على لسانه ، فمن يعرف الله لا يحتمل الكتمان ..

******

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة (**الخمرة الإلهية**) ، من الأنسب ألا نقول بعد الآن :

= الصوفية ليست من الدين ، إنها مجرد فلسفة لا أكثر..

بل أن نقول :

= الصوفية هي ذروة التدين و العبادة ، هي حلول السماوي في الأرضي و ذوبان الأرضي في السماوي ، عندما ترى الحياة لوهلة من الأعلى فتصغر شهواتها و متاعها في عينيك .. تترك نفسك خلفك إلى اللاشيء و تدخل بروحك ملكوت الكل شيء ..

يقول المتنسك الهندي **راما كريشنا** :

الله كالبحر و الإنسان المتنسك كالملح فيه

و هذا يختصر كل شيء بجمالية .. إن تبخر ماء البحر بقيت النفوس كملح بلا قيمة .. أما إن انتزع الملح من البحر فلا ينقصه بشيء بل إنه يزداد عذوبةً و صفاءً عندما يتنقى من آثام الخطائين فيعود الحجر المقدس أبيض نقياً ، فالناس بحاجة إلى السماء على الدوام لا العكس ..

و الله متمٌّ نوره ...

محتوى الكتاب :

- مغالطة الموناد (موشور الحياة)
- مغالطة الخلايا الجذعية (أكسير الحياة)
- مغالطة و الله متمٌّ نوره (رهاب الشمس)
- مغالطة الذهب يظلّ ذهباً (إلدورادو)
- مغالطة CO_2 – O_2 (عندما يطرد الكربون)
- مغالطة لا أملك خياراً (حجة الرقاصة .. الأرض مائلة)
- مغالطة إيفيرست (صراع العروش)
- مغالطة القرصنة (الأعور المحتال)
- مغالطة واقع افتراضي (الأكوان الموازية)
- مغالطة الكوكب المضجر (ما خفي كان أعظم)
- مغالطة فلسفية (انتقام لوسيفر)
- مغالطة الجندي المجهول (أبطال الظلّ)
- مغالطة وقوف على الأطلال (عروش خاوية)
- مغالطة الفنّ الخلّاق (أثبت للعالم أنك موجود)
- مغالطة سمّ + سمّ = سمسم (الحلقة المفرغة)
- مغالطة كازانوفا المعادن (الانجذاب الكوني العظيم)
- مغالطة خلف ظهرك رومٌ (المناعة الذاتية)
- مغالطة الخمرة الإلهية (جرح النور)

I am